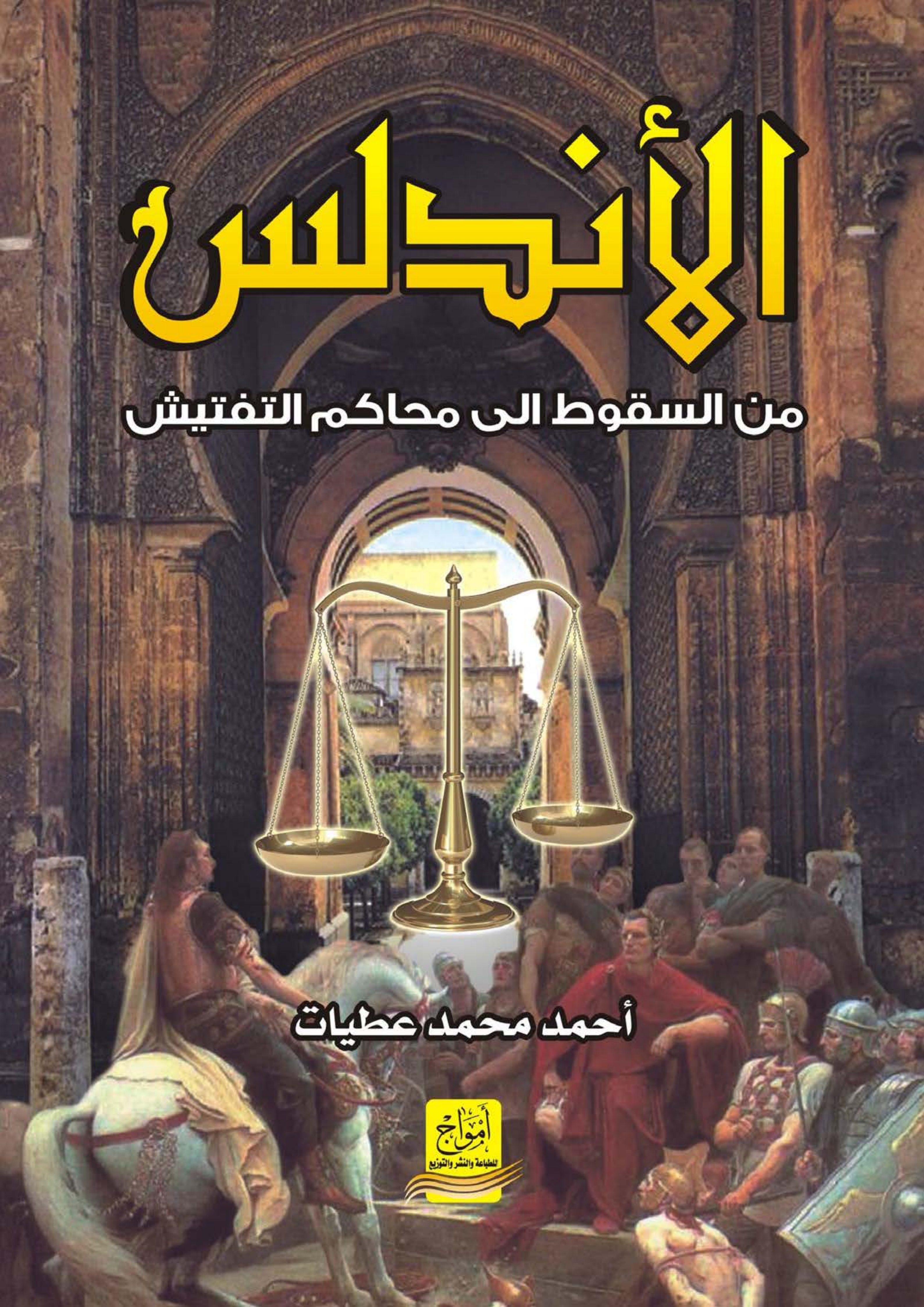

الأندلس
من السقوط الى محاكم التفتيش
أحمد محمد عطيات
أمواج
للطباعة والنشر والتوزيع

الأندلس

من السقوط إلى محاكم التفتيش

أحمد محمد عطيات

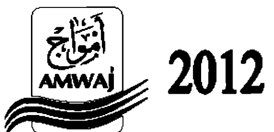
الأندلس

من السقوط إلى محاكم التفتيش









رؤيتنا: العلم والثقافة أساسان متينان للحياة السوية على طريق النجاح والعمل الإبداعي
رسالتنا: نشر الإبداعات في شتى صنوف العلم والمعرفة بما يسهم في التطور مع المحافظة على الموروث لإعداد جيل صالح يرتقي بالأمة نحو الآفاق ويضعها في صدارة الأمم.
قيمنـــا: منارات ترشدنا لتحقيق رؤيتنا ورسالتنا

956.061
عطيات ، أحمد محمد
الأندلس: من السقوط إلى محاكم التفتيش/ أحمد محمد عطيات.- عمان: دار أمواج للنشر والتوزيع، 2012
(268) ص
ر.إ.: (2012/2/519)
الواصفات : / تاريخ الأندلس 711-1490//فتح الأندلس /

• يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.
• تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN
9789957528546



أمواج للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن - عمّــان
ماركا الشمالية - دوار المطار - ماركا سنتر
تلفاكس: 0096264888361
E-mail: amwajpub@yahoo.com

مقدمة

دخل الإسلام الأندلس وانتشر فيها بعد فتحها سنة 92هـ، وأقام المسلمون هناك دولة استمرت أكثر من ثمانية قرون، وبلغت أوجها في خلافة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/ 912-961) حيث أصبحت من أكثر دول العالم علمًا وتحضرًا ومدنية وعلوما وقوة عسكرية، وعاش فيها المسلمون في رغد من العيش؛ حيث الأرض الخصبة، والمياه العذبة، والجنان الخضرة، والمناخ المعتدل.

يا أهل أندلس لله دركُمُ … ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنة الخلدُ إلا في دياركمُ … لو خُيرتُ. هذا كنت أختارُ
لا تحسبوا في غد أن تدخلوا سقرا … فليس تُدخل بعد الجنة النارُ

وكان أبناء الأثرياء في أوروبا يتوجهون للدراسة في مدارسها وجامعاتها، وعندما يعودون إلى بلدانهم يفخرون بأنهم تتلمذوا على أيدي علمائها العرب المسلمين، ويتعمدون استعمال كلمات عربية حتى يقال: إنهم متعلمون مثقفون.

وليس أدل على مدى التقدم الحضاري والعلمي الذي بلغه المسلمون في الأندلس من الرسالة التي بعث بها ملك انجلترا جورج الثاني إلى خليفة المسلمين بالأندلس هشام الثالث !!!

رسالة من أكبر قادة أوروبا آنذاك إلى خليفة المسلمين في الأندلس ،نحن مدعوون جميعا لقراءتها والتأمل فيها جيدا، علما أن هذه الرسالة حقيقية أي وهي موجهة من ملك إنكلترا إلى خليفة الأندلس !!

أين كنا .. وأين صرنا ...وكيف ومتى .. ومتى سنعود ؟!

وهذا هو نص الرسالة التي بعث بها ملك انجلترا جورج الثاني إلى خليفة المسلمين في الأندلس هشام الثالث !!!

تُرى ماذا يطلب ملك انجلترا من خليفة المسلمين بالأندلس ، وكيف كان يخاطبنا ملوك أوروبا !!!

اقرءوا الرسالة بتمعن ...

إلى صاحب العظمة - خليفة المسلمين - هشام الثالث جليل المقام

من جورج الثاني ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس

صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام،

وبعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان،ولقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز تتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم،وحماية الحاشية الكريمة وحدب من اللواتي سيتوافرون على تعليمهن.ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص).

من خادمكم المطيع جورج ملك إنجلترا.

جواب الخليفة الأندلسي هشام الثالث...

بسم الـلـه الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين ، وبعد:

إلى ملك انجلترا وايكوسيا واسكندنافيا الأجلّ..

اطلعت على التماسكم، فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر مـن أربـاب الشأن، وعليه نعلمكم أنه سوف ينفق على هذه البعثـة مـن بيـت مـال المـسلمين، دلالـة عـلى مودتنا لشخصكم الملكي. أمّا هديتكم فقد تلقيتهـا بـسرور زائـد، وبالمقابـل أبعـث إلـيكم بغـالي الطنافس الأندلسية، وهو من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغـزى الكـافي للتـدليل عـلى التفاتتنا ومحبتنا....و السلام .

خليفة رسول الـلـه في ديار الأندلس....هشام الثالث ..

إذن محتوى الرسالة:

يطلب ملك الإنجليز إلى الخليفة الأندلـسي هـشام الثالـث بتعلـيم إحـدى الأمـيرات مـع البعثة على يد العلماء المسلمين في الأندلس.

سبحان الـلـه والآن نحن نتنافس بمن يذهب إليهم لتلقي العلم.

متى ستعود لأمة الإسلام عزتها كرامتها !!

هذه الرسائل خير دليل لقوة الإسلام ومجدها تلك الفترة .. هذه الرسائل خير دليـل لمـن يشكك عظمة الإسلام وقوته من قبل .. ثم ضعفت بضعف المسلمين .. وصلت إلى الذل والمهانـة بسببنا !!

كانت هذه الرسالة في بداية القرن الخامس الهجري

المصدر: كتاب الاستذكار لابن عبد البر- المجلد الأول

كتاب "**العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى**" للمؤرخ الإنجليزي السير جون دوانبورت وقد وردت في العديد من المراجع التاريخية و العربية والإنجليزية و الألمانية والفرنسية منها :كتاب " العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى "لمؤلفه المؤرخ الإنجليزي السير جون دوانبورت كما أوردها كل من المؤرخين

(Sprengastinn) و (Christer Samuelsson)

ثم ضعفت دولة المسلمين في الأندلس، وتقلصت تدريجيًّا حتى انحصرت في مملكة غرناطة، ثم سقطت سنة 1492، بتوقيع آخر ملوكها أبي عبد الله الصغير معاهدة استسلام مهينة مع الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا، ثم قضى على الوجود الإسلامي في الأندلس نهائيًّا؛ بفعل محاكم التفتيش التي كانت تحرق كل من يثبت أنه لا يزال مسلماً.

ولا غالب إلا الله

هذه الجملة كانت شعار أمراء آل نصر بغرناطة،وتُصادَف عدة آلاف من المرات في زخرفة الحمراء.

سطع نجمها في القرن الثالث عشر عندما انسلت بسرعة خيوط السلطة من يد الإمبراطورية الموحدية. فحلّت محلّها في المغرب قبيلة بربرية أخرى هم المرينيون، بينما في الأندلس انتثرت إلى عدة ممالك للطوائف سقطت الواحدة تلو الأخرى بيد الجيوش النصرانية. و في سنة 1236م سقطت نهائيا قرطبة عاصمة الخلافة أمام زحف الممالك النصرانية.

مقدمة

أمام تقدّم قشتالة من الشمال، وأراغون من الشرق والبرتغال من المغرب، استطاعت مملكة غرناطة الأندلسية لوحدها الاستمرار لمدة تقارب قرنين ونصف منذ سقوط قرطبة، وذلك بعد أن تحوّلت إلى مملكة تابعة لقشتالة.

منذ ذلك التاريخ، أصبحت غرناطة تدفع الجزية لقشتالة إضافة إلى تقديم المساعدة العسكرية لاحتلال ما تبقى من الممالك الأندلسية.

في هذا السياق، استسلمت أشبيلية سنة 1248م- آخر حصن أندلسي مستقلّ - للقشتاليين بدعم من ابن الأحمر، أمير غرناطة. وفي طريق عودته إلى غرناطة، استُقبل ابن الأحمر من طرف سكان غرناطة استقبال المنتصر، وكانت الهتافات: الغالب! الغالب!.

بالنسبة لابن الأحمر لم يكن هذا انتصارا، فقد كان يعلم أنه في النهاية أصبحت الأندلس أكثر تطويقا.....وطريق العودة الطويل إلى غرناطة، جعله يفكّر بنتائج الانتصار الزائف والمخزي على إخوانه الأشبيليين، فكان يردّ على هتافات النصر التي يرددها الغرناطيون بقوله (لا غالب إلا الله) في إشارة واضحة إلى مستوى الإحباط الذي وصل إليه بعد تحليله الشامل لحالة الأندلس بعد سقوط مملكة أشبيلية. ...وإحساسه بأنّه سيكون الثور الأسود !!!

كان ابن الأحمر يعلم أن الحرب لم تنته، وأن هدفها ليس امتلاك الأراضي و الثروات بل تدمير ثقافة و حضارة مختلفة عن شعوب الشمال.

فالحرب لم تكن الحرب ضد مملكة أو ضد دولة. بل هي مفهوم أكبر من ذلك يمكننا تسميته ب-(الحرب ضد المسلمين)، ضد الأندلسيين آنذاك، ضد المختلف... حسرة ابن الأحمر دفعته لتزيين كل زوايا الحمراء بهذه الجملة التذكرية (ولا غالب إلا الله)، هذا التذكار و الكفارة لحرب ضد الإخوة أتت على حضارة،

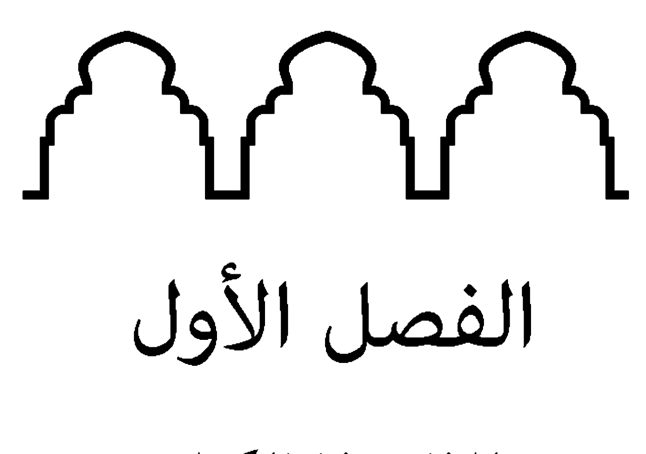
ثقافة وأسلوب لفهم ما هو روحي. رغم فوات الأوان، فقد فهم ابن الأحمر الخطأ فعكسه في جدران الحمراء لجعله عبرة للأجيال القادمة.

وقد يتوهم بعض أصحاب النوايا الساذجة، أن الأحداث التاريخية- وعلى الأخص ذكرى سقوط الأندلس- إنما تعني فتح الجراح، والاحتفال بالهزيمة، ويغيب عنهم أنه استدعاء وإحياء لعبرة ماضٍ غني بالعبر، لتصويب الحاضر وإبصار المستقبل، لا يستغنى عنها في صيرورة الأمة التاريخية، ومشروعها في النهوض الحضاري، فالذكرى استصحاب للماضي، ورؤية للحاضر، وإطلالة على المستقبل، خاصة وأن الأندلس لم تكن أرضًا فقط احتلها العسكر المسلم، وقضوا فيها زمنًا، وإنما هي مرادفة للحضارة، والمعرفة، والقيم الإنسانية، والكسب العلمي، الذي يشكل الأرضية التي تقف عليها الحضارة الأوروبية اليوم، كما أن الأندلس لا تزال تعني فيما تعني: الحيز الهام من المكتبة الإسلامية في الفقه، والتفسير، والحديث، والقضاء والأدب، ولا يزال أعلام الأندلس من المعالم الكبرى في التراث الإسلامي، والميراث العلمي، والتشكيل الثقافي، حتى أننا نستطيع القول: إن ثقافة وحضارة المغلوب لا تزال حتى اليوم، أقوى من سلطة وقوة الغالب، ولا تزال الفترة الإسلامية هي مرحلة التنوير والحضارة في التاريخ الأسباني كله.. وإذا حذفنا حضارة المسلمين من تاريخ أسبانيا، فماذا يبقى لها غير الممارسات الوحشية التي يندى لها الجبين؟!

يقول "**أمريكو كاسترو**" -وهو أكبر مؤرخي أسبانيا المعاصرين، والذي توفي قبل سنوات قليلة- في كتابه "**الحقيقة التاريخية لأسبانيا**": إن الأندلسيين هم الذين خلقوا أول شعور وطني في أسبانيا، وأنه لولاهم لما أصبح لأسبانيا أي تميز أو خصوصية، يعليان من شأنها بين الأمم، ليس من تاريخها الوسيط فحسب، بل في تاريخها الحديث أيضًا.

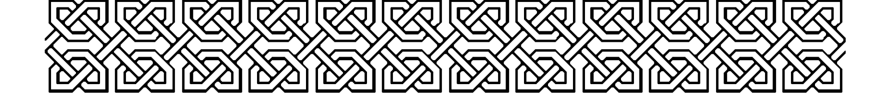
كما يسجل المستشرق الأسباني "**الدكتور بدرومارتينيز مونتابث**" شهادته قائلاً: إن أسبانيا ما كان لها أن تدخل التاريخ الحضاري، لولا القرون الثمانية التي عاشتها في ظل الإسلام وحضارته، وكانت بذلك باعثة النور والثقافة إلى أوروبا المجاورة المتخبطة آنذاك في ظلمات الجهل والتخلف.

قال المؤرخ " **جيبون** " في كتابه (**أوروبا في العصور الوسطى**) :" لو انتصر في بواتييه لتُلي القرآن وفسر في أكسفورد وكمبردج " وبواتييه هو الاسم الأوروبي لمعركة بلاط الشهداء الخالدة ، أما المؤرخ الأوروبي الشهير " **انتول فراس** " فيقول: " إن أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتييه حين هزم شارل مارتل الفرسان العرب في بواتييه سنة 732م ، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية والبربرية الأوروبية "!!!



الفصل الأول

لماذا هذا الكتاب



الفصل الأول

لماذا هذا الكتاب

كانت الأندلس هي البلاد الوحيدة التي فتحها المسلمون وخرجوا منها -هم والإسلام- بشكل يكاد كاملا، وكثيرا ما يتساءل الناس لماذا زال الإسلام من الأندلس رغم القرون التي جاوزت الثمانية التي حكم الإسلام الناس فيها في للأندلس....بينما بقي الإسلام حيا حتى اليوم في سائر أنحاء المناطق التي حُكمت بالإسلام كما هو الحال في الهند واندونيسيا مثلا.. فمنذ دخول الإسلام إليها والى اليوم لم يختف الإسلام ؟!

الجواب تتضمنه كلمتان رهيبتان من أكثر الكلمات الممقوتة عند كل إنسان له قلب أو عقل وهما "محاكم التفتيش"..

فلماذا حصل ذلك وكيف ؟؟

لماذا سقطت دولة الإسلام ....كما سقطت قبلها سائر الدول الإسلامية التي سبقتها كالأموية والعباسية والتي سقطت بعدها كالعثمانيين ؟؟!!

وكيف كانت محاكم التفتيش سببا في زوال الإسلام وحضارته ، بشكل شبه تام، من الأندلس بعد قرون طويلة من سيادته في تلك البلاد واعتناق الملايين له؟!

هذه الأسئلة وما اندرج تحتها - أو كان له علاقة بها- هي ما سيحاول هذا الكتاب إن يجيب عنها إن شاء الله ....والهدف هو أن نتعلم من دروس التاريخ ،فلا نعيد ارتكاب الخطأ نفسه مرة بعد مرة، وندفع الثمن مرة بعد مرة، لان من لم يعتبر بالحياة ودوائرها فإنه حتماً يسقط في حفرها!

قال تعالى: " **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** " [يوسف: 111].

والرسول ﷺ أمرنا أن لا نُلدغ من نفس الجحر مرتان، والحكمة تنص على أن العاقل أو السعيد هو من اتعظ بغيره، أما الأحمق والتعيس فيصر على أن يدفع ثمن أخطائه من حسابه، لأنه لا يريد أن يتعلم من دروس وتجارب الآخرين التي سبق ودفعوا ثمنها ..والناس – ولاسيما البارزون منهم – هم احد اثنين أما معتبِر بما أصاب غيره من قبل أو معتَبر به... ممن سيأتي بعده!!

قال ابن الأثير:"وأنه لا يحدث أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره فيزداد الإنسان بذلك عقلاً ويصبح لأن يقتدي به أهلاً".

ومن الملاحظ إن من يكرر الخطأ يدفع الثمن – في الغالب – بشكل أكبر من الثمن

الذي دفعه المخطئ الأول - فقد اخطأ المسلمون يوم احد حين- خالفوا أمر الرسول ﷺ - وشغلتهم الغنائم..فعاقبهم الله بما يشبه- فركة الأذن- أي عقابا ليس قاسيا-ربما لأنه الخطأ لأول مرة- بدليل انتصارهم بعدها،فلما كرروا الخطأ في معركة العُقاب -"أو معركة لاس نافاس دي تولوسا" في16 تموز1212م -كان العِقاب قاسياً جداً، حيث كانت موقعة العُقاب بداية النهاية للوجود الإسلامي في الأندلس ،لأن هذه المعركة كانت بداية النهاية لدولة الموحدين التي كانت آخر دولة تتدخل بشكل فعال في إنقاذ الأندلس الإسلامية من الفناء، ولهذا كانت هزيمة المسلمين في العُقاب بداية نهاية الوجود في بلاد الأندلس !!

واخطأ نابليون حين غزا روسيا على أرضها في فصول الشتاء ودفع الثمن هزيمة مريرة شكلت بداية النهاية لمجده –لكنها لم تؤد غالى دمار فرنسا، لكن عندما

كرر هتلر خطأ نابليون- ولم يتعلم درسا من تجربة نابليون الفاشلة،وارتكب نفس الخطأ -فانه دفع الثمن باهظا على المستوى الشخصي، وعلى مستوى الوجود للدولة الألمانية، فكانت الهزيمة سببا مباشرا في نهايته البائسة، مما أدى به إلى اختيار الانتحار، لأنه كان الخيار الوحيد لمنع احد من محاسبته عما اقترفه بحق الألمان أولا، والعالم ثانيا.

فعدم اتعاظ هتلر بما أصاب نابليون كان عاملا هاما -بل العامل الأهم -في انتهاء ألمانيا كدولة أولى أو على الأقل كدولة عظمى- فغدت دولة ضعيفة، ترزح تحت نيران الاحتلال والإذلال الحلفاء، واحتاجت بضعة عقود للنهوض من جديد!!

واخطأ الطغاة من حكام بلاد الإسلام- وكل حكام بلاد الإسلام طغاة- حين لم يتعظوا من مصير الحكام الطغاة الذين ثارت عليهم شعوبهم، كما في حالة شاه إيران وتشاوسيسكو رومانيا على سبيل المثال ..وظنوا أنهم مانعتهم زنازنهم وسجونهم ووجلاوزتهم ومخابراتهم- وواشنطن والغرب- من نقمة وثورة الشعوب وبطشها،عندما تصل الأمور إلى درجة الحرج ويقوم قانون الضغط يولد الانفجار،يعمله كقانون من سنن اللـه التي لم تتخلف في يوم من الأيام!!

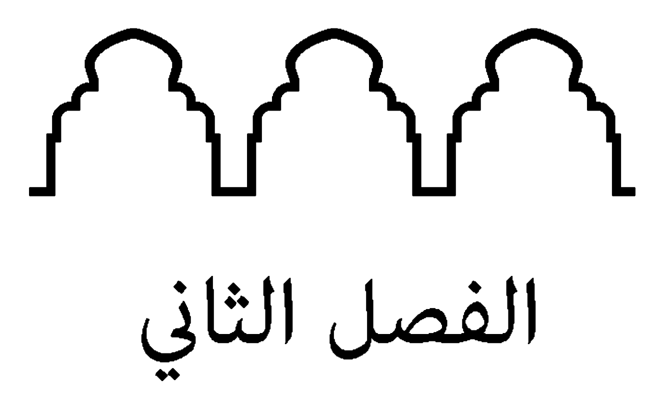
وتكرار الحُكام العرب الطُغاة،لاسطوانة أو معزوفة إن انتفاضات الشعوب اليائسة ، ليست سوى" أعمال شغَب " يقوم بها بعض الغوغائيين ، أو المندسين أو البلطجية أو الزعران، وان هناك أجندة خارجية وراءها... أو أنها مُجّرد احتجاجات طبيعية ضد الغلاء والبطالة،هو تكرار ينم عن غباء وعدم اتعاظ- أو استفادة -من دروس الذين سقطوا رغم التمترس وراء هذه الادعاءات التي لم تعد تقنع حتى الأطفال.. فالحقيقة هي أن الشعوب قد فاض بها الكيل وبلغ السيل الزبى عندها - من الدكتاتورية والاضطهاد والقمع وامتهان الكرامة والفساد ونهب الأموال

العامة-وقد وصلت الأمور إلى حَد بذل النفس ومواجهة رصاص الشرطة الأوباش بصدور عارية، مما يعني أن الناس لم يعد لديها شيئاً تخسره غيرَ الغلال والإذلال والجوع والحرمان وكمامات الأفواه.

وعليه فان التكرار في الاتهام، والتكرار في اللجوء إلى نفس الطرق الفاشلة لمواجهة للثورات يدل على الغباء، لكونه لم يجد نفعا للساقطين السابقين ، وبالتالي لن يجدي نفعا للمرشحين للسقوط من اللاحقين، ولكن إذا أراد الله تخليص الأمة من طاغية فان يزين له عدم الاتعاظ بأحوال من سبقوا !!

حكام بلاد الإسلام ..لم يتعلموا من التاريخ ولم يتعظوا به- وكانوا كسالى في درس الفيزياء- فدفعوا الثمن حين اخطاؤوا في فهم قوانين التاريخ وقوانين العلم ،وظن كل منهم انه بمأمن لأنه يختلف عن الحكام الآخرين ،وان شعبه يختلف أو متخلف عن سائر الشعوب ولا سيما التي ثارت وحققت من الثروات شيئا ..وكأنه قادم من كوكب آخر أو من جنس غير جنس البشر، وكذلك نظرته إلى شعبه ...فكلهم يرى نفسه كما رأى فرعون نفسه.. -مالكا لبلد لا تعدو أن تكون مزرعته الخاصة- حين قال : "**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ** " [الزخرف:51]...وكل يرى أن الشعب ليس أكثر من قطيع خراف أو نعاج لا عقول لهم ، كما كان لسان حال فرعون حين قال: "**مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** " [غافر:29]. لهذه الأسباب مجتمعة- ولغيرها مما لا يحضرني في هذا اللحظة-تأخر السابقون من الطغاة الراحلين ممن ذهبوا إلى مزابل التاريخ في فهم حركة التاريخ وقوانين انفجار الشعوب المغلوبة على أمرها – ويتلكأ الطغاة اللاحقون في قول "فهمتكم"، كما تأخر فرعون في قول لا اله إلا الله، فقيل له: "آلآن وقد عصيت قبل وكنت من

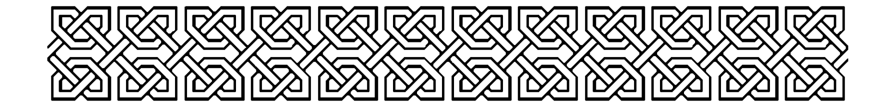
المفسدين" و كما تأخر زين العابدين في قول فهمتكم ...فقالها متأخرا " الآن فهمتكم" !!... وكثيرة هي الأمثلة التي تدل على تكرارات الأخطاء من قبل الحكام والزعماء في الماضي والحاضر...وتستحق أن يفرد لها كتاب خاص ...نسال اللـه أن يكتب لنا إنجازه...ونكتفي بهذه الإجابة.. لندخل في الموضوع .



الفصل الثاني

عصور الدولة في الأندلس

من البداية إلى السقوط



الفصل الثاني

عصور الدولة في الأندلس
من البداية إلى السقوط

قبل أن نشرع في الحديث عن العوامل التي أدت إلى انهيار دولة الإسلام في الأندلس، ثم أدت إلى اندثار الإسلام من تلك البقاع -بعد أن أحياها من الموت الوثني، وأخرجها من النور إلى الظلام - لا بد لنا من أن نستعرض الأدوار التي مرت بها دولة الإسلام في الأندلس لتتضح الصورة.

أولاً: عصر الولاة: 92هـ - 138هـ:

وهو ممتد منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية،وكانت الأندلس خلالها ولاية تابعة للخلافة الأموية، وتعاقب في هذه الفترة الزمنية على الأندلس ثلاثة وعشرون واليًا أي بمعدل سنتين للوالي، وقد استشهد أكثر هؤلاء الولاة أثناء مد المسلمين للفتوحات في قلب أوروبا، وقد اتسمت هذه الفترة بالعديد من السمات:

1- هياج الفتنة العصبية والقبلية بين جند الفتح من عرب وبربر، ومن قبائل عربية قيسية ويمانية من ناحية أخرى، وهذه الفتنة ستؤول لقتال عنيف سفك فيه الكثير من الدماء، وضاعت المناطق الشمالية من الأندلس خلال هذا الصراع، وهذه الفتنة من أهم وأكبر عوامل سقوط دولة الإسلام في الأندلس .

2- شيوع فكر الخوارج الذين فروا من المشرق إلى المغرب والأندلس تحت تأثير الضربات القوية للخلافة الأموية، وسيعتنق الكثير من البربر هذا الفكر المتمرد.

3- محاولات المسلمين المتكررة لفتح فرنسا والتوغل في قلب أوروبا،وكانت معركة بلاط الشهداء سنة114هـ من أعظم المعارك الحاسمة في التاريخ التي خاضها المسلمون في هذا العصر وغيرت وجه التاريخ بشكل سلبي بالنسبة للمسلمين وذوي العقول.

ثانيًا: عصر الدولة الأموية الأول 138هـ - 238هـ:

وهو العصر الذي يبدأ بدخول عبد الرحمن الأموي الملقب بالداخل وصقر قريش لبلاد الأندلس وسيطرته على مقاليد الأمور بعد الكثير من الاضطرابات والاقتتال انتهت بانتصاره يوم المسارة سنة 138هـ، وخلال هذا العصر الذي امتد قرنًا من الزمان حكم الأندلس أربعة رجال عبد الرحمن الداخل وولده هشام، ثم حفيده الحكم، ثم ولد حفيده عبد الرحمن، وقد امتاز هذه العصر المعروف بعصر الازدهار الأول بعدة أمور:

1- الثورات المتكررة التي قام بها زعماء القبائل العربية الذين رفضوا الانقياد لحكومة قرطبة المركزية، سواءً في ذلك القبائل المضرية التي هي في الأصل ينتمي إليها عبد الرحمن الداخل، والقبائل اليمانية، وقد قضى عبد الرحمن على هذه الثورات بمنتهى الحزم والشدة.

2- محاولة الخلافة العباسية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية، تقويض الحكم الأموي بالأندلس، ولكنها محاولات باءت جميعها بالفشل.

3- بداية تبلور الممالك الإسبانية في الشمال، وظهور مملكة أراجون وليون في أقصى الشمال ومحاولة هذه الممالك التحرش بالمسلمين واستعادة ملكها القديم، ولكنها كانت ما زالت وليدة وضعيفة.

4- استقرار دولة الإسلام وازدهارها بعد توطيد عبد الرحمن الأموي للأمور، فورث أولاده من بعده حكمًا ثابتًا مستقرًا قويًا.

5- انتشار مظاهر الترف في أواخر هذا العهد، وانشغل الناس بالعمران وبناء القصور الفخمة والمتنزهات،وبدأت مجالس اللهو والغناء والمجون في الظهور.

6- بداية ثورة المستعربين العاتية في أواخر هذا العهد وكان من عوامل الهدم.

ثالثًا: عصر الدولة الأموية الثاني 238هـ- 300هـ:

وهو المعروف بعهد التدهور الأول للأندلس، وفيه حكم البلاد ثلاثة رجال كلهم من بني أمية. وفي هذا العصر اجتاحت الثورات العنيفة أنحاء الأندلس، وألقت بظلالها القاتمة على دولة الإسلام بالأندلس، ومن أهم سمات هذا العصر:

1- استقلال الكثير من الولايات خاصة الشمالية والجنوبية عن سلطة الحكومة المركزية في قرطبة.

2- عودة النعرة القبلية للظهور مرة أخرى خاصة بين العرب والبربر بعد أن خفت صوتها أيام الداخل وخلفائه،واستقلال البربر بمدن أندلسية كبيرة في الجنوب.

3- اشتعال ثورة المستعربين وهم أبناء الأسبان الذين لحقهم تغيير كبير بعد أن انتشر الإسلام واللغة العربية بينهم وخالطوا العرب والبربر، فنشأ جيل مشترك في الدم والنسب وهؤلاء عرفوا بالمولدين، أما من لم يعتنق الإسلام وبقي على

نصرانيته أو يهوديته ولكنه تعلم العربية وأخذ بأسلوب العرب في الحياة فهؤلاء عرفوا بالمستعربين، وهؤلاء سيكونون خنجرًا ماضيًا في ظهر الأندلس، وطابورًا خامسًا لأعداء الدولة عبر العصور.

رابعًا: عصر الدولة الأموية الثالث 300هـ - 368هـ:

وهو العصر الذي يطلق عليه عصر إعلان الخلافة الإسلامية الأموية في الأندلس،وقد حكمه رجلان فقط هما:عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر، وفيه عادت القوة والازدهار للأندلس بعد أن تضعضعت مكانته بفعل الثورات المتكررة،كما عادت الوحدة لدولة الإسلام التي تمزقت تحت أطماع ولاة الأقاليم من العرب والبربر،وفيه أعلن عبد الرحمن الناصر عن قيام الخلافة وكان حكام الأندلس من قبله يقلبون بالأمراء ويتجنبون وصف الخلافة لأسباب شرعية، وهي عدم جواز وجود خليفتين للمسلمين في آن واحد لقول الرسول " إذا بويع لخليفتين فأقتلوا الآخر منهما" (صحيح مسلم) – الإمارة.ولقوله ﷺ "من جاءكم وأمركم جميعا على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه"،(رواه مسلم).

وكان للناصر مبرراته فقد" رأى أنه-وقد وحَّد الأندلس،وصنع هذه القوة العظيمة- فانه أحق بهذه التسمية من خليفة بغداد الالعوبة"؛ فأطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين،وسمى الإمارة الأموية بالخلافة الأموية، وقد اتسم هذا العصر بالازدهار وانتشار مجالس العلم، وكذلك بالقوة الخارجية والداخلية .

خامسًا: عصر الحاجب المنصور 368هـ - 399هـ:

وهو أزهى عصور الأندلس على الإطلاق، وهو العصر الـذي يطلـق عليـه عـصر سـيطرة الوزراء، وفيه أصبح الحاجب المنصور بن أبي عامر هو الحـاكم الفعـلي للـبلاد، والخليفـة هـشام المؤيد مجرد صورة، إذ تولى الخلافة وهو صبي في العاشرة بعـد وفـاة أبيـه "الحكـم المستنـصر"، وكان المنصور بحق هو أعظم وأقوى من حكم الأندلس ولم يبلغه في ذلك ولا حتى عبد الرحمن الداخل، وذلك لكونه قد فرض نفسه في الحكم بشخصيته الذة لا بابائه واجداده .

ويعتبر عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر [364- 392 هجرية] من أزهى وأعظم عصور الأندلس، وذلك بفضل السياسة الحكيمة والقوية التي اتبعهـا ، حيـث شـغل النـاس بالجهـاد في سبيل اللـه عن التناحر والخلاف الداخلي والذي أضعف الأندلس أمام أعدائها في عهود سـابقة، هذا الخلاف العصبي والقبلي بين قبائل العرب هو الذي مهد السبيل أمام الأسبان للتجمـع مـرة أخرى في شمال الأندلس وتكوين عدة ممالك صليبية مثل أرجوان وقشتالة وليون، والتي صـارت شوكة في خاصرة دولة الإسلام في الأندلس، حتى جاء عهد الحاجب المنصور، وقضى عليه بالجهاد.

وكان الجهاد في سبيل اللـه عز وجل هو السمة الغالبة على هذا العصر؛ إذ قام المنصور بغزو إسبانيا النصرانية خمسين غزوة، لم يهزم فيها مرة واحدة، وفتح شانت ياقب كعبـة إسـبانيا النصرانية وفتح برشلونة، وأحكم قبضته على الأندلس كلها لأول مرة منذ الفتح، وتصدى المنصور للمؤامرات الكثيرة التي حيكت ضده، ثم مات سنة 392 فخلفه ابنه عبد الملك فسار عـلى نهـج أبيه حتى سنة 399هـ، وبعدها دخلت الأندلس النفق المظلم الطويل.

سادسًا: عصر الفوضى وسقوط الخلافة الأموية 399هـ -422هـ:

وخلال هذا العصر تعاقب على حكم الأندلس العديد من الخلفاء الضعفاء يزيد عددهم على عدد من تولوا طيلة القرون الثلاثة السابقة، وضاعت هيبة الدولة الأموية، وظهرت فكرة الاستعانة بنصارى الشمال في الاقتتال على الملك، وقويت شوكة البربر واستقلوا بالعديد من ولايات الأندلس خاصة في الجنوب، بل قامت لهم دولة قوية عرفت باسم دولة بني حمود.

وكانت أهم سمة لهذا العصر هي عودة العصبية القبلية المقيتة بين العرب والبربر وظهر لاعب جديد في سير الأحداث وهم الصقالبة الذين استكثر الحاجب المنصور من استعمالهم ليعادل بهم نفوذ العرب والبربر، وقد استقل هؤلاء الصقالبة بحكم جزاير الأندلس الشرقية.

سابعًا: عصر ملوك الطوائف 422هـ - 483هـ:

وهو العصر المشئوم-المشابه بدرجة كبيرة للعصر الذي تعيشه أمة الإسلام منذ بدايات القرن العشرين والى اليوم -2012الذي تمزقت فيه دولة الإسلام في الأندلس على اثر سقوط الخلافة في الأندلس كما تمزقت على اثر سقوط الخلافة العثمانية - لدويلات صغيرة أغلبها ضعيف، يحكم هذه الدويلات كل طامع وطامح ومستقوي بأسرة أو عشيرة أو عصبية وقد بلغ تعداد هذه الدويلات اثني وعشرين دويلة،- كعدد الويلات المسماة بالدول العربية اليوم - فالبربر في الجنوب، والصقالبة بالشرق، وأما البقية الباقية فقد ذهبت إلى أيدي محدثي النعم أو بعض الأسر القديمة .

أما أهم سمات هذا العصر المشئوم فهي:

1- انتشار المفاسد والانحراف الأخلاقي في طبقة ملوك الطوائف- كحال الحكام اليوم- وانعكاس ذلك سلبًا على الرعايا،حيث انتشرت هذه المفاسد بين المسلمين،وعمت الميوعة والخنوثة بين المسلمين كحال الكثير من شباب الأمة اليوم -مما أورثهم ضعفًا وغفلة عما يحيكه نصارى الشمال..

2- اندلاع حروب داخلية مدمرة بين ملوك الطوائف، وذلك من أجل توسيع رقعة كل دويلة على حساب الأخرى، واقتتل المسلمون فيما بينهم بصورة واسعة،

- كحال قتال العراق وإيران بأمر من واشنطن - واستعان كل فريق متحارب مع جاره المسلم بنصارى الشمال، وكان رذيلة الاستعانة بالكفار على المسلمين من أسوأ سمات هذا العهد المشئوم، مما أدى لضياع عقيدة الولاء والبراء عند مسلمي هذا العهد إلا من رحم الله عز وجل.

3- تنامي قوة نصارى الشمال وتوحد رايتهم تحت قيادة رجل شديد البأس هو ألفونسو السادس - بوش او اوياما ذلك الزمان -الذي حقق نصرًا كبيرًا على مسلمي الأندلس، عندما استولى على مدينة طليطلة العريقة سنة476ه- وهي عاصمة إسبانيا القديمة،ودشن بذلك حرب الاسترداد المشهورة والتي استمرت تدور حتى سقوط الأندلس.

4- تنامي الشعور بالقومية الأندلسية عند أهل الأندلس،ورغبتهم في الاستقلال تحت قومية خاصة بهم، بعيدًا عن أي ارتباط مع العالم الإسلامي.

ثامنًا: عصر المرابطين 484هـ - 539هـ:

وهو العصر الذي استردت فيه دولة الإسلام في الأندلس شيئًا من قوتها، وذلك بعد استنجاد ملوك الطوائف بالأمير يوسف بن تاشفين الذي استجاب

لصريخ مسلمي الأندلس فعبر بجيوشه الجرارة البحر وانتصر على صليبي إسبانيا في الزلاقة سنة 479هـ وردع النصارى وقمع خطرهم، ثم عاد إلى المغرب.

ثم ما لبث أن عاد اليها مرة اخرى بعد أن استغاث به أهل الأندلس للقضاء على حكم ملوك الطوائف، وأيده العلماء والفقهاء في وجوب ذلك، وبالفعل أسقط حكم ملوك الطوائف سنة 484هـ....وقدكان المرابطون يتميزون بخشونة العيش وبساطة الحياة، بسبب فطرتهم البدوية وحياة الصحراء،مما حدا ببعض وجهاء الأندلس الذين اعتادوا حياة الترف والدعة للتذمر من حكم المرابطين.

ولم يطل عهد المرابطين بسبب الثورة الجامحة التي قام بها أتباع مدعي المهدية ابن تومرت الملقبين بالموحدين في بلاد المغرب والذين شنوا حربًا ضارية ضد المرابطين منذ سنة 515هـ حتى أسقطوهم سنة 539هـ.

تاسعًا: عصر الموحدين 539هـ - 630هـ:

والموحدون هم أتباع مدعي المهدية محمد بن تومرت، وهم الذين حاربوا المرابطين لأكثر من 25 سنة حتى أسقطوا دولتهم العريقة سنة 539هـ، وورثوا مملكتهم الواسعة التي تشمل بلاد المغرب والأندلس، وكانوا يجبرون الناس على اتباع عقيدتهم التي هي خليط من الاعتزال والتجهم والتعطيل والأشعرية، ولكنهم ساروا على نهج المرابطين في محاربة الممالك الإسبانية، وحققوا عليهم انتصارات كبيرة أهمها نصر معركة الآرك سنة 591ه-،وكان يماثل نصر الزلاقة وإقليش وإفراغة، ولكن عاد الصليبيون وحققوا انتصارًا ساحقًا على الموحدين في معركة العقاب سنة 609ه-،هددوا به قوة الموحدين وعجلوابسقوط دولتهم،وكانت ثورات الأندلسيين المتتالية على حكم الموحدين هي سمة هذا العصر،ولعل فساد عقيدة هذه الدولة كان اهم العوامل في سقوط هذه الدولة.

عاشرًا: عصر ملوك بني الأحمر في غرناطة 630هـ - 897هـ:

والذي يبدأ بعد سقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس، حيث انفرط عقد دولة الإسلام في الأندلس، وأصبحت كل ولاية مستقلة عن باقي الولايات، مما سهل مهمة نصارى إسبانيا في الإستيلاء على معظم مدن الأندلس الكبرى، فقد سقطت بلنسية وقرطبة ومرسية وإشبيلية خلال فترة وجيزة، مما أدى لأن ينحاز معظم مسلمي الأندلس إلى مملكة غرناطة في جنوب الأندلس والتي أسسها محمد بن يوسف النصري الملقب بابن الأحمر، والتي ظل بنوه ونسله يحكمونها حتى السقوط المروع سنة 897هـ.

وقد نشأت النواة الأولى لمملكة بني الأحمر بجيان سنة 1231م، لكن هجوم ملك قشتالة فرناندو الثالث على المدينة، أجبر محمد بن نصر على تركها قاصداً غرناطة سنة 1245م، وكانت قد أعلنت ولاءها له منذ سنة 1235م، وهو نفس الولاء الذي أعلنته كذلك مالقا وألمرية، إضافة إلى المنطقة الساحلية الممتدة من الجزيرة الخضراء إلى ضواحي مرسية.

وقد أدرك محمد بن نصر ،أن دفع الجزية لقشتالة، لن يضمن لهم الحفاظ على مملكتهم، دليل أن بقية ممالك الطوائف التي دأبت على دفعها، سقطت كأشجار الخريف في يد النصارى، لذا قررالاستعانة بالمرينيين الذين خلفوا الموحدين على حكم المغرب. وقد رفض محمد الثاني دفع الجزية لقشتالة واستنجداً بالمرينيين الذين عبروا مضيق جبل طارق سنة 1273 م، واستعادوا من النصارى جبل طارق وطريف. وسوف ينجم عن التحالف الإسلامي بين أسرتي بني الأحمر وبني مرين، تحالف الممالك المسيحية الثلاث في شبه الجزيرة الإيبيرية وهي قشتالة وأراغون والبرتغال، وإعلانها الحرب على المسلمين، حيث وقعت معركة دموية سنة 1292م بمنطقة طريف، انتهت بانتصار النصارى واستعادتهم للمدينة التي انطلقوا منها

لمحاصرة الجزيرة الخضراء. هذا الحصار دفع بملك غرناطة الجديد محمد الثالث لطلب مساعدة المرينيين الذين عبروا المضيق مرة أخرى، وأجبروا النصارى على الانسحاب من الجزيرة الخضراء سنة 1310م.

والعجيب أن غرناطة بقت وحدها صامدة في وجه أعدائها، وذلك لانحياز خلاصة المسلمين إليها فقويت بهم مملكة غرناطة..قد وصلت غرناطة لأوج قوتها ومجدها في عهد محمد الخامس من بني الأحمر سنة 763هـ-.

ثم أخذ الترف والدعة والاقتتال الداخلي وانتشار المفاسد يسري في جسد هذه المملكة،في نفس الوقت الذي بدأت فيه تتحد كل الممالك الإسبانية تحت راية فرديناند وإيزابيلا الوجود الإسلامي في غرناطة، وفي المقابل وصل الصراع الداخلي بين أمراء بني الأحمر إلى ذروته خاصة بين مولاي علي أبو الحسن وولده أبي عبد الله.

وقد تضافرت عدة عوامل لإنهاء هذا المعقل الأخير للعرب المسلمين في الأندلس، من أظهرها:

1- توالى على عرش دولة بني الأحمر بعد محمد الخامس سلسلة من ملوك بني الأحمر لم تكن لهم همة وقوة أسلافهم، فانغمسوا في الترف وغفلوا عن العدو المتربص بهم.

2- سقطت دولة بني مرين بالمغرب، فانقطع العون العسكري الذي كانت تمد به بني الأحمر.

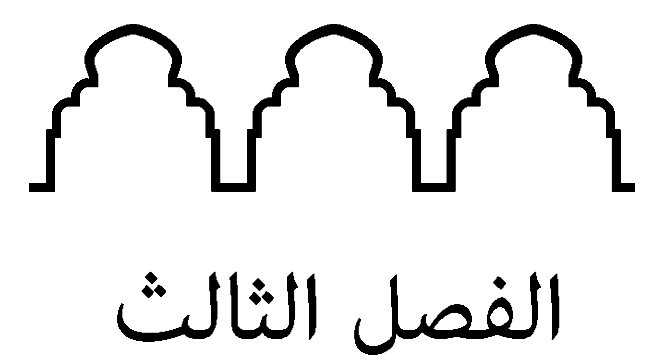
3- اتحدت مملكتا أراغون وقشتالة النصرانيتان، حين تزوج فرديناند ملك أراغون من إيزابلا ملكة قشتالة. وكان من أبرز أهداف هذا الاتحاد القضاء على

دولة بني الأحمر العربية الإسلامية وتصفية بقية الوجود العربي والإسلامي في الأندلس.

4- الخلاف بين المسلمين وتفكك الجبهة الداخلية. فعندما عاد أبو عبد الله من الأسر مرغمًا على مساعدة الأعداء، شن على أبيه الحرب، وما لبث أن مات الوالد همًا وكمدًا أو مسمومًا، بعد أن تنازل عن العرش لأخيه أبي عبد الله الزغل، آخر ملوك غرناطة العظام. فنازعه ابن أخيه في الملك، فشتت قوى الدولة في صراعات داخلية.

وابتداءً من سنة 895هـ شن الأسبان حربًا متواصلة لا هوادة فيها، انتهت بسقوط غرناطة وتوقيع وثيقة الاستسلام والسقوط في 21 محرم سنة 897هـ.

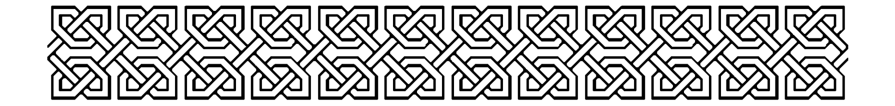
لتبدأ بعد ذلك فصول مأساة هي الأفظع والأبشع في التاريخ حيث قتل عدة ملايين من المسلمين تحت وطأة التعذيب في محاكم التفتيش وأجبر الباقون على التنصر، وطويت صفحة أعرق دول الإسلام في التاريخ الإسلامي كله.



الفصل الثالث

لماذا سقطت دولة الإسلام

في الأندلس؟؟!!



الفصل الثالث

لماذا سقطت دولة الإسلام في الأندلس؟؟!!

انتشر الإسلام في الأندلس بعد فتحها سنة 92هـ، وأقام المسلمون فيها دولة استمرت ثمانية قرون، وقد أصبحت هذه الدولة في خلافة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/ 912-961م) من أكثر دول العالم علمًا وتحضرًا ومدنية ورقيًا وقوة وتقدمًا، وعاش بها المسلمون في رغد من العيش؛ حيث الأرض الخصبة، والمياه العذبة، والجنان الخضرة، والمناخ المعتدل، وقد عبر عن ذلك أحد شعرائهم فقال:

يا أهل أندلس لله دركُمُ ... ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنة الخلدُ إلا في دياركمُ ... لو خُيرتُ. هذا كنت أختارُ
لا تحسبوا في غد أن تدخلوا سقرا ... فليس تُدخل بعد الجنة النارُ

وكان أبناء الأثرياء في أوربا يتوجهون للدراسة في مدارسها وجامعاتها، وعندما يعودون إلى بلدانهم يفخرون بأنهم تتلمذوا على أيدي علمائها العرب المسلمين، ويتعمدون استعمال كلمات عربية حتى يقال: إنهم متعلمون مثقفون. وكان ملوك وأمراء الممالك النصرانية في شمال إسبانيا يستنجدون بحكام الأندلس في صراعاتهم على الحكم، فتتدخل الجيوش الإسلامية، وتغيِّر واقعهم السياسي، مقابل حصون وأراضٍ يتنازل عنها من تمت مساعدته، مثلما تفعل أمريكا اليوم.

ثم ضعفت دولة المسلمين في الأندلس، وتقلصت تدريجيًا حتى انحصرت في مملكة غرناطة، ثم سقطت سنة 1492م، بتوقيع آخر ملوكها أبي عبد الله الصغير

معاهدة استسلام مهينة مع الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا، ثم قضى على الوجود الإسلامي في الأندلس نهائيًّا؛ بسبب محاكم التفتيش التي كانت تحرق كل من يثبت أنه لا يـزال مسلمًا.

والسؤال المهم الذي ينبغي الإجابة عنه هو: لماذا سقطت الأنـدلس وقـضي عـلى الوجـود الإسلامي فيها بعد ذلك العز والتمكين؟

إن سـقوط دولـة الإسـلام في الأنـدلس، لم يكـن بـدعا مـن البـدع، أو أمـراً مـستغربا فالسقوط والانهيار للدول حتمي كحصول الموت للإفراد،وكما أن لموت الأفراد سـبب واحـد هـو انتهاء الأجل فكذلك الحال في الدول ..فليس لموت الدول إلا سبب واحد هو انتهـاء الأجـل. قـال تعالى : "وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللـهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللـهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " [آل عمران:140].

فـسقوط الـدول والممالـك مثـل قيامهـا خاضـع لـسنن، هـي ولادة وطفولـة وشـباب وشيخوخة وهرم فموت، ومن الدول من يُتوفى قبل ذلك، و" لكل أجل كتاب "، وكما يكون الفرد عالة على نفسه وأهله إذا كبرت سنه أو تمرد في سلوكه؛ فكذلك الـدول تكـون عالـة عـلى العـالم وأداة تدمير لذاتها إذا شاخت أو فسدت، لهذا كان من سنة اللـه أن يطهر الأرض من أي دولـة عندما تغدو غير صالحة للبقـاء، ويبعـث عليهـا مـن يخرجهـا مـن مـسرح الكـون مـن داخلهـا وخارجها .

وما ينطبق على الإسلام والمسلمين والدولة الإسلامية ينطبق على سائر المبادئ في الدنيا ...والذي اقصده أن درجة التزام الدول بمبادئها يطيل في أعمارها بمقدار ذلك الالتزام ويقصر أعمارها بمقدار درجة البعد عن الالتزام.

ولهذا فالمفروض أن يكون السؤال ما السبب في سقوط الدولة وليس ما أسباب.

سقوط الدولة ...فالسبب واحد هو انتهاء الأجل أما الحالات أو العوامل فكثيرة،

لان السبب لغة هو ما يلزم من وجوده الوجود ويلزم من عدمه العدم ... ولهذا كان قول المتنبي: من لم يمت بالسيف مات بغيره..تعددت الأسباب والموت واحد. قول خطأ ...لان ليس سوى سبب واحد لموت الأفراد وكذلك الدول .

والسبب الوحيد لزوال أي دولة إسلامية ابتداء من الأمويين مرورا بدولة الأندلس وانتهاء بالدولة العثمانية – آخر دولة إسلامية فعلا في التاريخ- هو انتهاء مبرر وجودها أي هو عدم الالتزام بالتطبيق الصحيح والواعي للإسلام..وهذا ما سنناقشه بنوع من التفصيل في هذا الفصل.

فالمسلمون طوال تاريخهم لم ينهضوا ويصبحوا الدولة الأقوى والأعز في الدنيا الا عندما كانوا يلتزمون بالإسلام التزاما كافيا...وهذا ملاحظ في كل الفترات الذهبية للدولة الإسلامية ...فعندما كان الالتزام كاملا وصلت دولة الإسلام القمة ...وكلما ضعف الالتزام درجة هبطت درجة ..وعندما انعدم الالتزام انعدمت الدولة...وهذا واضح من دراسة حال الحكام في التاريخ !

ولماذا نطيل الكلام والشاهد أوضح ما يكون؟؟!!

كيف كانت حالة العرب قبل الإسلام وكيف أصبحت حالتهم بعده ؟؟

وكيف وصلت دولة الأمويين إلى القمة وكيف هوت إلى الحضيض؟؟!

وكذلك نفس الأمر في حالة الدولة العباسية مرورا بالأندلسية وانتهاء بدولة الخلافة العثمانية!!!

ونحن عندما نقارن بين ما يسمونه أسباب سقوط الدولة الأموية أو العباسية أو دولة المرابطين أو دولة الموحدين أو الدولة العثمانية ..الخ نلاحظ أن تلك الأسباب - والصواب أنها عوامل تتضافر لإيجاد السبب - نجدها متشابهة .... ولو أردنا تلخيصها لوجدناها تتمثل في عدم الالتزام الكافي بالمبدأ ... ولوجدنا أن قوة الدولة وضعفها تتناسب تناسبا طرديا مع الالتزام بالمبدأ.... فدعونا نرى ما هي العوامل التي أدت إلى سقوط دولة الإسلام في الأندلس ونحاول ملاحظة التشابه بعوامل سقوط سائر دول الإسلام، لنرى أنها كلها تصب في النهاية عند سبب واحد ،هو عدم الالتزام الكافي بتطبيق الإسلام.

قال ابن خلدون في مقدمته : "أن العرب حينما ينبذون الدين يصبحون ضعفاء في أمور السياسة، وأن الدين يعتبر عاملاً مشجعاً لاتحادهم وتفوقهم السياسي، والضعف الديني لا يقودهم فقط إلى انحطاط النفوذ السياسي، بل وأيضاً إلى الطغيان والظلم،

أي أن ابن خلدون يعتبر الدين هو أساس العمران، وحجر الزاوية في بقاء الدولة.

عوامل سقوط دولة الإسلام في الأندلس:

أولا: الترف والانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة:

قال تعالى: "**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** " [الإسراء: 16]. وهلاك القرية هنا كناية عن هلاك الدولة .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله - : قوله تعالى : "**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ".

في معنى قوله "أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا " في هذه الآية الكريمة ثلاثة مذاهب معروفة عند علماء التفسير :

الأول : وهو الصواب الذي يشهد له القرآن ، وعليه جمهور العلماء أن الأمر في قوله(أَمْرُنَا) هو الأمر الذي هو ضد النهي،وأن متعلق الأمر محذوف لظهوره . والمعنى: (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) بطاعة اللـه وتوحيده ، وتصديق رسله وأتباعهم فيما جاؤوا به(فَفَسَقُواْ) أي : خرجوا عن طاعة أمر ربهم ، وعصوه وكذبوا رسله .

"فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ" أي: وجب عليها الوعيد "فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً" أي : أهلكناها إهلاكاً مستأصلاً،وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم .

وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة ، كقوله: "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللـهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللـهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ " [الأعراف: 28] ...فتصريحه جل وعلا بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل واضح على أن قوله (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ) أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا ؛ لأن اللـه لا يأمر بالفحشاء .ومن الآيات الدالة على هذا : قوله تعالى :
"وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) " [سبأ: 34-35].

فقوله في هذه الآية "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ " الآية : لفظ عام ، في جميع المترفين، من جميع القرى، أن الرسل أمرتهم بطاعة اللـه فقالوا لهم: "إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ"، وتبجحوا بأموالهم وأولادهم ، والآيات بمثل ذلك كثيرة ... وهذا

القول الصحيح في الآية جارٍ على الأسلوب العربي المألوف، من قولهم : "أمرتُـه فعـصاني"، أي: أمرته بالطاعة فعصى، وليس المعنى: أمرته بالعصيان، كما لا يخفى .

ويقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هـووا عنـدما نـسوا فـضائلهم التـي جـاؤوا بهـا، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات)[1].

أليس هذا العامل الذي نص عليه القران عـاملا مـشتركا بـين كـل الـدول الإسـلامي التـي سادت ثم بادت وأصبحت في خبر كان؟؟!!

أليس الترف مخالفا للإسلام ومغضبا لله كما أوضحنا من خلال الأدلة السابقة؟؟!!

وألم يكن الترف من عوامل سقوط دولة الأمويين والعباسيين... والعثمانيين؟!

ومن أفضل الذين تحدثوا عن أسباب سقوط الـدول وانحطاطهـا وانهيارهـا، هـو المـؤرخ والعالم ابن خلدون في مقدمته الشهيرة:

يقول ابن خلدون"فمن مفاسد الحـضارة الانهـماك في الـشهوات والاسترسـال فيهـا لكـثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ، ويتبـع ذلـك التفـنن في شـهوات الفـرج بأنواع المناكح فيفضي ذلك إلى فساد النوع.

والذي حصل انه حينما دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأنـدلس كـانوا قـد انـصهروا في بوتقة الإسلام،حيث تأدبوا بآدابه فاتبعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه ، كما مثلوا أخلاقياته وما يدعو إليه من قيم سامية واقعا ملموسا، أدركها جميع أهل تلك

(1) انظر: مصرع غرناطة، ص 94.

الديار، فأعجبوا بها ، فقد قال أحد قادة لذريق في رسالة بعث بها إليه يصف بها جيش المسلمين الأول الذي عبر إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد: "لقد نزل بأرضنا قوم لا ندري أهبطوا من السماء أم نبعوا من الأرض".

وقد بقي المسلمون خلال القرون الثلاثة الأولى من وجودهم هناك محافظين على تلك القيم، معتزين بها، ولكن مع مضي الزمن بدأ البعض منهم بالتحلل منها مما أفقدهم شيئا من مقومات أصالتهم ووجودهم هناك، وقد أدرك هذه الحقيقة ابن خلدون حين قال: "إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طريقها ، وهذا ما حدث في الأندلس وأدى فيما أدى إلى ضياعه"..

يقول شوقي أبو خليل: "والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرَّسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا التهتك، والاغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ(1)".

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبُّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعبا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن

(1) انظر: مصرع غرناطة، ص 94.

يـصمد رجالـه في الانحـلال والميوعـة والمجـون، لا يـستطيع أن يـصمد رجالـه لحـرب أو جهاد،أو يتكوّن منهم جيش قوي، كفـء للحرب والمصاولة)[1] .

وقد تنـافس الـولاة والحكـام في الجـواري حتـى أصـبحت سـاحات للمعـارك والقتـال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سُنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة: ذكـر المـؤرخين أن وفـاة ابن هود عام 635هـ كانت على يد وزيره محمـد الرميمـي بـسبب النـزاع حـول فتـاة نـصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهـذه قيـادة تـستحق أن تحكـم رقـاب أمـة محمـد ﷺ[2] دخـل المـسلمون الأنـدلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبـور "اللـــه أكـبر" وبقينـا فيهـا زمنـا، حـين كـان يحكمها أمثال عبدالرحمن الداخل الذي عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه"[3].

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائـل للأنـدلس: (كانـت غـيرة هـؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حيـاتهم أشربت نفوسهم حُبَّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم"[4].

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما صار نشيد أحفاد الفاتحين

دَوْزِنِ العـــودَ وهـــاتِ القَـــدَحا   راقـــتِ الخمـــرةُ والـــوَرْدُ صَـــحَا[5]

---

(1) انظر: المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: سقوط غرناطة، ص 29.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 27.

(4) انظر: التاريخ الأندلسي، ص 211.

(5) انظر: النصر والهزيمة لشوقي أبو خليل ، ص 123.

- يقول الإمام ابن حزم في وصف حكام زمانه من أهل أندلس" و الله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم بادروا إليها ، فحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ... وربما عطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس "[1]. [رسائل ابن حزم 176/3].

ألم يكن انغماس بعض خلفاء بني أمية إلى حياة البذخ الترف اللذين أخذوهما عن البلاد البيزنطية أثر كبير في سقوط دولتهم، كما في حالة يزيد بن معاوية الذي اشتهر بحبه للّهو..وكذلك لم يكن حال يزيد بن عبد الملك أحسن حالاً من يزيد بن معاوية، فقد كان كما ذكر البلخي صاحب كتاب "البدء والتاريخ" صاحب لهو فقد شغف بجارية تسمى حبابة واشتهر بذكرها، كذلك اشتهر ابنه الوليد باللهو والمجون وكان شاعرًا مجيدًا له أشعار كثيرة في العتاب والغزل..

ألم يكن الترف من العوامل المسئولة عن سقوط الموحدين الترف والانغماس في الشهوات؟!

ومن أشهر الأمثلة على الترف عند حكام الأندلس حكاية ولا يوم الطين التي كان بطلاها المعتمد بن عباد ومحبوبته اعتمدت الرمكية.

ذكر المؤرخ المقريزي أن المعتمد آخر ملوك بني العباد في الأندلس كان متزوجا من جاريه أسمها (اعتماد) وكان يحبها حباً جما ويعاملها برفق ولين ويحرص على إرضائها وتلبية جميع رغباتها وذات يوم أطلت من شرفة القصر فرأت القرويات يمشين في الطين فاشتهت أن تمشي هي أيضاً في الطين .....وحدثت زوجها بذلك فخاف على قدميها أن يمسها الطين ...فألحت عليه فأمر الملك أن

(1) رسائل ابن حزم 176/3.

يؤتى بالمسك والعنبر وأنواع الطيب المختلفة فطحنت وصبت في صالة القصر، ثم أمر أن يأتوا بماء الورد ويصبوه على الطيب ...وعجنوه بالأيدي حتى أصبحت كالطين ... وعندها جاءت اعتماد مع جواريها تتهادى بينهن فخاضت بقدميها في هذا الطين الذي بلغت أثمانه آلاف الدنانير ،وحققت رغبتها ومشت في الطين..

وذات يوم سمعت من زوجها كلمه أغضبتها فنظرت إليه وقالت له:

و اللـه ما رأيت منك خيراً قط ...

فقال لها المعتمد :ولا يوم الطين ...؟

فاستحيت واعتذرت!!

ثانيا: الاختلاف والفرقة بين حكام الأندلس.

قال تعالى: "**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللـهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللـهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** " [آل عمران: 103]

وقال تعالى: "**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللـهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**" [الأنفال:46]

ومن البديهي أن عدم طاعة المسلمين لأوامر اللـه مدعاة لعدم نصر اللـه لهم .. ومن هنا كان عدم التزام المسلمين بأمر اللـه في التمسك بالوحدة بينهم، عاملا من أهم عوامل ذهاب ريحهم من خلال سقوط دولتهم في الأندلس ... علاوة على أن اللـه سبحانه وتعالى من عوامل هلاك الأمم والدول الاختلاف وقال صلى اللـه عليه

وسلم في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: (فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفي رواية "فأهلكوا"[1].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: "فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف"[2] .

"وإنما كان الاختلاف علّة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقا شتى مما يضعف الأمة لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيهاجمها ويحتل أراضها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها"[3].

يقول **الشيخ عبد الكريم زيدان**: "والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقا شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أنّ مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

(1) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (102/9، 101).

(2) المصدر السابق (102/9).

(3) انظر: مجموع الفتاوى (116/19).

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق...."[1].

والذي حصل هو انه في العقدين1020م،1030 م سقطت الخلافة في الأندلس بسبب"ثورة البربر" فقامت على اثر ذلك دويلات الطوائف التي مزقت دولة الخلاقة قسموا الدولة إلى 22 دويلة، وما أشبه اليوم بالأمس !!

ومن أشهر تلك الدويلات :

أولًا: بنو عَبَّاد:

وهم من أهل الأندلس الأصليين الذين كان يطلق عليهم اسم المولدين، وقد أخذوا منطقة أشبيلية.

ثانيًا: بنو زيري:

وهم من البربر، وقد أخذوا منطقة غرناطة، وكانت أشبيلية وغرناطة في جنوب الأندلس.

ثالثًا: بنو جهور:

وهم الذين كان منهم أبو الحزم بن جهور زعيم مجلس الشورى، وقد أخذوا منطقة قرطبة وسط الأندلس.

(1) انظر: السنن الإلهية ، د.عبد الكريم زيدان، ص139.

رابعًا: بنو الأفطس:

وكانوا أيضا من البربر، وقد استوطنوا غرب الأندلس، وأسسوا هناك إمارة بطليوس الواقعة في الثغر الأدنى.

خامسًا: بنو ذي النون:

كانوا أيضا من البربر، واستوطنوا المنطقة الشمالية والتي فيها طليطلة وما فوقها - الثغر الأوسط -.

سادسًا: بنو عامر:

وهم أولاد بني عامر والذين يعود أصلهم إلى اليمن، استوطنوا شرق الأندلس، وكانت عاصمتهم بلنسية.

سابعًا: بنو هود:

وهؤلاء أخذوا منطقة "سَرَقُسْطَة" - الثغر الأعلى -، تلك التي تقع في الشمال الشرقي.

وهكذا قسمت بلاد الأندلس إلى سبعة أقسام شبه متساوية، كل قسم يضم إما عنصرا من العناصر، أو قبيلة من البربر، أو قبيلة من العرب، أو أهل الأندلس الأصليين، بل إن كل قسم أو منطقة من هذه المناطق كانت مقسمة إلى تقسيمات أخرى داخلية، حتى وصل تعداد الدويلات الإسلامية داخل أراضي الأندلس عامة إلى اثنتين وعشرين دويلة، وذلك رغم وجود ما يقرب من خمس وعشرين بالمائة من مساحة الأندلس في المناطق الشمالية في أيدي النصارى.

إذا فقد سادت الأندلس - بعد سقوط الخلافة - حالة من الارتباك والحيرة تبينت خيوطها السوداء بقيام دول متعددة فيه، عُرفت بدول الطوائف (دويلات أو ملوك أو أمراء الطوائف). هذه التسمية واضحة المدلول في وصف حال الأندلس الذي توزعته عدة ممالك، وإن تفاوتت قوتها وأهميتها ومساحتها ودورها في أحداث الأندلس، كان بعضها يتربص ليحوز ما بيد غيره من الأمراء، مثلما كانت سلطات أسبانيا النصرانية تتربص بهم جميعًا، لا تميِّز حتى من كانت له معها صداقة أو عهد.

وبدا ضعف ملوك الطوائف واضحًا ملموسا مما شجع "ألفونس" فاستهان بهم واحتقرهم وقال عنهم: "كيف أترك قومًا مجانين تسمّى كل واحدٍ منهم باسم خلفائهم وملوكهم وكل واحد منهم لا يَسُلُّ للدفاع عن نفسه سيفًا ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفا؟!"

ويروى أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية حمل الهدايا النفيسة وتوجه بها إلى الملك الإسباني ألفونسو ليهنئه على احتلاله لطليطلة، فجازاه ألفونسو بإعطائه قردًا؛ احتقارًا له، لكن حسام الدولة عدَّ ذلك مفخرة له.

فأين هذا من أقوال :ثل "تدمير" و"لذريق" عندما قالوا عن سلفنا الصالح حينما غزوهم وأدخلوهم الإسلام: "إن قومًا لا ندري أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا بلادنا". الله أكبر! انظروا إلى الإيمان حينما يلامس شِغَاف القلوب ماذا يفعل، فلقد قذف الله الرعب في قلوب أعدائهم فهابوهم وخافوهم لأنهم خافوا الله واتبعوا كتابه وسنته نبيه .

وقد ورثت تلك الدويلات ثراء الخلافة، لكنها لم ترث استقرار الحكم فيها بل اتسمت بالتناحر المستمر بين بعضها البعض مما جعل منهم فريسة لنصرانيي

الشمال، ووصل الأمر إلى أن ملوك الطوائف كانوا يدفعون الجزية للملك ألفونسو السادس، وكانوا يستعينون به على أخوانهم.

وما أشبه اليوم بالأمس فما أن سقطت دولة الخلافة الإسلامية العثمانية حتى عاد رأينا عودة ملوك الطوائف هؤلاء من جديد ولكن ليس في الأندلس إنما في كل ارض العرب فحالة الفراق والشقاق والتآمر والغدر باتت تضرب أطنابها لكن هذه العودة قد اقترنت بوجود وظهور الدول الاستعمارية الغربية – بريطانيا وفرنسا- حيث قامت بتقسيم العالم العربي إلى دويلات صغيره مستقلة لكي يتمكنوا من السيطرة عليهم وكانت الطريقة المثلى لهذه السيطرة هي إثارة الحروب.

فعلى اثر الحرب العالمية الأولى التي اندلعت عام 1914م، وزجّت فيها الإمبراطوريات الكبيرة آنذاك وهي الإمبراطورية النمساوية، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الروسية. وانتهت الحرب عام 1918م بهزيمة هذه الإمبراطوريات وتقسيمها، ولاسيما الإمبراطورية النمساوية والعثمانية، وتم خلق دول كثيرة جديدة على أنقاضها في أوروبا وآسيا وأفريقيا .

ومن ثم قامت بريطانيا وفرنسا باستعمار العالم بينهما مناصفة، وقامتا بإنشاء كيانات صغيرة في المستعمرات ورسمتا لها الحدود . وعندما انهارت بريطانيا وفرنسا في الحرب العالمية الثانية، اضطرت هاتان الدولتان إلى منح الكيانات الجديدة استقلالها، فظهرت دول كثيرة في العالم وبأسماء لا حصر لها. وأكملت الولايات المتحدة مسيرة بريطانيا وفرنسا،فحافظت على دول الطوائف في العالم، وقامت بإنشاء منظمة الأمم المتحدة وأدخلت دول العالم فيها أفواجاً، حتى أصبح في هذه المنظمة الآن نحو أكثر مائتي دولة مستقلة، وخضع العالم العربي للاستعمارين البريطاني والفرنسي، وفي جزء منه وهو ليبيا للاستعمار الإيطالي.

ولم تغادر الدول الاستعمارية حتى كانت قد أنشأت حكومات محلية ودولاً مستقلة ذات حدود مرسومة.ومن ينظر إلى خرائط الدول العربية يتعجب أشدّ العجب من مهارة الرسامين - الإنجليز والفرنسيين- الذين رسموا حدود الدول العربية، حيث تجد استطالة هنا وانحناءة هناك ، بالإضافة إلى بعض المناطق التي تم اعتبارها مناطق محايدة - و عجيب أمر هذه المناطق - فلا تتبع لدولة بعينها، والهدف من إنشائها هو إبقاؤها كقنابل موقوتة لتفجير الصراعات بين الدويلات العربية في أي وقت تشاء.

وتشرف اليوم الولايات المتحدة الأمريكية بشكل مباشر على ملوك الطوائف هؤلاء فنراها تدعم استقلال وسيادة لبنان ، وتدعم استقلال وسيادة دول آسيا الوسطى والقوقاز السوفيتية سابقاً ، وتقدم الأسلحة للهند وباكستان في الوقت عينه ، وتقدّم الحماية لتايوان لكنها لا تنسى صداقتها مع الصين ، وتشجع على الديمقراطية في روسيا الاتحادية لكي تتفكك إلى دول صغيرة متناثرة ، وتعمل على ضمان عدم ظهور إمبراطورية في العالم سواها ، وذلك من خلال الإبقاء على دول الطوائف في كل مكان من العالم ضعيفة ومتناثرة وتحت إشرافها المباشر.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل نراها تعمل على تفتيت المفتت إلى أجزاء متناحرة ومضطربة كل ذلك من اجل مصالحها وهيمنتها على مقدرات الشعوب وبالمقابل يقوم ملوك الطوائف بالتسبيح بحمدها وظل لبعض من هؤلاء مستمراً بالتسبيح إلى أن جاء اليوم الذي اهتزت به عروشهم الخاوية التي تساقطت تحت صرخات أصوات الشعوب المنددة بتلك العروش، فقد فاقت الشعوب من نومها ونتمنى لها أن لا تعود إلى النوم .

أليس هذا التمزق والتشرذم مما يغضب الـلـه ويـدل عـن الابتعـاد عـن تطبيـق الإسـلام والإعراض عن ذكر الـلـه ؟!

ثالثا: موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم

قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا الـلـهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " [المائدة: 57] ، وقال: "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الـلـهِ فِي شَيْءٍ " [آل عمران: 28]. وقال: "لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالـلـهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الـلـهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ " [المجادلة: 22].

ورغم وضوح النـصوص الـشرعية التـي تجعـل بـين المـسلمين وغـيرهـم حـواجز تجـب مراعاتها، إلا أن كثيرا من المسلمين تغافل عن تلك النصوص، وأبى إلا اختيار طريـق الهلاك،ولعـل أبرز أمثلة هذا الانحراف التاريخي كان في الأندلس فردوس المسلمين المفقود.

فقد فتح المسلمون شبه جزيرة أيبيريا في القرن الهجري الأول واستمر ملكهم فيها ثمانية قرون تقريبا، كانت في جزء كبير منها أيام خير وعزة، استفادت منها أوروبا والعالم، وكانت بدايـة لإخراجهم من عصور التخلف والرجعية التي كانوا يعيشون فيها تحت حكم الكنيسة الكهنوتيـة في أوروبا، فلقد تعلم الأوروبيون من الأنـدلس أكـثر العلـوم الكونيـة، وكـانوا يتلقـون العلـوم في معاهد وجامعات الأندلس ليتخرج منها المتخصصون والكفاءات العليا التي نفعت بلادهم فـيما بعد.

ولكن الأيام دارت لينشغل كثير من المـسلمين بالـدنيا ومباهجهـا في الأنـدلس، ويهملـوا القوة والجهاد وتحصين الثغور، فتغول النصارى ويبدؤوا في تقوية ممالكهم

المتوارية، ويدخلوا مرحلة الحرب مع المسلمين واقتناص مدنهم الواحدة بعد الأخرى، وخاصة بعد تنازع المسلمين، وتعدد دولهم وولاياتهم في الأندلس.

وفي أواخر ذلك العصر تورط بعض حكام المسلمين في نفس ذلك الخطأ التاريخي القاتل، وهو التحالف مع الأعداء ضد الإخوة، وذلك لأسباب متعددة يأتي في مقدمتها الرغبة في الحفاظ على السلطة والحكم ولو على حساب الثوابت والأصول.

فقد تقسمت حينذاك الأندلس بين ممالك إسلامية صغيرة متنازعة، كان حدود بعضها في مدينة واحدة أو مدينتين، وكثر أصحاب الألقاب الكبيرة والممالك الصغيرة حتى لفت ذلك الأمر نظر بعض الشعراء الذين زاروا الأندلس في تلك الآونة، فقال أحدهم:

ومما يزهدني في أرض أندلس ألقاب ... ألقاب معتمد فيها ومعتضد

مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

وقد أدى التكالب على حب الدنيا و كراسي الحكم إلى قيام حروب ومعارك متتالية بين حكام تلك المناطق والممالك، كل يريد التوسع على حساب الآخر، ثم تطور الأمر لتحصل تحالفات بين بعض الممالك والحكام ضد غيرهم، ثم تفاقم ليصل إلى ذروة الخطورة بتحالف بعض ملوك المسلمين مع الملوك النصارى المجاورين لهم في الأندلس، وخاصة في شمال وغرب الأندلس، وارتكب ملوك الطوائف خطأ قاتلا بمظاهرة الكفار والمشركين والتعاون معهم ضد إخوانهم المسلمين،ابتغاء للعزة عندهم، فحصدوا بعد زمن ..حصادا مرا تمثل في ضياع الأندلس كلها.

وكان النـصارى يـشجعون تلـك الخلافـات والمـشاكل بـين ملـوك الطوائـف في الأنـدلس، ويغذونها، ويسارعون لعقد تحالفات الدفاع المشترك مع من يطلبها من أولئك الملـوك، ويمدونـه بالمال والسلاح أحيانا، بل وبالجند النصراني أحيانا أخـرى، ويحـاولون تغذيـة الأحقـاد والحـروب والكراهية بين الدويلات الإسلامية، لو إنهاكها بالنزاعات، حتـى انتهـى -أو كـاد- الجهـاد في أرض الأندلس بين المسلمين والنصارى، وصـار الـصراع بـين المـسلمين أنفـسهم، و كـادوا يقـضون عـلى أنفسهم، وزاد ضعفهم وتمزقت بلادهم، وتلاشت قوتهم وذهبـت ريحهـم، وصـاروا ألعوبـة بيـد ملوك النصارى الذين أخذوا يقضون على تلك الممالك مملكة بعد الأخرى، حتى وصلوا إلى نقطة اللاعودة.

فبعد معركة أو موقعة العقاب، سقطت دويلات المـسلمين في الأنـدلس واحـدة تلـو الأخرى فبعدها سقطت جيان في 643هـ- أو 1245م، ولم يبـق في الأنـدلس إلا ولايتـان كبيرتـان فقط، الأولى هي غرناطة وتقع في الجنوب الشرقي وتمثل حوالي 15% من بلاد الأندلس.

والولاية الثانية هـي ولايـة أشـبيلية وهـي تقـع في الجنـوب الغـربي مـن الأنـدلس أو في الجنوب الوسط في الأندلس وتمثل أشبيلية حوالي 10% من أرض الأندلس. وفي هذا الوقـت كـان للنصارى عدة دويلات أيضا.. وكان أكبرها دولة قشتالة التي كان يحكمها فرناندوا الثالث.

ومن التحالفات - المخالفة للإسلام - والتي أدت في النهاية إلى زوال الإسلام والمسلمين من الأندلس كانت :

معاهدة العار والخزي والشنار بين ابن الأحمر وملك قشتالة

في نفس العام التي سقطت فيه جيان، وفيسنة 643 هـ-1245 م وحماية لحقوق وواجبات مملكة قشتالة النصرانية وولاية غرناطة الإسلامية، يأتي فرناندو الثالث ملك قشتالة ويعاهد ابن الأحمر الذي يتزعم ولاية غرناطة، ويعقد معه معاهدة يضمن له فيها بعض الحقوق ويأخذ عليه بعض الشروط والواجبات.

وقبل أن نتحدث عن بنود هذه الاتفاقية وتلك المعاهدة، نتعرف أولا على أحد طرفي هذه المعاهدة وهو ابن الأحمر، فهو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر، والذي ينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة الخزرجي صاحب رسول الله ﷺ لكن شتّان بين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا، وبين سعد بن عبادة الخزرجي، وقد سُمّي بابن الأحمر لاحمرار لون شعره، ولم يكن هذا اسما له، بل لقبا له ولأبنائه من بعده حتى نهاية حكم المسلمين في غرناطة.

وكانت بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا هي:

أولاً: أن يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنويا، وكان هذا تجسيدا لحال الأمة الإسلامية، وتعبيرا عن مدى التهاوي والسقوط الذريع بعد أفول نجم دولة الموحدين القوية المهابة، والتي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا.

ثانياً: أن يحضر بلاطه كأحد ولاته على البلاد، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمنيا.

ثالثاً: أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانيـة، وبهـذا يكـون ملـك قـشتالة قـد أتـم وضمن تبعية غرناطة له تماما.

رابعاً: أن يسلمه ما بقي من حصون جيّان- المدينة التي سقطت أخيراً- وأرجونـه وغـرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، وحصون أخـرى كثـيرة تقـع كلهـا في غـرب غرناطـة، وبـذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة مواقع في غاية الأهمية تحـيط بغرناطـة نفسها.

خامساً: وهو أمر في غاية الخطورة، وهو أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا احتاج إلى ذلك، أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أيـا كانـت الدولة التي يحاربها.

قمة التدني والانحطاط وسقوط أشبيلية

وفي أول حرب له بعد هذه الاتفاقية قام ملك قشتالة بالزحف نحو أشـبيلية، وبـالطبع طلب من ابن الأحمر أن يساعده في حربها وفق بنـود المعاهـدة الـسابقة، والتزامـا صـاغرا بهـا، ودوسا بالأقدام لتعـاليم الإسـلام وشرائعـه، وضربـا لرابطـة النـصرة والأخـوة الإسـلامية، ومـوالاة للنصارى وأعداء الإسلام على المسلمين، ما كان من ابن الأحمر إلا أن سمع وأطاع، وبكامل عدته يتقدم فرسان المسلمين الذين يتقدمون بدورهم جيوش قـشتالة نحـو أشـبيلية، ضـاربين حـصارا طويلا وشديدا حولها.

وإن مما يثير الحيرة والدهشة ويدعو إلى التعجب والحسرة في ذات الوقـت هـو أنـه إذا كان ابن الأحمر على هذه الصورة من هذه السلبية وذاك الفهم السقيم، والذي لا يُنبئ إلا عـن مصلحة شخصية ودنيوية زائلة، فأين موقف شعب غرناطة الذي

هو قوته وجيشه؟! وكيف يرتضي فعلته تلك ويوافقه عليها، ومن ثم يتحرك معه ويحاصر أشبيلية المسلمة المجاورة، وهما معا (أشبيلية وغرناطة) كانتا مدينة واحدة في دولة إسلامية واحدة هي دولة الأندلس؟!

أليس الجيش من الشعب؟! أو ليس هم مسلمون مثلهم وأخوة في الدين لهم حق النصرة والدفاع عنهم؟!

فإنه ولا شك كان انهيارا كبيرا جدا في أخلاق القادة وأخلاق الشعوب.

يتحرك الجيش الغرناطي مع الجيش القشتالي ويحاصرون المسلمين في أشبيلية، ليس لشهر أو شهرين، إنما طيلة سبعة عشر شهرا كاملا، يستغيث فيها أهل أشبيلية بكل من حولهم، لكن هل يسمع من به صمم؟!

وما أصدق عمرو بن معدي كرب رضي الله عنه حين قال:

لقد أَسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ... ولكن لا حياةَ لمن تُنادي
ولو نارٌ نفحتَ بها أضاءت ... ولكن أنتَ تنفُخُ في رَمَادِ

فالمغرب الآن مشغول بالثورات الداخلية، وبنو مارين يصارعون الموحدين في داخل المغرب، والمدينة الوحيدة المسلمة في الأندلس غرناطة هي التي تحاصر أشبيلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان لسنة 646 هـ= 1248 م وبعد سبعة عشر شهرا كاملا من الحصار الشديد، تسقط أشبيلية بأيدي المسلمين ومعاونتهم للنصارى، تسقط أشبيلية ثاني أكبر مدينة في الأندلس، تلك المدينة صاحبة التاريخ المجيد والعمران العظيم، تسقط أشبيلية أعظم ثغور الجنوب ومن أقوى حصون

الأندلس، تسقط أشبيلية ويغادر أهلها البلاد، ويهجّر ويشرّد منها أربعمائة ألف مسلم، وواحسرتاه على المسلمين، تفتح حصونهم وتدمر قوتهم بأيديهم

وَمَا فَتِئَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَ
وَأَصْبَحَ لَا يُرَى فِي الرَّكْبِ قَوْمِي وَقَدْ عَاشُوا أَئِمَّتُهُ سِنِينًا
وَآلَمَنِي وَآلَمَ كلّ حُرٍّ وسُؤَالُ الدَّهْرِ: أَيْنَ الْمُسْلِمُونَ؟

أين المسلمون؟! إنهم يحاصرون المسلمين! المسلمون يقتلون المسلمين! المسلمون يشرّدون المسلمين!!!

وعلى هذا تكون أشبيلية قد اختفت وإلى الأبد من الخارطة الإسلامية، وما زال إلى الآن مسجدها الكبير الذي أسسّه يعقوب المنصور الموحدي بعد انتصار الأرك الخالد، والذي أسسّه بغنائم الأرك، مازال إلى اليوم كنيسة يعلّق فيها الصليب، ويُعبد فيها المسيح بعد أن كانت من أعظم ثغور الإسلام، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وتطبيقا لهذه المعاهدة المخزية قام فرناندو ملك قشتالة هذا بالهجوم على أشبيلية وطلب من بن الأحمر أن يساعده في حربها وفق بنود المعاهدة التي ذكرناها سابقا ، -كما فعلت واشنطن مع عملائها من حكام دويلات العرب في بداية التسعينيات من القرن العشرين- والتزاما صاغرا بها ودوسا بالأقدام على تعاليم الإسلام وشريعة الإسلام وضربا برابطة النصرة والأخوة الإسلامية ..وموالاة للنصارى وأعداء الإسلام ..ما كان من بن الأحمر إلا أن سمع وأطاع وبكامل عدته يتقدم فرسان المسلمين الذين يتقدمون بدورهم أمام جيوش قشتالة جيش المسلمين في المقدمة نحو أشبيلية ضاربين حصارا طويلا وشديدا حولها. مما يثير الحيرة والدهشة ويدعوا للتعجب والحسرة ليس موقف بن الأحمر هذا الخائن وإنما

موقف شعب غرناطة الذي هو قوة بن الأحمر .. وجيش بن الأحمر كيف يرتضي فعلته تلك؟!

ويتحرك الجيش الغرناطي مع الجيش القشتالي ويحاصرون المسلمون في أشبيلية ليس لشهر ولا شهرين هذا الحصار وإنما طيلة 17 شهرا كاملا يستغيث بها أهل أشبيلية بأهل غرناطة ويستغيثون بكل من حولهم ولكن ..لا حياة لمن تنادي....فالمغرب مشغول بالثورات الداخلية ناس يثورون على ناس ، وبنوا مرين ثاروا على الموحدين في داخل المغرب، والمدينة الوحيدة المسلمة الباقية في الأندلس الولاية الوحيدة المسلمة هي غرناطة التي تحاصر أشبيلية .

في 27 من شهر رمضان سنة 646 هـ- الموافق 1248م، بعد 17 شهر كاملا من الحصار الشديد تسقط أشبيلية بأيدي المسلمين الذين عاونوا النصارى... تسقط أشبيلية ثاني أكبر مدينة في الأندلس، هذه المدينة صاحبة التاريخ المجيد والعمران العظيم تسقط أشبيلية التي كانت من أقوى حصون الأندلس...

تسقط أشبيلية ويغادرها أهلها المسلمون... ويشرد منها 400 ألف مسلم .. يطردوا من أشبيلية واحسرتاه وتفتح حصونهم وتدمر قواتهم بأيديهم وما فتئ الزمان يدور حتى مضى بالمجد قوم آخرونا.

وأصبح لا يرى في الركب قوم وقد عاشوا أئمته سنينا.

وآلمني وألم كل حر سؤال الدهر أين المسلمون.

وعلى هذا تكون اشبيلية اختفت ليس من تلك الفترة وإنما اختفت إلى اليوم من خارطة الإسلام.. وما زال إلى الآن مسجدها الكبير الذي أسسه "يعقوب المنصور الموحدي" بعد انتصاره العظيم في معركة الأرك الخالدة ، أسسه بغنائم

المسلمين من النصارى في معركة الأرك، ما زال هذا المسجد إلى اليوم كنيسة يعلق فيها الصليب ويعبد فيه المسيح بعد أن كانت أعظم ثغور الإسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولم يتبق في الأندلس سنة 646هـ- 1248م، لم يبق في الأندلس أي غير غرناطة طبعا غرناطة .

وغرناطة، لا تمثل كما ذكرنا هذه المملكة سوى 15% فقط من أرض الأندلس 85% من أرض الأندلس قد ضاع .

وقبل أن نكمل دعونا نتساءل ونتعجب، لماذا يعقد فرناندوا الثالث اتفاقية مع ابن الأحمر؟ ولماذا لم يأكل غرناطة كما أكل غيرها من بلاد المسلمين دون عهود ودون اتفاقيات؟

ربما كان في العوامل التالية جواب على التساؤل

أولا :الكثافة السكانية العالية جدا في غرناطة، وكان من أسباب هذه الكثافة أنه كلما سقطت دويلة من دويلات المسلمين هاجر أهلها إلى غرناطة، ذلك أن النصارى كان أنهم كلما احتلوا بلدا قاموا إما بقتل المسلمين أو تشريدهم أو طردهم... فالذين كانوا يشردوا أو يطردوا كانوا يتجمعون في غرناطة، فالذين تجمعوا في غرناطة بسبب سقوط مدنهم في أيدي النصارى تجمعوا كلهم في الجنوب الشرقي في غرناطة، يقال أن وصلت الأعداد أكثر من مليون نسمة سكان غرناطة.

ثم كانت غرناطة لها حصون منيعة جدا دعمت على مدى السنين وكانت يعني متعبة لكل من يحاول أن يفتحها.

وهذا أشبه ما يكون بحالة المخيمات اليوم ، كما يحدث في الضفة أو غزة، إذ إنه سيكون من الصعب جداً على كيان قوي مثل قشتالة أو " إسرائيل" أن يغير عليهم

ويقضي عليهم مرة واحدة، وإن غامر العدو فجأة سيحدث ربما صحوة،-كما فعلوا في الحرب على غزة- فالأفضل التخدير، معاهدة سلام وضيعة يعمل فيها الحكام من الجانب الآخر الأندلسي"الفلسطيني" وظيفة اليد للعدو، يربطونهم معهم اقتصادياً فيغدون كالعبيد الأذلاء ينتظرون التصريح والمؤن والإغاثات الاقتصادية.

وهذا ما حدث في غرناطة ويحدث اليوم في الضفة الفلسطينية وعيرها، ثم يقوم أولئك الحكّام المأجورين بنظام حكم يتبع للاحتلال سياسياً ويطبّعون معهم أمنياً فيمنعون الانتفاضات والجهاد ،ويشرعون بنشر فكرة التوطين والتعايش مع الاحتلال وكأنه"سلام للشجعان" وبالنهاية، ومع التقادم، يقتل أولئك القوم شيء فشيء حتى يطردون بعد التمكن.

وهكذا تغدو فلسطين أندلس أخرى يا بتوقيع أهلها قبل الجميع

أُختَ أَندَلُسٍ عَلَيكِ سَلامُ هَوَتِ الخِلافَةُ عَنكِ وَالإِسلام

نَزَلَ الهِلالُ عَنِ السَماءِ فَلَيتَها طُوِيَت وَعَمَّ العالَمينَ ظَلامُ

فهل تتعظ الأمة من مصير غرناطة، وتضرب بيد من حديد على يد كل من تسول له نفسه، أن يعمل على جعل مصير فلسطين كمصير الأندلس؟؟؟!!

الأمر الثالث: أنها كانت تقع في الجنوب الشرقي عند البحر المتوسط قريبة جدا من بلاد المغرب العربي وبالأحرى من دولة بني مرين التي كانت بين الحين والآخر تساعد غرناطة.

ومن هنا كانت هذه العوامل مجتمعة قد جعلت غرناطة تصمد، ومن هنا وافق فرناندوا الثالث على عقد هذه الاتفاقية، ولكن النصارى القشتاليون بقيادة فرناندوا الثالث كانوا ينقضون العهود مع بن الأحمر فيهجمون على بعض المدن

ويحتلونها ويحاولون أخذ بعض الحصون.. وكان بن الأحمر يحاول أن يستردها لكن بدون فائدة فبدأت غرناطة تتقلص شيئا فشيئا.

ومن أشهر الأمثلة على تحالف ملوك الطوائف مع النصارى ضد بعضهم بعضا:

الصراع بين المأمون بن ذي النون وسليمان المستعين بن هود

حيث كانت الخصومة بين طليطلة وسرقسطة شرسة، وتلطخت بالخيانة وموالاة النصارى على بعضهم، وتمكينهم من أراضي المسلمين، ويمكننا أن نقول: إن هذه الخصومة تُعَدُّ الأسوأ في تاريخ الأندلس وخاصة في عهد ملوك الطوائف، فمأساةٌ حقًّا أن يسحق النصارى المسلمين، ويعيثوا في بلادهم تحت إشراف حُكَّام مسلمين، وفي أراضي المسلمين!

كان النزاع على أشُدِّه بين المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وبين سليمان المستعين بن هود صاحب سرقسطة، وكانت تلك فتنة هوجاء عصفت بالمسلمين، وزالت هيبتهم عند النصارى؛ فمعلوم أن سرقسطة تمثِّل من الناحية الجغرافية الجانب الشمالي الشرقي لطليطلة، وكانت سلسلة المدن والقلاع والحصون التي تمتدُّ بين الثغر الأعلى (سرقسطة)، وبين الثغر الأوسط (طليطلة)، من قلعة أيوب وحتى وادي الحجارة هي موضع الاحتكاك والتنازع بين الخصمين[1] .

معركة وادي الحجارة بين المأمون وابن هود

وعلى الرغم من أن وادي الحجارة من أعمال طليطلة، إلاَّ أن هناك بعضًا من أهلها مالوا إلى سليمان بن هود في سرقسطة، وكانت هذه فرصة لابن هود أن ينفث

(1) عنان: دولة الإسلام في الأندلس 98/3.

في رُوح الفرقة بين أهلها؛ ليتسنَّى له السيطرة عليها بسهولة، وهو ما حدث بالفعل، فما زالت رُوح الفُرقة تتزايد بين أهلها المشتَّتين، بين طليطلة وسرقسطة، حتى بعث سليمان بن هود جيشًا عليه ابنه أحمد وليَّ عهده، ودخل وادي الحجارة بتدبيرٍ من شيعته، وكان ذلك سنة (436هـ=1044م)، وما أن علم المأمون بذلك حتى هرع إلى وادي الحجارة، ودارت بينه وبين أحمد بن هود معارك طاحنة، سالت فيها كثير من الدماء، وكانت الغلبة فيها لابن هود، وفرَّ المأمون وتتبَّعه أحمد بن هود بجيشه، وحاصره في مدينة طلبيرة، الواقعة على نهر التاجة غرب طليطلة، وبعث أحمد لأبيه سليمان بن هود يُعْلِمه بالخبر، فأمره بترك المأمون والرجوع إلى سرقسطة، ورفع الحصار عن طلبيرة، وبذلك نجا المأمون من موت مُؤَكَّد[1]!

المأمون والاستعانة بالنصارى:

كانت هزيمة منكرة بلا شكٍّ للمأمون بن ذي النون، إلاَّ أنه لم ييأس وغلبه الجنوح إلى الغلبة والأنفة، ويا ليت أنفته كانت على نصارى الإسبان! وإنما كانت أنفته على مسلمي سرقسطة، الذين استهان بدمائهم، وجعلهم عرضة لجنوده وللنصارى، كما سنرى!

لم يَهُنْ المأمون ولم يَلِنْ له عزم، ولم تأخذه الراحة حتى يأخذ بثأره من سليمان بن هود، فماذا يفعل المأمون؟ وقد أنهكته الهزيمة وأخذت منه جُلَّ جيشه وعسكره، فَكَّر المأمون بن ذي النون ووجد ضالته في الاستعانة بالنصارى على أخيه المسلم، والتجأ إلى فرناندو الأول ملك قشتالة يستعين به، مقابل أن يدفع له الجزية، فاستجاب فرناندو للطلب، ونِعْمَ ما يطلبه المأمون!

(1) ابن عذاري: البيان المغرب 277/3، 278، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 177، 178.

وعلى الفور ولم تمضِ أيام حتى كانت خيل النصارى تعيث فسادًا في بلاد سليمان بن هود؛ قتلاً ونهبًا وسرقة، وليس لهم رادع يردعهم! فأين جيوش سليمان بن هود؟! وأين عنجهيَّته وجبروته؟ أم أن قوَّته على المسلمين! أم أنه:

أَسَــدٌ عَــلَيَّ وَفِي الحُــرُوبِ نَعَامَــةٌ فَرْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصافر الصَّافِرِ[1]

لقد فرَّ سليمان بن هود وتبعه جنوده، وتحصَّنوا بحصونهم، وتركوا رعيتهم لسيوف النصارى!

كان مصابًا عظيمًا للمسلمين في سرقسطة؛ إذ كان ذلك الهجوم في وقت الحصاد، فقام النصارى بحصده وحمله، ولم يكتفوا بذلك بل خربوا الزروع والأراضي، وحملوا ما شاء لهم أن يحملوه إلى بلادهم، وكانت فرصة للمأمون أن يثأر لهزيمته، فأغار على بلاد ابن هود ونهب منها ما شاء.

تحالف المأمون مع المعتضد بن عباد ضد ابن هود

ولم يكتفِ المأمون بذلك فقط، بل عزم على عقد تحالفات أخرى مع ملوك الطوائف؛ يستعين بهم على ابن هود، وعرض المأمون على المعتضد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة صداقته وتحالفه، واستمرَّت المفاوضات بينهما، وقَبِلَ المعتضد بالله ذلك الحلف وتلك النصرة، على أن يعترف المأمون بالدعوة الهاشمية، ويُبايع للمدعو هشام المؤيد، وتكون له الدعوة في مساجد طليطلة، ووافق المأمون بن ذي النون، مع أن أباه إسماعيل بن ذي النون قد رفضها من قبلُ، ولكنها المصالح!

(1) البيت لعمران بن حطان السدوسي.

ويبدو أن المأمون خرج من ذلك الحلف خاسرًا خائبًا؛إذ انشغل المعتضد عنه بقتال ابن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس،فلم ينلْ منه ما يُريد،وعاد بخُفَّيْ حنين![1].

سليمان المستعين والاستعانة بالنصارى

أما ابن هود فإنه وقع في تلك السقطة التي وقع فيها المأمون، وذهب إلى النصارى يستعين بهم -أيضًا- على المأمون، وبعث إلى فرناندو ملك قشتالة بالهدايا والتحف، وأغراه في طليطلة، فاستجاب فرناندو ولبَّى دعوته، وبعث بسراياه فعاثت في أراضي طليطلة فسادًا وتخريبًا، حتى وصلت إلى وادي الحجارة، وقلعة النهر (قلعة هنارس).

لم ييأس المأمون من المعركة والتمس مساعدة غرسية ملك نافار، وهو أخو فرناندو ملك قشتالة وكانت بينهما عداوة، وبعث المأمون إلى غرسية بالأموال والتحف يستنصره على ابن هود، فأغارت قوات غرسية على أراض سرقسطة المتاخمة له فيما بين تُطِيلَة ووَشْقَة، وافتتح قلعة قلبرة أو قَلَهُرَّة من ثغر تُطِيلَة سنة (437هـ=1045م)، والتي فتحها المنصور بن أبي عامر، وعاثت فيها قوات النصارى تخريبًا.

وهكذا استباح النصارى في قشتالة ونافار بلادَ المسلمين في طليطلة وسرقسطة، بمساعي ابن هود وابن ذي النون المشئومة الذميمة، وانهارت خطوط الدفاع، وساءت أحوال المسلمين، فاضطر أهل طليطلة إلى أن يبعثوا كبراءهم إلى سليمان بن هود؛ طلبًا للصلح، وحفظًا لأراضي المسلمين من ظفر النصارى بها، واستحواذهم عليها، وتظاهر كلٌّ من سليمان بن هود والمأمون بالقبول والمصالحة،

(1) ابن عذاري: البيان المغرب 278/3، 279، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص178.

ثم نقض سليمان بن هود ما كان عاهد عليه أهل طليطلة والمأمون، ويبدو أن كلاًّ منهما لم يكن مستعدًا لقبول الصلح؛ فالعداوة بينهما ملأت القلوب!

استعلاء النصارى على المسلمين

لم يمضِ كثير من الوقت حتى خرج سليمان بن هود بجنوده، ومعه طالعة من حلفائه النصارى متجهًا إلى مدينة سالم من أعمال طليطلة، ولم تصمد حاميتها أمامه، وقتل منهم الكثير، وبسط نفوذه على الحصون التي انتزعها منه المأمون، وكان معه في ذلك كله عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون، وهو أخو المأمون، وجعل يدُلُّه على عورات المأمون وثغراته، ولما علم المأمون بالحادثة أسرع ليستردَّ المدينة ويُدافع عنها، وانتهز فرناندو حليف ابن هود غياب المأمون، فبعث سراياه فعاثت في أراضي طليطلة خرابًا وتقتيلاً؛ حتى يئس أهلها، وبعثوا إلى فرناندو يطلبون الصلح والمهادنة، فطلب منهم أموالاً كثيرة، واشترط عليهم شروطًا لم يقدروا عليها، وقالوا له: لو كنا نقدر على هذه الأشياء وهذه الأموال لأنفقناها على البرابرة واستدعيناهم لكشف ما نحن فيه من المعضلة.

فردَّ عليهم فرناندو قائلاً: «أمَّا استدعاؤكم البرابرة، فأمر تَكثرون به علينا، وتهدِّدوننا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا لكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديمًا في أوَّل أمركم؛ فقد سكنتموها ما قُضِيَ لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عُدوتكم (يقصد عُدوة المغرب)، واتركوا لنا بلادنا؛ فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم»[1].

(1) ابن عذاري : البيان المغرب 282/3.

وهكذا لم يجد أهل طليطلة قبولاً لِمَا عرض عليهم من الصلح، وعلى الجانب الآخر كان غرسية وجنوده حلفاء المأمون يعيثون في أراضي ابن هود فسادًا وتخريبًا،ودامت هذه الفتنة الهوجاء بين هذين الأميرين المشئومين على المسلمين لمدة ثلاث سنوات (435-438هـ= 1043-1046م)، ولم تنتهِ إلاَّ بموت سليمان المستعين بن هود صاحب سرقسطة؛ إذ تنفَّس المأمون بن ذي النون الصعداء[1].

طليطلة وسرقسطة.. سليمان بن هود والمأمون بن ذي النون.. نموذج صارخ لتلك الحروب والخصومات التي عاشتها أمَّة الإسلام، وعانت ويلاتها في تلك الفترة المشئومة على المسلمين فترة ملوك الطوائف.

المقتدر بن هود

هدأت الأمور نوعًا ما بين المملكتين؛ إذ انشغل أولاد سليمان الخمسة في النزاع على أملاك أبيهم، وقد استطاع المقتدر بالله أحمد بن هود أن يتغلَّب على إخوته، وأن يُكَوِّنَ مملكة من أعظم ممالك الطوائف، بعد أن ضمَّ طُرْطُوشة إلى أملاكه سنة (452هـ=1060م)[2]، كما انتزع دانية من صهره علي إقبال الدولة بعد أن حاصرها وذلك سنة (468هـ= 1076م)[3]؛ وبذلك أضحت سرقسطة أكبر ممالك الطوائف مساحة وأعظمها قوَّة.

(1) انظر تفاصيل ذلك في، ابن عذاري: البيان المغرب 277/3-283، وابن الخطيب:أعمال الأعلام ص178،وعنان: دولة الإسلام في الأندلس 98/3-101.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب 250/3.

(3) المصدر السابق 228/3.

يحيى القادر بن ذي النون

كما بدأ المأمون يتوسَّع على حساب الممالك الصغيرة الأخرى، واستطاع أن يُكَوِّنَ مملكة قوية مترامية حتى وصلت إلى بَلَنْسِيَة شرقًا، وما لبث المأمون إذ وافته المنية بعد ثلاث وثلاثين عامًا،وذلك بقرطبة سنة (467هـ= 1075م)، وخلفه حفيده يحيى القادر على أملاك طليطلة وأعمالها.

لم يكن يحيى القادر على مقدار الكفاءة السياسية والعسكرية التي كانت عند جدِّه المأمون؛إذ كان سيئ الرأي، قليل الخبرة والتجارِب، فوقع تحت تأثير العبيد والخدم ونساء القصر، وطائفة من قرناء السوء وبطانة الشرِّ، ظلُّوا وراءه حتى أوغروا صدره من مدبِّر دولته ابن الحديدي، فقتله في أوائل ذي الحجة (468هـ= 1076م) وسرعان ما انقلب عليه أعوان الأمس، وصاروا يُؤَلِّبُون العامَّة عليها، وانهالت عليه الضغوط من كل جانب، وكانت هذه فرصة للمقتدر بن هود أن يُغير على طليطلة وأعمالها، وفعلاً كثَّف المقتدر غاراته واستعان بالنصارى في ذلك، ولم يستطع يحيى القادر بن ذي النون أن يَرُدَّ عليه، وظلَّ الأمر هكذا حتى استطاع المقتدر بن هود أن ينتزع منه مدينة شَنْتَبَرِيَّة[1].

سقوط طليطلة

ثم تطوَّرت الأحداث كثيرًا في كلٍّ من طليطلة وسرقسطة؛ إذ تصاعد الخطر النصراني على بلاد المسلمين، وبدأ ألفونسو السادس يُسَدِّد ضرباته القوية على ممالك الطوائف المختلفة، حتى أضعفها وأنهكها؛ مرَّة بالجزية، ومرَّة بالغارات المتتالية، والواقع أن أحوال يحيى القادر في طليطلة كانت تُنذر بالخطر ووقوع النكبة؛ إذ

(1) عنان: دولة الإسلام في الأندلس 107/3.

اندلعت الثورة ضدَّه في طليطلة وهرب منها إلى حصن وَبْذَة سنة 472هـ، إلا أنه استطاع أن يعود على حراب ألفونسو مرَّة أخرى، والتي أعقبتها زواله وخروجه ذليلاً من طليطلة؛ إذ وقعت النكبة وسقطت في يد ألفونسو في صفر (478هـ=1085م)، وخرج القادر يحيى إلى بلنسية تحت الحماية القشتالية في شوال (478هـ= 1086م).

وقد أدرك الشاعر الأندلسي -ابن العسال-أن سقوط طليطلة سنة 478 هـ (1085 م) سيكون له ما بعده فقال محذراً إخوانه المسلمين هناك.

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس	فما المقام بها إلا من الغلط
السلك يُنثَر من أطرافه وأرى	سلكَ الجزيرة منثوراً من الوَسَطِ
من جاور الشر لا يأمن عواقبه	كيف الحياةُ مع الحيات في سَفَطِ

وعاث النصارى قتلاً وتخريبًا في المسلمين وديارهم تحت سمعه وبصره، ولم يُحَرِّك ساكنًا، وأمام هذه التطوُّرات الخطيرة يصل الخبر إلى بَلَنْسِيَة بالعبور المرابطي، فيهرع النصارى في بلنسية إلى ألفونسو لنجدتهم من الاتحاد الأندلسي المرابطي، وتكون معركة الزلاقة وينتصر المسلمون في (رجب 479هـ= أكتوبر 1086م)، ويتنفَّس أهل بلنسية الصعداء، بخروج النصارى وانتصار المسلمين، وهكذا انتقلت دولة القادر بن ذي النون من طليطلة إلى بلنسية.

الصراع على بلنسية

وعلى الجانب الآخر تُوُفِّيَ المقتدر أحمد بن هود سنة (475هـ= 1081م)، بعد 35 سنة حاكمًا على سرقسطة، بيد أن أبناء المقتدر يوسف والمنذر اقتتلا فيما بينهما على عرش أبيهما، واستعان كلٌّ منهما بالنصارى على أخيه، فارتمى يوسف المؤتمن في أحضان السيد القمبيطور، وجيشه من المرتزقة القشتاليين، وارتمى المنذر في أحضان

سانشو ملك أراجون ورامون أمير بَرْشُلُونَة، وانتهت الفتنة بتغلُّب يوسف المؤتمن بن هود على مملكة سرقسطة، وانحصر سلطان المنذر في لارِدَة وطُرْطُوشة، وبدأت أطماع يوسف تَتَّجه صوب بلنسية، إلا أنه فشل في انتزاعها من يد حاكمها أبي بكر بن عبد العزيز، لكن ابن عبد العزيز أحسَّ بالخطر،ودارت بينهما مفاوضات انتهت بالتقارب بينهما بالمصاهرة؛ إذ زوَّج أبو بكر ابنته لأحمد المستعين بن يوسف المؤتمن وذلك سنة 477هـ، ومات المؤتمن سنة (478هـ= 1085م)، ولم يُحَقِّق حلمه، وخلفه من بعده ابنه أحمد المستعين.

تطوَّرت الأحداث على هذا النحو في المملكتين، وأسفرت معركة الزلاقة عن انجلاء الحصار القشتالي عن بلنسية 479هـ، وتجدَّدت أطماع المستعين بن هود في بقية أملاك طليطلة، وأخذ يتحيَّن الفرص ليقتنصها ويُحَقِّق حلم آبائه، وجاءته الفرصة إذ إن عمه المنذر كان يرقب هو الآخر الفرصة للاستيلاء على بَلَنْسِيَة، وحشد جنوده وفرض عليها الحصار سنة (481هـ=1080م)، وهنا هرع القادر بن ذي النون إلى حليفه أحمد المستعين بن هود، الذي لبَّى دعوته مسرعًا وهو ينوي نية الاستيلاء، مستعينًا في ذلك على القمبيطور وجنوده المرتزقة، وما أن اقترب المستعين ومَنْ معه من مرتزقة القمبيطور، حتى أنهى المنذر الحصار وعرض على يحيى صداقته، وهنا ظهرت ألاعيب كلٍّ من القمبيطور والمستعين، وظلَّ كلٌّ منهما يلعب على الآخر، وتفكَّك الحلف بينهما؛ إذ ظهرت النوايا الخفيَّة في سيطرة كلٍّ منهما على بَلَنْسِيَة، وانتهى الأمر أن غدت بَلَنْسِيَة في يد القمبيطور، وكانت مصابًا عظيمًا، ومحنة جليلة للمسلمين هناك وذلك سنة (488هـ =1096م)، وبقيت بَلَنْسِيَة في أيدي النصارى حتى استردَّها المرابطون سنة 495هـ[1] [10].

(1) ابن عذاري: البيان المغرب 3/303-306،وعنان: دولة الإسلام في الأندلس 3/229، 287.

انتهاء الصراع بسقوط الدولتين

عاد المستعين يجر أذيال الخيبة يعد فشل محاولاته في انتزاع بلنسية، إلى أن قُتل في معركة بلتيرة أو فالتيرا أمام ألفونسو المحارب ملك أراجون في (رجب 503هـ=يناير 1110م)، وخلفه ابنه عبد الملك الملقَّب بعماد الدولة، والذي كانت نهاية دولة بني هود على يديه؛ فقد دخل المرابطون سرقسطة سنة (503هـ=1110م)، وكانت آخر ممالك الطوائف سقوطًا في يد المرابطين، وظلَّت في أيديهم إلى أن سقطت في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في رمضان (512هـ =1118م)[1].

وهكذا انتهت الأحداث بين مملكتي طليطلة وسرقسطة، والتي كان الاعتماد فيها واضحًا على جند النصارى والمرتزقة، والذي كان له بعيد الأثر في تدهور الأوضاع حتى سقوط المملكتين.

رابعاً: الفتنة العصبية والقبلية بين العرب قيسيين ويمانيين من جهة وبين البربر والعرب من جهة أخرى.

العصبية القبلية هي الافتخار بالآباء والأجداد والتعالي بذلك على من يعتقدون أنهم أقلّ منهم حسباً ونسباً، فهنالك من يرى أن قبيلته أفضل من القبيلة الأخرى بمعايير الشجاعة والحسب والنسب . وتندرج تحت العصبية القبلية الطبقات الاجتماعية وما يسمى بالقومية والوطنية والإقليمية ... وما شابه.

(1) ابن الأبار: الحلة السيراء 248/2، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص175، وابن خلدون: تاريخ تاريخ ابن خلدون 163/4.

وقد ورد في القرآن الكريم والسنّة النبوية آيات وأحاديث كثيرة تأمر بالاجتماع وتنهى وتحذر عن الفرقة والعصبية الجاهلية، ومن ذلك قوله عز وجل:
"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللـهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللـهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " [آل عمران:103)]، وقال تعالى: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** " [الحجرات: 13].

ومن أحاديث عن النبي صلى اللـه عليه وسلم التي تنهى عن العصبية القبلية:

قال رسول اللـه ﷺ في خطبته المشهورة عند باب الكعبة يـوم فـتح مكّـة المكرّمـة: (يـا معشر قريش، إنّ اللـه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآبـاء. النـاس مـن آدم وآدم من تراب، ثمّ تلا الآية: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**" [الحجرات :13].

وفي مثل هذا المعنى قـال رسـول اللــه ﷺ: "إنّ اللــه عـزّ وجـلّ أذهـب عـنكم عُبيَّـة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي. أنتم بنو آدم وآدم مـن تـراب. ليـدعنّ رجـال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنّم، أو ليكوننّ أهـون عـلى اللــه مـن الجعـلان التـي تدفع بآنفها النتن". أخرجه أبو داود والترمـذي وقـال: حـسن صـحيح. والعبيـة: الكـبر والنخـوة. الجعلان: جمع جعل وهو دابة صغيرة. الآنف: جمع أنف.

قَالَ: " لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَـنْ مَـاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ". (أخرجه أبو داود) .

وقد وقد الطت ظاهرة العصبية براسها بعد ان وادها الإسلام على عصر الرسول اطلت براسـها مـع نهايـات العـصر الامـوي في الفـترة مـا بـين سـنة 123هــ=741م وحتـى سـنة 138هــ=755م[1]، حيـث شـهدت هـذه الفـترة حروبًـا كثـيرة ونزاعـات متجـدِّدة تحكَّمـت فيهـا العصبيات القبلية والعنصرية البغيضة، التي اتخذها ولاة الأنـدلس في ذلـك الحـين دَيْنًـا لهـم في تعاملهم؛ سواء مع العرب أو الأمازيغ (البربر)؛ مما أدَّى إلى ظهور ثورات متعدِّدة، ودخول أفكار جديدة لم تعهدها الأندلس من قبلُ.

بدايات تأجج العصبيات القبلية في الأندلس

معركة الأشراف وذلك سنة 123هـ=742م.

بعد وفاة عقبة بن الحجاج -رحمه اللـه- آلت ولاية الأندلس إلى عبد الملك بن قَطَـن الفِهْرِيّ مرَّة ثانية 123هـ=742م[2]، وقد حفلت ولايته الثانيـة هـذه بأحـداث جـسام، كـادت أن تعصف بالإسلام في الأندلس كلية، كـان أخطرهـا تجـدُّد الـصراع العنـصري البغـيض بـين العـرب والأمازيغ البربر، وظهور طائفة الخوارج، الذين أشعلوا أُوَار[3] الحرب وقـادوا الثـورة عـلى عـمال بني أمية، الذين أساءوا معاملة

(1) بيان ذلك في ثبت الولاة كما هو عند المقري: نفح الطيب 298/1-300، وذكر الولاة كما هو ترتيب ابن عذاري في البيان المغرب 22/2-38.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب 30/2، والمقري: نفح الطيب 236/1، وانظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص35، وفيه يقول: إن ولايته سنة 21#، وكذلك في البيان المغرب 53/1.

(3) الأوار: حر الشمس والنار والدخان واللهب. ابن منظور: لسان العرب، مادة أور 35/4، والمعجم الوسيط 32/1.

الأمازيغ (البربر)؛ مما شجع الأمازيغ (البربر) على اعتناق تلك أفكار الخوراج ؛ فقد وجدوا فيها أملا بنيل حقوقهم المغتصبة من جَوْر الولاة[1] .

وقد بدأت الفتنة الأمازيغية (البربرية) الكبرى في المغرب العربي على يد الخوارج، الذين التي أفكارهم قبولاً واسعًا في بين الامازيغ، الذي يعانوا من ظلم الولاة، فخرجوا بقيادة زعيمهم ميسرة المطغري -أو المدغري- على حاكم طَنْجَة عمر بن عبد الله المُرَادِيّ وقتلوه، وزحفوا إلى بلاد السوس في الغرب وقتلوا عاملها إسماعيل بن عبيد الله[2].

كان وقع الصدمة كبيرا على عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية، فجمع جموعه وجيَّش جيوشه؛ ليتدارك الأمر قبل فواته وتعاظم قوَّة الخارجين عليه، فالتقى الفريقان من العرب والأمازيغ البربر عند وادي شليف، وكانت الهزيمة المنكرة للعرب؛ فقد قُتِلَ فيها أشرافهم وفرسانهم وأبطالهم؛ لذلك سميت بمعركة الأشراف وذلك سنة 123هـ=742م[3].

وبلغت أخبار الهزيمة الخليفة هشام بن عبد الملك، فغضب غضبته الشهيرة؛ وقال: «والله! لأغضبنَّ لهم غضبة عربية، ولأبعثنَّ لهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندي»[4]. فعزل هشامُ بن عبد الملك عبيدَ الله بن الحبحاب، واستقدمه في جمادى الآخرة سنة 123هـ، وبعث كلثوم بن عياض القُشَيْرِيّ على رأس جيش بلغ ثلاثين

---

(1) انظر في تفاصيل ذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس ص170-173، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص79، 80.

(2) مجهول: أخبار مجموعة ص34، 35، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها 237/1، وابن عذاري: البيان المغرب 52/1.

(3) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها 237/1، وابن عذاري: البيان المغرب 53/1.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب 54/1.

ألفًا، وعَهِد لـه بولايـة إفريقيـة وضَـبْط أمورهـا، وجعـل معـه ابـن أخيـه بَلْـج بـن بـشر القُـشَيْرِيّ، وثعلبـة بـن سـلامة العَـامِلِي[1]، واسـتعدَّ الجيـشان العـربي بقيـادة كلثـوم بـن عيـاض والأمازيغي البربري بقيادة خالد بن حميد الزَّنَاتِيّ، واقتتلوا قتالاً شديدًا، لكن دارت الـدائرة عـلى العرب، وقُتِلَ قائدهم كلثوم بن عياض، واستطاع بَلْج بن بشر أن ينجو بنفسه وبعضًا من جنده، وتحصَّنوا بمدينة سَبْتَة، وفرض الأمازيغ البربر الحصار على بَلْج ومَنْ معه لمـدَّة سـنة كاملـة 123، 124هـ، وكـانوا طـوال هـذا العـام يـستغيثون بعبـد الملـك بـن قَطَـن والي الأنـدلس، ولكـن بـلا مجيب[2]!

ثم انتقلت عَدْوَى الخروج على الحكَّام إلى الأنـدلس، فلـم تلبـث الثـورة أن انتقلـت إلى أمازيغ بربر الأنـدلس، الـذين أعلنـوا العـصيان، وبـدءوا بجِلِّيقِيَّـة وأسـتورقة في الـشمال الغـربي للأندلس حيث الكثافة الأمازيغية البربرية، فقتلوا العرب وطردوهم من الـبلاد، إلاَّ مـا كـان مـن سَرَقُسْطَة فقد كانت الغلبة فيها للعرب[3].

وبعد أن ثَبَّت الأمازيغ البربـر أقـدامهم في تلـك المنـاطق، زحفـوا باتجـاه المـدن الكـبرى للسيطرة عليها من خلال ثلاثة جيـوش، وَفْـقَ خُطَّـة ذكيـة أدركـت مـواطن الـضعف في الولايـة الأندلسية، وعملت على استغلالها:

الأول: إلى طُلَيْطِلَة عاصمة الثغر الأدنى.

الثاني: إلى قُرْطُبَة عاصمة الأندلس.

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص36، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها 239/1، وابن عذاري: البيان المغرب 54/1، 55، 30/2، والمقري: نفح الطيب 20/3.

(2) مجهول: أخبار مجموعة 37-42، وابن عذاري: البيان المغرب 55/1، 56، 30/2، والمقري: نفح الطيب 20/3، 21.

(3) مجهول: أخبار مجموعة ص42.

الثالث: إلى الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب للبلاد.

وأمام هذا الزحف الأمازيغي البربري لم يجد عبد الملك بن قَطَن بُدًّا من الاستعانة ببَلْج وأصحابه المحاصرين في سَبْتَة، وقد كان لا يرضى أن يُغيثهم، ولا يرضى أن يُنزلهم الأندلس حتى أكلتهم المجاعة، فبعث إليهم بالسفن والمئونة، وسمح لهم بالعبور إلى الأندلس؛ لإخماد الثورة الأمازيغية البربرية، التي كادت أن تعصف به[1]، وكانت المواجهة الأولى بين بَلْج بن بشر والجيش الأمازيغي البربري الثالث المتجه ناحية الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، وقد وقعت المعركة في ذي القعدة من عام 113هـ على مقربة من شَذُونَة، وأثبت فيها الجنود الشاميون بقيادة بَلْج بن بشر شجاعة وإقدامًا، رجَّحت كِفَّة النصر فيها للعرب، وفي التوقيت نفسه كانت قُرْطُبَة تصدُّ هجمات الجيش الأمازيغي البربري الثاني، وبمجرَّد أن انتصر بَلْج بن بشر على الجيش الثالث لحق بقُرْطُبَة فقاتل مع عبد الملك بن قَطَن الجيشَ البربري الثاني، فهزماه هزيمة ساحقة، حتى لم يبقَ من الأمازيغ البربر إلاَّ الشريد، الذي لحق بالجيش الأول المحاصر لطُلَيْطِلَة، وهناك عند وادي سليط جرت معركة طاحنة سُحق فيها الجيش الأمازيغي البربري الأول، وسُحقت ثورتهم، وتشتَّت جمعهم، وتفرَّقوا في البلاد، ولم تقم لهم بعدها قائمة[2].

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص42، 43، وابن عذاري: البيان المغرب 30/2، 31.

(2) انظر تفصيل ذلك عند مجهول: أخبار مجموعة ص43، 44، وابن عذاري: البيان المغرب 31/2، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص174، 176، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص86، 87.

الفتنة بين القبسية واليمنية

وتفصيل ذلك أن عبد الملك بن قَطَن بعد أن أنهى ثورة الأمازيغ (البربر) في الأندلس، لم يطمئن على سلطانه ما دام بَلْج بن بشر وجنوده الشاميون- الذين ساعدوه في كسب المعركة- في الأندلس، وكانت هواجس ابن قَطَن في محلِّها، فعندما عرض على بَلْج الجلاء من الأندلس، طبقًا لما اتفقا عليه قبل دخول بَلْج الأندلس، رفض بَلْج بن بشر وجنوده الشاميون أن يعودوا مرَّة أخرى إلى المغرب بعدما أنقذوا الأندلس وابن قَطَن، وقال بَلْج بأنه ولي الأندلس بعهد من عمِّه كلثوم بن عياض، الذي ولاَّه الخليفة أمر المغرب، وأيَّده في هذا ثعلبة بن سلامة، وتنادوا بخلع ابن قطن وتولية بلج، فانحازت إليهم العرب اليمانية في الأندلس، وهجموا على ابن قَطَن -الذي كان قد قارب التسعين من العمر- في قصره بقُرْطُبَة، واعتقلوه ثم صلبوه، وذلك في ذي القعدة 123هـ= سبتمبر 741م[1].

كان لمقتل عبد الملك بن قَطَن ردٌّ فعل مؤلم ومؤثِّر، ألهب مشاعر الحقد والضغينة، وجدَّد الصراع بين القيسية واليمنية؛ فقد توجَّهت جموع المتحالفين مع قَطَن وأمية ابنا عبد الملك بن قَطَن نحو قُرْطُبَة، ودارت بينهم وبين الشاميين معركة ضارية عند أقوة برطورة في شوال (124هـ=742م)، قاتل فيها الشاميون قتالَ مَنْ يطلب الموت دون الحياة؛ فهي معركة مصيرية بالنسبة لهم، فهم إمَّا أن يكونوا بعدها

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص 45، وابن عذاري: البيان المغرب 31، 32، والمقري: نفح الطيب 19/3.

أو ألاَّ يكونوا؛ لذلك كان النصر حليفهم، وفيها أُصيب بَلْج بن بشر بسهم، تسبَّب في موته بعدئذٍ، واختار الشاميون بعده ثعلبة بن سلامة العَامِلِيّ أميرًا عليهم[1] .

في هذه الأثناء تجمَّعت جموع المتحالفين مرَّة أخرى ناحية قُرْطُبَة للقضاء على الشاميين، فخرج لهم ثعلبة بن سلامة وجنده إلاَّ أنه هُزم هزيمة منكرة، وانسحب إلى مَارِدَة وتحصن بها، وصادف ذلك عيد الأضحى (10 ذي الحجة 124هـ)، فأحكموا الحصار على الشاميين، واطمأنُّوا إلى النصر وغرَّهم ما هم فيه من القوة، وشعر ثعلبة بذلك؛ فأرسل إلى عامله على قُرْطُبَة يستنجده ويطلب منه المساعدة العسكرية، فوصلت المساعدة من قُرْطُبَة في صبيحة عيد الأضحى، واستغلَّ ثعلبة انشغال المحاصرين عنه باحتفالاتهم، فباغتهم بالهجوم، وكانت مقتلة عظيمة، دفع فيها المتحالفون عليه الثمن باهظًا، ولم يتورَّع الشاميون عن القتل، ولا عن استرقاق أسراهم من الرجال والنساء والأطفال، البالغ عددهم عشرة آلاف أو يزيد، وقد حملهم ثعلبة إلى قُرْطُبَة، وهو يُريد أن يقتلهم جميعًا[2]، إلاَّ أن حنظلة بن صفوان -والي إفريقية للخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك- بعث أبا الخطَّار حسام بن ضرار الكلبي لإنقاذ الموقف في الأندلس، بعد أن كادت العصبية القبلية تعصف به، وذلك في رجب سنة (125هـ=743م)، وقد رضي البلديون والشاميون به[3].

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص45-47، وابن عذاري: البيان المغرب 56/1، 32/2، والمقري: نفح الطيب 22/3.

(2) مجهول: أخبار مجموعة ص47، وابن عذاري: البيان المغرب 32/2، والمقري: نفح الطيب 237/1، 22/3.

(3) مجهول: أخبار مجموعة ص48، وابن عذاري: البيان المغرب 33/2، 34، والمقري: نفح الطيب 237/1، 22/3.

أبو الخطار حسام بن ضرار

وصل أبو الخطَّار على رأس الطالعة الثانية من الشاميين للأندلس بعد طالعة بَلْج بن بشر الأولى، فأظهر العدل والإنصاف، وأطلق سراح الأسرى والسبي، وتوحَّدت كلمة المسلمين في الأندلس، وأنزل أهل الشام في الكُوَرِ، ومن هنا عاد الاستقرار والهدوء النسبي إلى الأندلس حينًا[1]

.

ولكن يبدو أن داء العصبية والقبلية كان متجذِّرًا في النفوس آنذاك، فما هي إلاَّ أيام حتى غلبت النزعة القبلية على أبي الخطَّار وهو يمني متعصب، وظهرت عصبيته في حادثة يمني وقيسي إليه ، وكان القيسي أبلغ حُجة من اليمني، ولكن غلبت عليه عصبيته فحكم لليمني، فما كان للقيسي إلاَّ أنه ذهب إلى زعيم قومه القيسية وهو الصَّمِيل بن حاتم؛ ليطلب حقَّه المسلوب، فذهب الصَّمِيل إلى أبي الخطَّار، فأهان أبو الخطَّار الصَّمِيلَ، وضربه حتى اعوجَّت عمامته، فقال له بعض الحجَّاب وهو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبا الجَوْشَن. فقال: إن كان لي قوم فسيُقِيمُونها[2]. وكان ذلك إيذانًا باشتعال أُوَار الحرب مرَّة أخرى بين القيسية واليمنية.

الصميل بن حاتم

استطاع الصَّمِيل بن حاتم أن يجمع قومه، وأن يستقطب بعض الشخصيات اليمنية الساخطة على أبي الخطَّار من اللخميين والجُذَاميين، كان منهم ثَوَابَة بن

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص48، 49، والمقري: نفح الطيب 22/3، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص91، 92، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص189، 190.

(2) مجهول: أخبار مجموعة ص57، وابن عذاري: البيان المغرب 34/2، والمقري: نفح الطيب 23/3.

سلامة العَامِلِيّ الجُذَامي، الذي وعده الصَّمِيل بالولاية إن هو انتصر على أبي الخطَّار[1].

وعجل أبو الخطَّار إلى لقاء الصَّمِيل وقومه القيسية، وكان اللقاء عند وادي لكة في رجب 127هـ= إبريل 745م[2]، وقد تفرَّق جمع أبي الخطَّار بعد أن تقاعس الكلبيون عن قتال بني عمومتهم من اللخميين والجُذَاميين، ووجد أبو الخطَّار نفسه وحيدًا، فعزم على الفرار إلى قُرْطُبَة، ولكن الصَّمِيل قبض عليه وسجنه وخلعه، وولَّى مكانه ثَوَابَة بن سلامة الجُذَامي عام (128هـ=745م)[3] ، فاجتمع رجال اليمنية من أنصار أبي الخطَّار لنصرته، واستطاعوا التغلُّب على حُرَّاسه، وأخرجوه من سجنه بقُرْطُبَة، فأقام بين قبائل كلب وحمص، واعترفوا به واليًا شرعيًّا على الأندلس، وبدأ أبو الخطَّار يأخذ خطوات عملية نحو استعادة مُلكه الضائع، الذي سلبه منه القيسية بزعامة الصَّمِيل، وتوجَّه بجموعه إلى قُرْطُبَة ليأخذها، فخرج إليه ثَوَابَة بن سلامة، فتفرَّق الناس عن أبي الخطَّار، وانسحب بجيشه، ليُعِيدَ الكرة مرَّة أخرى[4].

ولم ينعم ثَوَابَة بن سلامة بمُلك الأندلس طويلاً؛ فقد وافاه الأجل بعد عام من ولايته في المحرم (129هـ=746م)، وبقيَت الأندلس أربعة أشهر بعده دون

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص58، وابن عذاري: البيان المغرب 35/2.

(2) مجهول: أخبار مجموعة ص58، وابن عذاري: البيان المغرب 35/2، والمقري: نفح الطيب 24/3.

(3) مجهول: أخبار مجموعة ص58، وابن عذاري: البيان المغرب 35/2، والمقري: نفح الطيب24،95/3، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص194، 195.

(4) مجهول: أخبار مجموعة ص58، 59، وابن عذاري: البيان المغرب 35/2، والمقري: نفح الطيب 24/3.

والٍ، مع أن الصَّمِيل يستطيع أن يُنَادي بنفسه واليًا، إلاَّ أنه لم يفعل، واكتفى برصد اللعبة السياسية وإدارتها من وراء الستار[1].

وقد تميزت هذه الفترة من عهد الولاة بكثرة المرشَّحين للولاية، ولكلٍّ منهم أتباعه، فهذا أبو الخطَّار الكلبي، وهذا يحيى بن حريث الجُذَامي، وهذا عمرو بن ثَوَابَة مدعيًا أنه أحق بالولاية بعد أبيه، وفوق ذلك كله كان عقل الصَّمِيل بن حاتم وتدبيره، وليس أدلَّ على ذلك قوله: «نُقَدِّم رجلاً يكون له الاسم ويكون لنا الحظُّ»[2] .

الصميل بن حاتم ويوسف الفهري

اشتد النزاع بين الأطراف المتنازعة على الولاية، وبدا كل منهم متمسكًا برأيه وأحقيته، محتميًا بقومه وعشيرته، وفي هذا الجوِّ المشحون بالعصبية، التي تُفضي إلى التقاتل والتناحر، توصَّل الصَّمِيل إلى حلٍّ يقضي بتقاسم السلطة بين القيسيين واليمنيين على شكل تعاقب سنوي في الحكم[3]، واقتنع الطرفان، وبقيت المشكلة في أول والٍ للأندلس، وقد بادر القيسية بقيادة الصَّمِيل إلى تقديم شخصيتهم الأولى؛ فاقترح الصَّمِيل أن يكون يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ هو أول الولاة، واستطاع الصَّمِيل أن يُرْضِيَ يحيى بن حريث؛ فأعطاه كورة ريَّة فرضي بها وقنع،ووقع الاتفاق بين القيسية واليمنية على يوسف الفِهْرِيّ في جمادى الأولى (229هـ=747م)،على أن

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص58، وابن عذاري: البيان المغرب 35/2، والمقري: نفح الطيب 25/3، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص97.

(2) مجهول: أخبار مجموعة ص58، وابن عذاري: البيان المغرب 35/2، والمقري: نفح الطيب 25/3.

(3) محمد سهيل طقوش تاريخ المسلمين في الأندلس ص98.

يجتمع القوم بعد عام ليختاروا الشخصية اليمنية التي ستلي الأمر بعد يوسف الفِهْرِيّ[1].

معركة شقندة

وما أن استقرَّ الأمر في الأندلس، حتى عزل الصَّمِيل يحيى بن حريث الجُذَامي عن كورة ريَّة، حتى لا تقوى شوكته مرَّة أخرى ويكثر أنصاره من اليمنية؛ فاشتدَّ غضب يحيى بن حريث لهذا القرار، وسارت رُوح العصبية مرَّة أخرى، ووضع يحيى بن حريث يده في يد أبي الخطَّار، فاجتمعت كلمة الجُذَامِيين والكلبيين وباقي اليمنية في الأندلس لمناصرة يحيى بن حريث، واجتمعت كلمة مضر وربيعة لمناصرة يوسف الفِهْرِيّ والصَّمِيل بن حاتم[2].

وزحف أبو الخطَّار ويحيى بن حريث ناحية قُرْطُبَة، وعسكر الجيش عند نهر قُرْطُبَة (الوادي الكبير) عند قرية شقندة، وعبر الصَّمِيل والفِهْرِيّ وجنودهما إليهما، ودارت معركة شقندة (130هـ=747م)[3]، وقد استمرَّ القتال سجالاً بين الفريقين، حتى استعان الصَّمِيل بعَوَامِّ السُّوقِ وغوغائها، فاشترك أربعمائة منهم في القتال، ليس لهم همٌّ إلاَّ القتل، فلـمَّا رأى اليمنيون ذلك دبَّ الرعب في قلوبهم، وخارت عزائمهم، وأثخن القيسية فيهم القتل، وكان منهم عمرو بن حريث وأبو الخطَّار الكلبي الذي قُتِلَ بعد أن وقع في الأسر، وأراد الصَّمِيل أن يشفي غليله وأحقاده من

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص58، وابن عذاري: البيان المغرب 35/2.

(2) مجهول: أخبار مجموعة ص59، وابن عذاري: البيان المغرب 36/2.

(3) مجهول: أخبار مجموعة ص60، وابن عذاري: البيان المغرب 36/2، والمقري: نفح الطيب 238/1، 25/3، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص99، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص197، 198.

اليمنية، فأمر بالأسرى أن يُقتلوا صبراً، فقُتِلَ منهم سبعون، ثم تَدَخَّل حليفه أبو العطاء الجُذَامي فأمره أن يكُفَّ عن المذبحة فكَفَّ[1]، وهكذا كُسرت شوكة اليمنية في الأندلس ودانت البلاد لأمر الفِهْرِيّ والصَّمِيل، لا ينازعهما فيها أحد.

ولاية يوسف الفهري الفعلية على الأندلس

ويبدو أن يوسف الفِهْرِيّ أردا الخلاص من تلك الوصاية الفعلية عليه من قِبَل الصَّمِيل، فأمر بتعيين الصَّمِيل عاملاً له على إقليم سَرَقُسْطَة في عام (132هـ=750م)، وقبِلَ الصَّمِيل.

ولكن لماذا وافق الصَّمِيل على عرض الفِهْرِيّ وقَبِلَ هذا الإبعاد المتعمَّد؟!

كانت بلاد الأندلس تمرُّ بفترة قحط ومجاعة عظيمة؛ نتيجة للحروب المتزايدة بين العرب اليمنية والقيسية، وبين العرب والبربر، ودامت هذه المجاعة خمس سنوات (131-136هـ=749-755م)، وقد سلم من هذه المجاعة إقليم سَرَقُسْطَة، فكان في حالٍ من الرغد والخير؛ لذلك قَبِل الصَّمِيل العرض، كما أن الصَّمِيل فطن إلى أن يوسف الفِهْرِيّ ما بعثه إلى سَرَقُسْطَة إلاَّ ليذل به اليمنية وهم أكثر أهلها، إلاَّ أن الصَّمِيل فتح خزائنه ولم يأتِه صديق ولا عدوٌّ إلاَّ أعطاه[2].

خلا الجوُّ للفِهْرِيِّ في قُرْطُبَة، فلم يَعُدِ الصَّمِيل وصيًّا عليه، ولكن يوسف الفِهْرِيّ كان ضعيف الشخصية ولم يكن له في أمور السياسة، فثار الناس عليه، وخرج عليه عامر بن عمرو العَبْدَرِيُّ، وهو يمني[3] خاف أن يفعل الصَّمِيل باليمنية

(1) مجهول: أخبار مجموعة ص60، 61، وابن عذاري: البيان المغرب 36/2، 37، والمقري: نفح الطيب 25/3، 26.

(2) مجهول: أخبار مجموعة ص62، وابن عذاري: البيان المغرب 37/2.

(3) مجهول: أخبار مجموعة ص63.

في سَرَقُسْطَة ما فعله بهم في شقندة وما بعدها،وكان باستطاعة يوسف الفِهْرِيِّ أن يقضي عليه في قُرْطُبَة إلاَّ أن جبنه وتردُّده حال دون ذلك؛ إذ رأى أن يأخذ برأي الصَّمِيل أولاً، فنصحه الصَّمِيل بقتله، وفطن عامر العَبْدَرِيُّ لمحاولة يوسف الفِهْرِيِّ قتله،فصرف عامر العَبْدَرِيُّ نظره عن قُرْطُبَة، وأراد أن يقوم بعمل يقضي به على شوكة الصَّمِيل ويوسف الفِهْرِيِّ، وبما أن الرجل كان يمنيًّا متعصبًا، فقد فكَّر في الالتجاء إلى اليمنية في سَرَقُسْطَة،والتحالف معهم على القضاء على القيسية، فكاتب زعيمًا من زعمائهم وهو الحباب الزهري، فاجتمعت كلمة اليمنية، وعزموا على حصار الصَّمِيل في سَرَقُسْطَة، وذلك في عام (136هـ=753م)[1].

فلما اشتدَّ الحصار على الصَّمِيل بعث إلى يوسف الفِهْرِيِّ يطلب نجدته وعونه، ولكن يوسف الفِهْرِيّ تباطأ في الردِّ عليه، ويبدو أن الفِهْرِيَّ كان سعيدًا مسرورًا؛ لأنه سيتخلَّص من وصاية الصَّمِيل الثقيلة عليه، إلاَّ أن أتباع الصَّمِيل من القيسيين جمعوا جموعهم لنصرة زعيمهم الصَّمِيل، وانضمَّ إليهم نفر من بني أمية ومواليهم -لغرض غامض سنكشفه بعد قليل- وكان على رأسهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد[2].

وانطلقت جموع القيسية ومعهم بنو أمية ومواليهم لنجدة الصَّمِيل، وما كادت تصل طلائعها حتى جزع المحاصِرون ورفعوا الحصار عن الصَّمِيل، وعلى الفور انطلق الصَّمِيل ناحية قُرْطُبَة، ثم هاجم عامر العَبْدَرِيُّ والزهري سَرَقُسْطَة

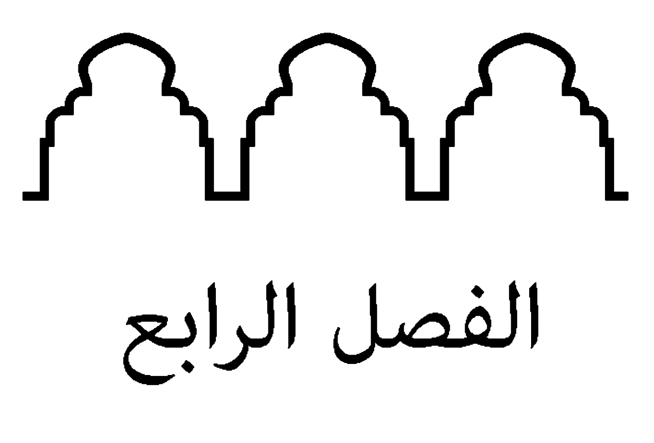
(1) مجهول: أخبار مجموعة ص63، 64، وابن عذاري: البيان المغرب 37/2، والمقري: نفح الطيب 238/1، وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص102، 103، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص201.

(2) مجهول: أخبار مجموعة ص65.

فاستوليا عليها، ثم أن الصَّمِيل ويوسف الفِهْرِيّ هاجما المدينة، ووقع العَبْدَرِيُّ والزهري في قبضة الصَّمِيل الذي أمر بقتلهما[1].

وهذه الفتنة آلت لقتال عنيف سفك فيه الكثير من الدماء، وضاعت المناطق الشمالية من الأندلس خلال هذا الصراع، وهذه الفتنة من أهم وأكبر أسباب سقوط دولة الإسلام في الأندلس، وستظل صراعًا مزمنًا وداءً عضالاً في جسد هذه الدولة، سيقتلها آخر المطاف.

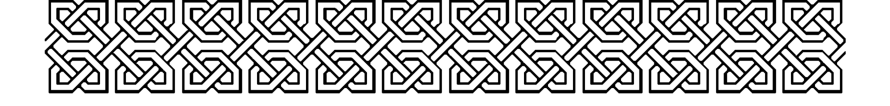
(1) مجهول: أخبار مجموعة ص65-67، وابن عذاري: البيان المغرب 37/2، والمقري: نفح الطيب 238/1، وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص102، 103، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص202، 203.



الفصل الرابع

سقوط غرناطة

آخر معقل للمسلمين



الفصل الرابع

سقوط غرناطة

آخر معقل للمسلمين

غرناطة قبيل السقوط

في دراسة للوضع في آخر ربع قرن من القرنين الأخيرين قبل السقوط النهائي لغرناطة خاصة وللدولة الإسلامية بصفة عامة في الأندلس، والذي كان يُعد (خلال المائتي عام) عهد خمول ودعة، وركون إلى معاهدات مخزية مع النصارى، تبدلت الأحوال (في الخمس والعشرين سنة الأخيرة من السقوط)، والتفت النصارى إلى غرناطة بعد أن كانوا قد شُغلوا عنها بحروبهم، الأمر الذي أدى في النهاية إلى سقوط الأندلس بالكلية.

مملكة غرناطة وممالك النصارى نحو الفرقة ونحو الوحدة

قبل السقوط بست وعشرين سنة تقريبا، وفي سنة 871 هـ= 1467م كان يحكم غرناطة في ذلك الوقت رجل يدعى محمد بن سعد بن إسماعيل بن الأحمر، والذي كان يلقب بالغالب بالله، وكان له أحد الإخوة واسمه أيضا محمد، ويعرف بأبي عبد الله محمد الملقب بالزغل (الزغل يعني الشجاع)، فكان الأول غالب بالله، وكان الثاني زغلا أو شجاعا.

وكما حدث في عهد ملوك الطوائف اختلف هذان الأخَوان على الحكـم، وبـدأ يتـصارعان على مملكة غرناطة الهزيلة الضعيفة والمحاطة في الشمال بمملكتي قشتالة وأراجون النصرانيتين.

وكالعادة أيضا استعان أبو عبد الـلـه محمد الزغل بملك قشتالة في حـرب أخيـه الغالـب بالله، وقامت على إثر ذلك حرب بينهما، إلا أنها قد انتهت بالصلح، لكنهما وللأسف قد اصـطلحا على تقسيم غرناطة البلد الضعيف جدا والمحاط بالنصارى إلى جـزء شـمالي عـلى رأسـه الغالـب بالله وهي الولاية الرئيسة، وجزء جنوبي وهي ملقة، وعلى رأسها أبـو عبـد الـلــه محمـد الزغـل، وبعد هذا التقسيم بثلاثة أعوام، وفي سنة 874هـ= 1469 م حدث أمر غاية في الخطورة في بـلاد الأندلس، فقد تزوج فرناندو الثالث ملك أراجون من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة؛ وبـذلك تكـون الدولتان قد اصطلحتا معا وأنهتا صراعا كان قد طال أمده، وبعد خمس سنوات من هذا الـزواج كانت المملكتان قد توحدتا معا في مملكة واحدة هـي مملكـة أسـبانيا،وكان ذلـك في سـنة 879 هـ= 1474 م وكانت هذه بداية النهاية لغرناطة.

غرناطة وصراع أُسَري في ولاية الغالب بالله

على الجانب الآخر كانت غرناطة في ذلك الوقت وفي سنة 879 هــ=1474م منقـسمة إلى شطرين، شطر مع الزغل والآخر مع الغالب بالله، ومن ناحيـة أخـرى فكـان الـشعب يعـيش حالة من الترف والخمول والدعة، وقد انتشرت الخمـور والغنـاء بـصورة لافتـة في هـذه الآونـة، وفوق ذلك أيضا كان هناك الأشدّ والأشنع.

كان الغالب بالله الذي يحكم غرناطة متزوجا من امـرأة تُـدعى عائـشة، وقـد عرفـت في التاريخ بعائشة الحرة، وكانت له جارية نصرانية تُسمى ثريّا قد فُتن بها

وغرق في عشقها،وكانت قد أنجبت له ولدا اسمه يحيى، وقد أثرت عليه حتى تجعل يحيى هذا وريث عرش غرناطة من بعده.

بينما كان المؤهل للحكم دستوريا هو ابن عائشة الحرة، والذي يدعى محمد أبو عبد الله محمد، وللتفرقة بين اسم العم واسم ابن الأخ، سمّوا الأخير بالصغير، حيث هو أصغر من عمه،وقد كان وسبحان الله اسما على مسمى، فكان بالفعل صغيرا في سنه وصغيرا في مقامه.

وحتى يضمن ولاية العهد لابنه يحيى الذي هو من الجارية النصرانية، قام الغالب بالله بحبس ابنه الآخر أبي عبد الله محمد الصغير هو وأمه عائشة في قصر كبير، وقيد حركتهما تماما، ولأن هناك أناس كثيرون من الشعب كانوا يأبون أن يحكمهم رجل أمه جارية نصرانية.

وقد قام بعض من يرى احقية محمد الصغير في الحكم بعد أبيه، بالعمل على تحرير عائشة الحرة وابنها ابي عبد الله واستطاعوا تخليصهما، وبعد فكاكه من السجن قام أبو عبد الله محمد الصغير بانقلاب على ابيه في غرناطة و تولى الحكم وقام بطرد أبيه إلى الجنوب حيث أخيه الزغل (أخو الغالب بالله) في ملقة، وهكذا آلت البلاد إلى قسمين، قسم عليه الصغير في غرناطة، وقسم عليه الزغل في مالقة،ومعه وتحت حمايته أخوه الغالب بالله.

فرناندو الثالث واستغلال النزاع والفرقة

حيال هذا الوضع الذي آل إليه حال المسلمين في قرطبة،استغل فرناندو الثالث هذا الموقف جيدا لصالحه، وبدأ يهاجم حصون غرناطة؛ حيث كان يعلم أن هناك خلافا وشقاقا كبيرا داخل البلد، وعلى غير عادة الغالب بالله الذي كان بينه

وبـين ملـك أسـبانيا معاهـدات، قامـت الحـروب بـين الـصغير وبـين ملـك أسـبانيا،لكنه (الصغير)لم يكن له طاقة بحرب ملك أسبانيا، فأُسر من قِبل الأخير وصار في يده.

وبعد أسْر الصغير استطاع الزغـل أن يـضم غرناطـة إلى أملاكـه، فأصـبحت غرناطـة مـن جديد إمارة واحدة تحت حكم الزغل.

وبعد ذلك بعام واحد الغالب بالله مات هما وكمـدا، وذلـك مـن جـراء الـذي حـدث في البلاد، ولقد كان هذا هو ما جنته عليه نفسه وما اقترفته يداه، وما جناه عليه أحد.

وفي محاولة لفك أسر الصغير عرض الزغل عـلى ملـك أسـبانيا أمـوالا كثـيرة، ولأنـه(ملـك أسبانيا) كان يفكر في أمر غاية في الخطورة فقد رفض طلبه،واتفق مع الصغير(الذي هو في الأسر، وكان يبلغ من العمر آنذاك خمسة وعشرين عاما على أن يُمكّنه من حكـم بـلاد غرناطـة مقابـل الولاء للعرش القشتالي.

الصغير وملك أسبانيا وخطة السراب الخادع

أشار ملك أسبانيا على الصغير بأن يدخل البلاد من جهة الشمال (شـمال غرناطـة)، أمـا هو (ملك أسبانيا) فسيأخذ جيشه ويحاصر ملقة من الجنوب، وبذلك تنحصر غرناطـة بـين فـكي الكمّاشة.

وكان الهدف من وراء ذلك كما أراد ملك أسبانيا أنه حينما يقـوم الزغـل بـصد ومحاربـة ملك أسبانيا في ملقة في الجنوب، هو أن يدخل الصغير غرناطـة في غيـاب الزغـل عنهـا ويـسيطر تماما عليها، ثم بعد أن يأخذ ملك أسبانيا ملقة فيعطيها بعد ذلـك للـصغير، ليـصبح هـو حـاكما على غرناطة باسم ملك أسبانيا.

وافق الصغير على هذه الخطة، فثار في شمال غرناطة، واتجه فرناندو الثالث بجيوشه إلى ملقة، وعلى الفور توجه الزغل إلى ملقه لحرب النصارى هناك، لكنه لم يستطع أن يصمد، واستطاع النصارى أن يأخذوا ملقة منه، وهنا عاد سريعا إلى غرناطة فوجدها وقد صارت في يد ابن الأحمر الصغير.

انطلق الزغل إلى شرق غرناطة حيث منطقة تسمى وادي آش، واستقل بها وأقام فيها جزءا من مملكة، وبذلك تقلصت غرناطة في انقساماتها المتكررة إلى نصفين، والنصف بدوره إلى نصفين، فكان الوضع هو جزء في شرق غرناطة هو وادي آش وعلى رأسه الزغل، ثم جزء آخر في غرناطة على رأسه الصغير، وجزء أخير هو ملقة وقد أصبحت في يد ملك أسبانيا، ومن المفترض أن يعيدها إلى ابن الأحمر الصغير.

طلب ابن الأحمر الصغير من ملك أسبانيا أن يعيد إليه ملقة كما كان العهد والاتفاق، إلا أن ملك أسبانيا أجابه بأنه إن هو سحب جيشه منها (من ملقة) فسيطمع الزغل فيها ويأخذها منه(من الصغير)، فالحل إذن هو أن أُبقي جيوشي فيها لحمايتك... ولكن لم تمض بضعة شهور على هذا الكلام حتى استرقّ ملك أسبانيا أهل ملقة جميعا (أخذهم رقيقا، وكانوا مسلمين)، ولم يرع المعاهدة التي تمت بينه وبين الصغير، وإن هذا وأيم الله لديدنهم وطبيعتهم "لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ " " [التوبة:10].

ملك أسبانيا والتداعي على باقي القصعة

كان على الساحة الآن "الصغير" ومعه ولاية غرناطة، والزغل ومعه وادي آش، ثم ملك أسبانيا وتحت قبضته ملقة، واستكمالا لآمال كان قد عقدها قديما، وفي

سنة 895 هـ= 1490 م انطلق ملك أسبانيا من ملقة إلى ألمرية على ساحل البحر المتوسط فاحتلها، ثم منها توجه إلى وادي آش (التي هي في يد الزغل) فاستولى عليها، وهرب الزغل منها إلى تونس، وقد ترك البلاد بما فيها من المسلمين، تماما كما هو حال ملوك هذا الزمان.

وأصبح الوضع الآن أن حوصرت مدينة غرناطة وكل قراها ومزارعها من كل مكان بجيوش النصارى، إذ أحاطوها من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ومن الجنوب، وكان كما قال رسول الله ﷺ: "تُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، قَالُوا: أَوَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ (ما يحمله السيل من وسخ) كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِكُمْ، وَلَيُلْقِيَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، قَالُو: وَمَا الْوَهْنُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةِ الْمَوْتِ.

فقد تداعت ملوك النصارى حول مملكة غرناطة الصغيرة والضعيفة جدا في ذلك الوقت، وقد حاصروها وأحرقوا القرى والمزارع حول حصونها، وطلبوا من الصغير أن يسلمهم مفاتيح المدينة،وكان ذلك في سنة سنة 895 هـ=1490 م وقبل السقوط النهائي بعامين.

حينها فقط شعر الصغير أن ما حدث من ملك أسبانيا هو خلاف ما كان يعتقده؛ فقد كان يعتقد أن بينه وبين النصارى ولاء، وبينه وبين ملك أسبانيا تحالفات وعهود، لكن الذي حدث هو أنهم لم يتركوه على كرسيّه كما وعدوه، بل طالبوه بالرحيل عن غرناطة ليتولوا هم أمرها، وذلك بعد إعطائه مهلة للتفكير في ذلك.

وفكر محمد بن الأحمر الصغير كثيراً، إلا أنه لم يجد حلا سوى أن يحاربهم، وهـذا مـا لا يريده ولا يقدر أن يتحمله، ولكنه اقتنع وبعد تفكير وجدال طويـل مـع وزرائـه بأنـه يجـب أن يدافع عن غرناطة.

وكما ذكرنا فيما سبق فلم يبقَ في الأندلس بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب مـن المدن الإسلامية سوى ولاية غرناطة وولاية إشبيلية، وذكرنا كيف تحالف حاكم غرناطة مع ملـك قشتالة، ضد الإسلام والمسلمين من خـلال المعاهـدة الخيانيـة التـي عقـدها مـع فرنانـدو ملـك قشتالة وقلنا بأنه كان من نصوص تلك المعاهدة أن يحارب ملك غرناطـة مـع ملـك قـشتالة أيًّـا كانت الدولة التي سيحاربها، وتحدثنا عن تنفيذه لذلك الشرط الاجرامي بحق الإسلام والمسلمين حين وصل الأمر إلى مساعدة ملك قشتالة في حصار إشبيلية، لتسقط هذه المدينة الإسلامية سـنة 646هـ- 1248م..... وكان سقوطها بالنسبة لغرناطة كحكاية أُكلت يوم أكل الثور الأبيض.... فقد كان سقوط غرناطة هو الخطوة الأولى لسقوط غرناطة كما سنرى من خلال الكلام القادم .

سقوط مدينة غرناطة

منذ أن استعاد الأندلسيون سنة 733هـ بمـساعدة بنـي مـرين- حكـام المغـرب - جبـل طارق الذي ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاما - إذ سقط في أيدي النصارى سـنة 709هـ ،توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى .

معركة طريف:

وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارى يحدق بهم هرعوا إلى الاستنجاد بإخوانهم في الدين في العدوة المغربية من بني مرين،وكان هؤلاء يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس "وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته 733-755هـ) " ..كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينيين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس،فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلنا الجهاد،واجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى. لكن النصارى من قشتالة وأراجون والبرتغال كونوا أسطولا بحريا متحدا ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين ، وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك ، وهزم جيشه هزيمة منكرة، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة.

تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة، فأخرج الطاغية الفونسو أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوّهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف ، وطعنا بالرماح ، وألقوا أشلاءهم في اليم ، وقتلوا قائدهم ، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة .

ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه ، استأنف إجازة العساكر فانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس، وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهّز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة 741هـ وإلى أوائل شهر جمادي الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم[1].

وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي:

(ولما قرب معسكرهم سرّب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولبّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان مواكب المسلمين صفوفاً وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولمّا نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم ثم دافعهم النساء عن

(1) ابن جزي ومنهجه في التفسير (73/1).

أنفسهن فقتلوهنّ، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحسّ المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولّى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم [1].

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب[2].

ويرى الأستاذ نجيب زبيب اللبناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارى ويرى أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى: (فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب.وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة، ينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية، حتى أنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين.

وكثيراً ماحث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرينيين للايقاع بالجيوش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة[3].

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مدّ وجز، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسالمة والتحالف جنباً مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين

(1) انظر: العبر لابن خلدون (261/7-262) نقلاً عن ابن جزي (74/1).
(2) انظر: نهاية الأندلس ص128.
(3) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، الاستاذ نجيب زبيب (81/3).

ضد قشتالة، أو أراجون حيناً آخر ثم مالبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحقتها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عوناً في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارى وكان زمن سقوط دولة بني مرين 869هـ[1].

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء حيث أن ملك غرناطة أصبح أسيراً لحب امرأة رومية نصرانية تدعى "ثريا" وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتيه الحسناء وكانت كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى وليَّاً للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد، وتمكنت ثريا من اقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها حتى اقنعته باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زُجَّت عائشة الحرة مع ولديها، وشدَّد الحجر عليهم، وعُوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين.

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ.

وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكنَّت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادي الثانية سنة 887هـ /1482م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

---

(1) ابن جزي /ومنهجه في التفسير (74/1).

وقرر فرديناند وازبيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم لهم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها وأن يردّا معاً الإسبان في جمادى الأولى 887هـ/ تموز "يوليه" 1482م.

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الشرعية (عائشة الحرة واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيَّره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة 887هـ، وعمره 25 سنة وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة 888هـ نيسان "ابريل" سنة 1483 إلا أنه وقع أسيراً في يد النصارى في إحدى المعارك.... واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبد الله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل، ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسره واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبد الله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

ولما تولى أبو عبد الله الزغل عرش غرناطة، استطاع أن يتصدى بكل جرأة وشجاعة وبطولة لهجمات النصارى ،إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدام أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة.

وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبد اللـه الصغير، بعد أن وقعه على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد اللـه الصغير، وأخذ يبث أبو عبد اللـه الصغير دعوته في شرق الأندلس،والحرب الأهلية قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادي الأولى 891هـ/ أيار مايو 1486م، وكان موقف أبي عبد اللـه الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً.فهو مازال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى. وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له. وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند.

ودعم فرديناند أبا عبد اللـه الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرّة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبد اللـه الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جمادى الثانية 892هـ/حزيران يونيه 1487م، وخاف الزغل أن يسير إلى انجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبد اللـه الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان 892هـ/ آب أغسطس 1478م ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين.

كانت مصر في تلك الفترة لا تستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوصان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن

النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتستحل حرمتهم، وتغزا أراضيهم في الأندلس وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغيِّر خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل.

استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغيِّر خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: "أنهما - فرديناند وزوجه إيزابيلا – لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية"[1].

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم، ولم ينفذ السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً، لأن الإسلام لا يجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام 895هـ/1890م واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية وأهمها:

1- أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.

2- تخفف عنهم أعباء الضرائب.

3- ألا يولى عليهم يهودي.

4- ألا يدخل نصراني في "الجماعة الإسلامية".

---

(1) نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين ص369.

5- وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط....

إلا إن النصارى لم يلتزموا- كعادتهم- بشروطهم بل سبوا النساء واسترقوا الرجال واغتصبوا الأموال.

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة،وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي.

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبد اللـه الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبد اللـه الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى.

في سنة 895هـ/1590م، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه إيزابيلا - وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد اللـه الصغير، فثارت نفس أبي عبد اللـه الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين 50-80 ألفاً، مع مدافع وعُدَد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في 12 جماد الثانية سنة 896هـ/سنة 1491م، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لا تمد غرناطة بأي طعام، وحاصر غرناطة التي أصبحت محاطة بالعدو من كل

جهاتها....وقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وافسدوا عليه خططه وتدابيره.

دور الشعب وانتفاضة إسلامية قوية

كان المتوقع والطبيعي بعد أن أعلن الصغير الدفاع عن غرناطة هو أنه لن تكون له قدرة ولا طاقة هو ومن معه من جيشه ووزرائه وهيئته الحاكمة على الحرب أو الدفاع، فقامت في غرناطة في ذلك الوقت انتفاضة إسلامية قوية، وعلى رأسها رجل يُسمى موسى بن أبي غسّان، فكان أن حرّك الجهاد في قلوب الناس، وبدأ يحمسهم على الموت في سبيل الله وعلى الدفاع عن بلدهم وهويتهم، فاستجاب له الشعب وتحرك للدفاع عن غرناطة.

وطيلة سبعة أشهر كاملة ظل أصحاب الانتفاضة في دفاعهم عن حصون غرناطة ضد الهجمات النصرانية الشرسة، وفي ذات الوقت كان محمد بن الأحمر الصغير ينظر إلى الأمور ويستطلعها من بعيد حال الواقف المتفرج، ولم يستطع أن يفعل شيئا، يريد ويتمنى أن يجد حلا أو مخرجا يستر به ماء وجهه لكنه لا يجد....وبعد سبعة أشهر يجد الصغير بريق أمل كان قد تمنى مثله، حيث أرسل فرناندو الثالث وإيزابيلا رسالة إليه يطلبان فيها أن يسلم غرناطة لهما على أن يضمنوا له ولقومه ولجيشه الأمان، وفي مقابل أكثر من سبعين شرطا يضمن له فيها البقاء.

وكان من بين هذه الضمانات وتلك الشروط أن تُترك المساجد، ولا تُدخل الديار، ويُطلق الأسرى، وتُؤمّن الأعراض والأموال، ويوضع عبد الله بن الصغير كأحد الوزراء المعاونين لملك أسبانيا.

الصغير وكبح الانتفاضة

لكن موسى بن أبي غسّان الرجل الذي قاد الانتفاضة في بلاد غرناطة كان قد فهم مغزى الرسالة السابقة، وعلم أنها محاولة لوقف الانتفاضة، ووقف الدفاع عن البلاد، ووقف الحميّة للجهاد، ووقف حميّة الناس للموت في سبيل الله، لكن محمد الصغير لم يفهم هذا المغزى، فوافق على هذه الشروط، وذلك بعد أن وجد فيها حلا مناسبا للخروج من المأزق الذي هو فيه؛ إذ كان يرفض الجهاد، ويرفض الحرب، ويريد أن يبقى حيا حتى وإن ظل ذليلا...ومن هنا وافق الصغير على هذه المعاهدة، إلا أنه وخوفا من النكث النصراني المعهود، وحرصا على حياة أبدية وسرمدية، ونجاة بنفسه من نهاية لا يحمد عقباها، اشترط لنفسه شرطين هما:

أولا: أن يقوم فرناندو وإيزابيلا بالقسم على هذه العهود، فاستُجيب له، وأقسم الملكان له.

ثانيا: أن تحكم في هذه المعاهدة هيئة معينة، تضمن تطبيقها بالصورة السليمة، وبعد أن نظر في دول العالم لم يجد من يحترم ملك أسبانيا رأيه إلا البابا في إيطاليا، فألزم أن يوقّع البابا على هذه المعاهدة، ولا ضير، فوقّع البابا عليها.

وبعدها اتجه الصغير ليسلم مفاتيح مدينة غرناطة، ويوقف حركة الجهاد في البلد في مقابل أن يعطوه الأمان كما ذكروا، وذلك بعد أن وقّع له بابا روما، وأقسم على هذه العهود فرناندو وإيزابيلا.

موسى بن أبي غسّان وعملية استشهاديّة

وفي رد فعل طبيعي وصريح له حيال ما حدث وقف موسى بن أبي غسّان رحمه الله في قصر الحمراء ثم خطب خطبة مهيبة قال فيها: "لا تخدعوا أنفسكم ولا

تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة مَلِكِهم؛ إن الموت أقل ما نخشى (يريد أن هناك ما هو أصعب من الموت)؛ فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش والتعصب الوحشي، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق، أما أنا فو الله لن أراه".

يريد موسى بن أبي غسّان أنه لن يرى كل هذا الذُلّ الذي سيحل بالبلاد جراء هذا التخاذل والتقاعس، أما أنا فسأموت الموت الشريف.

ثم غادر المجلس وذهب إلى بيته ولبس سلاحه وامتطى جواده، وانطلق يقابل سريّة من سرايا النصارى.

وبمفرده يقابل موسى بن أبي غسّان خمس عشرة رجلا من النصارى، فيقتل معظمهم ثم يُقتل هو في سبيل الله رحمه الله.

انتهاء عصر الدولة الإسلامية في الأندلس

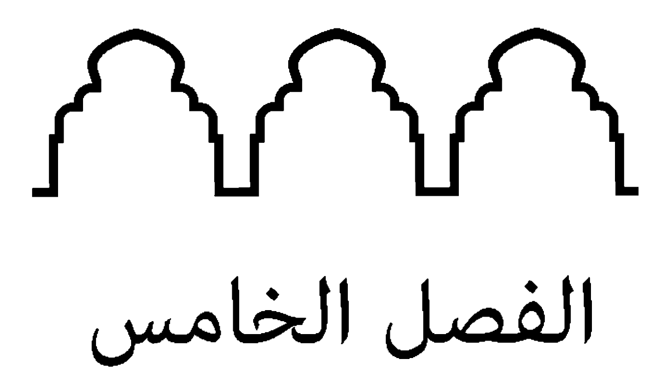
كان مقتل موسى بن أبي غسّان وتسليم ابن الأحمر الصغير غرناطة إيذانا بانتهاء عصر الدولة الإسلامية في مملكة غرناطة.وأعطى أبو عبد الله محمد الصغير الموافقة بالتسليم للملكين فرناندو الثالث وإيزابيلا، ولم ينس أن يرسل إليهما بعضا من الهدايا الخاصة، وفي خيلاء يدخل الملكان قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان، وفي أول عمل رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى، ويُعلن من فوق هذا البرج أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس.

وفي نكسة كبيرة وفي ظل الذل والصغار خرج أبو عبد اللـه بن محمد بن الأحمر الصغير من القصر الملكي، وسار بعيدا في اتجاه المغرب، حتى وصل إلى ربوة عالية تُطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه وإلى ذاك المجد الذي قد ولّى، وبحزن وأسى قد تبدّى عليه لم يستطع فيه الصغير أن يتمالك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته، حتى قالت له أمه "عائشة الحرة": نعم ، فلتبك كالنساء مُلْكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.

وإلى هذه اللحظة ما زال هذا التل الذي وقف عليه أبو عبد اللـه بن محمد الصغير ما زال موجودًا في أسبانيا، وما زال الناس يذهبون إليه، يتأملون موضع هذا المَلِك الذي أضاع مُلكا عظيما كان قد أسسه الأجداد، ويعرف (هذا التل) بزفرة العربي الأخيرة، وهو بكاء أبي عبد اللـه محمد الصغير حين ترك ملكه.

وقد تم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول، لسنة 897 هـ= 2 من يناير سنة 1492 م.

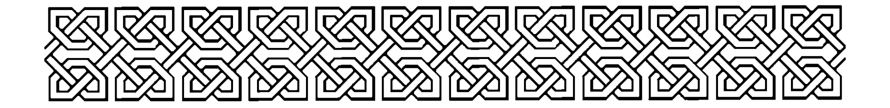
وقد هاجر بعدها أبو عبد اللـه بن محمد الصغير إلى بلاد المغرب، وهناك اعتقله ملكها بتهمة الخيانة لبلاد المسلمين، ثم وضعه في سجنه، وكما يقول المؤرخون فقد شوهد أولاده (أولاد أبي عبد اللـه بن محمد الصغير) بعد ذلك بسنوات وسنوات يشحذون في شوارع المغرب...فلعنة اللـه على هذا الذُلّ، ولعنة اللـه على هذا التَرْك للجهاد اللذَيْن يوصلان إلى هذا المثوى وتلك المنزلة.



الفصل الخامس

موقف ملوك وأمراء المسلمين

من غرناطة



الفصل الخامس

موقف ملوك وأمراء المسلمين من غرناطة

لقد تعوّدت بلاد الأندلس استيراد النصر من خارجه كانت هذه مقولة ملموسة طيلة العهود السابقة لبلاد الأندلس، فلقد ظلت لأكثر من مائتي عام تستورد النصر من خارج أراضيها، فمرة من المرابطين، وأخرى من الموحدين، وثالثة كانت من بني مارين وهكذا، فلا تكاد تقوم للمسلمين قائمة في بلاد الأندلس إلا على أكتاف غيرهم من بلاد المغرب العربي وما حولها.

ومن الطبيعي ألا يستقيم الأمر لتلك البلاد التي تقوم على أكتاف غيرها أبدا، وأبدا لا تستكمل النصر، وأبدا لا تستحق الحياة، لا يستقيم أبدا أن تنفق الأموال الضخمة في بناء القصور في غرناطة مثل قصر الحمراء الذي يعد من أعظم قصور الأندلس ليحكم منها ابن الأحمر أو غيره وهو في هذه المحاصرة من جيوش النصارى، ثم يأتي غيره ومن خارج الأندلس ليدافع عن هذه البلاد وتلك القصور.

ولا يستقيم أبدا لابن الأحمر أن يُنشئ الجنان الكثيرة (أكثر من ثلاثمائة حديقة ضخمة في غرناطة،وكان يطلق على كل حديقة منها اسم (جنّة) لسعتها وكثرة الثمار والأشجار فيها)وينفق كل هذا الإنفاق والبلاد في حالة حرب مع النصارى، ثم حين يأتي وقت الجهاد يذهب ويستعين بالمجاهدين من البلاد المجاورة.

1- موقف سلاطين بني مرين

كان مسلمو الأندلس كلما اشتد بهم الأمر استنجدوا بملوك المغـرب، لا سـيما ملـوك بنـي مرين الذين ساروا على نهج المرابطين، والموحدين الذين كانوا ينهضون للتدخل لحماية الأندلس كلما ضاق الأمر بأهلها.

فالسلطان المريني أبو يوسف المنـصور (815 هــ/1286م) مـثلا، عـبر إلى الأنـدلس أربـع مرات لإغاثة أهلها. ووصلت جيوشه إلى طليطلة، وقرطبة. بل إلى مدريد وهي قريبـة مـن آخـر معقل وصل إليه الإسلام في الأندلس. فساهم بذلك في إنقاذ غرناطـة مـن الانهيـار الـسريع أمـام ضربات ملوك قشتالة وأرغون.

ومن أشهر الأمثلة على دور يني مرين في الوقوف إلى جانب الأندلـسيين بـل عـلى تـأخير سقوط الأندلس لمدة زادت عن القرنين والنصف .. معركة الدونونية.

معركة الدونونية

مقدمة المعركة الدونونية نسبة إلى الدون نونيو دي لارا قائد جيش قشتالة

المكان : قرب مدينة قرطبة

الزمان : 674 هجرية الموافق 1276 ميلادية

اطراف المعركة :

1- المغرب (الدولة المرينية)

2- اسبانيا (مملكة قشتالة)

3- بني الأحمر (إمارة غرناطة)

النتائج :

انتصار كاسح للمسلمين بقيادة السلطان يعقوب المنصور المريني

في الوقت الذي لم تبق فيه في الأندلس سوى امارة غرناطة والقرى الصغيرة التي حولها والتي كانت تحت حكم ابن الاحمر، كان ملك مملكة قشتالة يخطط لاجتياح هذه ذلك الجزء المتبقي من مملكة اسلامية منهارة ويصبو إلى انهاء الوجود الإسلامي في الأندلس ككل لكن كانت هناك امور تمنعه مثل موقع امارة غرناطة وقلاعها الحصينة والتي كانت تقع في الجنوب الاسباني حاليا، وكانت فيها كثافة سكانية إسلامية كبيرة.

الأسباب

كان ابن الأحمر - وهو محمد الفقيه ابن الأحمر- حاكم إمارة غرناطة يحكم هذه غرناطة بناءا على معاهدة مع ملوك قشتالة ابتداء من فردناندو الثالث ووصولا إلى غاية الفونسو العاشر ... وتضمن هذه المعاهدة على أن يحكم ابن الأحمر غرناطة باسم مملكة قشتالة أو بالأحرى كتابع لها ...ولهذا السبب فان الأحمر بني إمارته على إتباع معاهدة الخنوع لنصارى رغم عنه في مقابل أن يضل حاكما وان لا تهاجمه مملكة قشتالة.

ابتداءً من سنة 643 هجرية بدأت بوادر نقض المعاهدة من الأسبان وبدؤوا يحتلون بعض الأجزاء حول غرناطة وبن الأحمر يهادنهم حتى سنة 671 حيث قام ملك قشتالة بإعلان النية المبيتة بشكل واضح وبدأ في الحشد لمهاجمة غرناطة والقضاء على الوجود الإسلامي فيها تماما ليعلن البدء في ذلك سنة 674 هـ.

في هذا الوقت وجد ابن الأحمر نفسه أمام الخطر المحدق به وبوجود إمارته فلـم يجـد من يستعين به سوى مملكة المرينيين وسلطانها يعقوب المنصور المريني.

الدولة المرينية في المغرب وسلطانها (النصرة والمساعدة لإخوانهم في الدين)

كانت المملكة المغربية في ذلك الوقت خاضعة لدولة المرينيـة التـي قامـت عـلى أنقـاض الدولة الموحدية وكان يحكمها آنذاك ومؤسسها وأول سلاطينها ،السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وكان معروفا بالزهد والورع والتدين والعلـم والرأفـة والتواضـع ، وفي نفـس الوقت كان معروفا بالذكاء في الحرب والشدة فيها والقوة والصلابة والحنكة في قيادة المعارك.

ولهذا فعندما استنجد به ابن الأحمر وطلب منه النصرة والدعم والتحرك حمية للإسلام وللمسلمين لم يتردد أبو يوسف يعقـوب المنـصور إلا أن اسـتجاب وحـشد الجـيش ونـشر نـداء الجهاد في كافة ربوع المملكة استعدادا للعبور لملاقاة الفونسو العاشر وجيشه.

اللقاء والحسم

عبر السلطان يعقوب المنصور مضيق جبل طارق ونزل بولايـة مالقـا حاليـا احـد ولايـات إمارة غرناطة سابقا وكان معه 5 آلاف مقاتل وانضم إليه 5 آلاف مقاتل من الغرناطيين وانطلـق بهم حتى موقع قريب من مدينة قرطبة ليجد أمامه جـيش الفونـسو العـاشر وقوامـه 90 ألـف مقاتل ويقود الدون نونيو دي لارا.

وهنا برزت فصاحة السلطان وحسن قيادته فألقى خطبة رهيبة حفزت والنفوس وصاح يقول"ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها وجِدُّوا في طلبها، وابذلوا النفوس في أثمانها، ألا وإنّ الجنّة

تحت ظلال السيوف "إِنَّ اللـهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللـهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللـهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "[التوبة: 111].

فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة؛ فمن مات منكم مات شهيدا، ومن عاش رجع إلى أهله سالما غانما مأجورا حميدا، "اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللـهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [آل عمران: 200].

هنا اشتدت عزيمة الجيش المسلم ووثبوا على جيش قشتالة واعملوا فيه القتل وشتتوا صفوفه واتى النصر من عند اللـه وقد أوقع المسلمون في جيش النصارى 8 آلاف قتيل واسروا 10 آلاف أسير وتشتت الباقون فارين وقتل قائدهم الدون نونيو دي لارا.

النتائج والفتوحات بعد المعركة

انكسرت شوكة النصارى وشوكة الفونسو العاشر بعد هده الهزيمة واسترد المسلمون جيان و حرر المنصور اشبيلية وعاهد أهلها على الجزية.

الخيانة من ابن الأحمر وانتصار المنصور من جديد

كانت ولاية الميرية يحكمها والي توفي بعد معركة الدونونية وتولى بعده ابنه الذي كان معجبا كثيرة بالمنصور وبالتالي قام الابن بعرض تلك الولاية على المنصور ليحكمها فما كان من المنصور إلا أن أرسل إليها 3000 ألف مقاتل ممن كانوا معه لكي يكونوا فيها ويبقوا عونا للمسلمين في الأندلس.

هنا ظهرت خساسة ابن الأحمر وظن أن يعقوب المنصور سيقوم بضم غرناطة إليه وتوجس من حكاية ابن عباد مع المرابطين ،فقام باللجوء بكل دناءة إلى أعداء الأمس الذي استعان بالمنصور عليهم.

فقام ملك قشتالة بمحاصرة مدينة طريف غرب ولاية الميرية هو وابن الأحمر معه ولكن المنصور رجع إليهم من جديد بجيش كبير وهزمهم وفر الفونسو ووقع ابن الأحمر في الأسر وبدأ في الندم والاعتذار وبالرغم من غدره قبل المنصور اعتذاره وعفي عنه.

وفي سنة 684 هجرية عاد الفونسو من جديد وهاجم غرناطة وعاد المنصور لنجدتها وهزم الملك القشتالي وعاهده على تركه في مقابل أن يعطيه جميع كتب المسلمين التي في حوزة اسبانيا،وبالفعل قام الفونسو بذلك وأعطاه آلاف الكتب والمخطوطات الإسلامية التي كان الأسبان قد استولوا عليها إبان غزوهم لبلاد المسلمين، ومازالت تلك الكتب والمخطوطات إلى يومنا هذا في مكتبة فاس.

لكن رغم الجهود التي بذلها بنو مرين لحماية الأندلس، فإنهم لم يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحقة، كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك. والسبب في ذلك يرجع إلى أن المرينيين كانوا يقاتلون بإمكانياتهم الذاتية فقط، بينما كان المرابطون والموحدون يقاتلون بإمكانيات المغرب العربي كله.

ومهما يكن من أمر، فإن بني مرين ساهموا في دور فعال في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة من الفوضى والاضطراب، والحروب الداخلية ضد منافسيهم من جهة،وضد جيرانهم من جهة ثانية.بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة من تاريخه على وجه الخصوص، والتي

حالت دون تمكن المرينيين، أو الوطاسيين من إنقاذ الأندلس،بل جعلتهم عاجزين حتى عن حماية سواحلهم .

يقول المؤرخ الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي الذي زار شمال إفريقيا في مطلع القرن السادس عشر، وعاين أوضاع المغرب في هذه الفترة: «...ووقع بفاس وأعمالها خطوب، وحروب، وفتن، وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد، وهلاك عباد. وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من منابر العدوة. مثل طنجة، وأصيلا وغير ذلك..ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا...»

ومنذ أن كانت الحواضر الأندلسية تتهاوى أمام ضربات الأسبان ورسائل الاستغاثة تتوالى من أهل الأندلس على ملوك المغرب، لكن هؤلاء كانوا أعجز من أن يقوموا بتقديم عون جدي لمسلمي الأندلس...يقول المؤرخ الأندلسي المجهول الذي عاصر مأساة غرناطة:«إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم،فلم يأتنا أحد منهم،ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا،وعدونا قد بني علينا وسكن، وهو يزداد قوة، ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده، ونحن لا مدد لنا...»...وهذا نموذج لجواب على استنكار المؤرخ المجهول:

أبو عبد الله بن الحكيم وأمور يندى لها الجبين

في سنة 701 هـ= 1302 م مات ابن الأحمر الفقيه وتولى من بعده محمد الثالث، والذي كان يلقب بالأعمش، وكان هذا رجلا ضعيفا جدا، وقد تولى الأمور في عهده الوزير أبو عبد الله بن الحكيم الذي ما هو بحكيم، حيث كانت له السيطرة على الأمور في بلاد غرناطة، وكان على شاكلة من سبقه في مراسلة ملك قشتالة والتحالف معه.

لم يكتف أبو عبد اللـه بن الحكيم بذلك، لكنه زاد على السابقين له في هـذه المحالفـات وغيرها بأن فعل أفعالا يندى لها الجبين، كان منها أنه جهّز جيـشا وذهـب ليقاتـل، تُـرى يقاتـل من؟ أيقاتل النصارى الذين هم على حدود ولايته وقد فعلوا الأعاجيب، أم من يقاتل؟

كانت الإجابة المخزية أنه ذهب بجيشه واحتلّ سـبتة في بـلاد المغـرب، ذهـب إلى دولـة بني مارين واحتلّ مدينة سبته حتى يقوي شأنه في مضيق جبل طارق.

وفي سبيل لزعزعة الحكم في بني مارين، وبعد اعتماده في حكمه تماما على ملك قشتالة، فقد فعل ما هو أشدّ من ذلك، حيث راسل رجلا من بني مارين وأمدّه بالسلاح ليقـوم بـانقلاب على يوسف بن المنصور، وقامت فتنة في بني مارين.

وإنه ولا شك غباء منقطع النظير، أمر لا يقره عقل ولا دين، لكن هذا ما حدث، فكانـت النتيجة أنه بعد ذلك بأعوام قليلة سقط جبل طارق في أيدي النصارى، وذلك709 هــ= 1309 م وعُزلت بلاد الأندلس عن بلاد المغرب كليا،وتركت غرناطة لمصيرها المحتوم....وانقطـع الآن المـدد والدعم الذي كان يأتي ويستورد ويعتمد عليه سنوات طويلة على بلاد المغرب، انقطع عن شعب وحكام غرناطة الذين كثيرا ما ألفوه بينهم، وتُركوا لحالهم ولشأنهم.

2- موقف السلاطين الحفصيين

وكما كان أهل الأندلس يستغيثون بملوك المغرب، فإنهم كانوا يلجؤون إلى ملوك بني حفص. خصوصا عندما لا يجدون من ملوك المغرب أذانا صاغية. فمن ذلك أنه عندما سقطت بلنسية، أرسل أهلها إلى أبي زكريا الحفصي يستمدون منه النجدة والمدد.وجعلوا على رأس بعثتهم شاعرهم ابن الأبّار القُضاعي الذي ألقى بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا

ولم تكن بلنسية وحدها هي التي بايعت أبا زكريا الحفصي، وطلبت منه المدد. بل قد بايعه كذلك أهل أشبيلية، إلا أن موقف أبي زكريا الحفصي من استنجاد أهل الأندلس لم يكن يتناسب مع خطورة الوضع.ذلك لأنه لم يكن يملك القوة الكافية التي تمكنه من إنقاذ الأندلس التي كانت ظروفها تقتضي اقتحام الحفصيين للأندلس، والقضاء على رؤوس الفتنة من ملوك الطوائف. وهو ما لم يكن بمقدور الحفصي. ولذلك اكتفى بإرسال أسطول مشحون بالطعام والسلاح والمال. لكن هذا المدد لم يصل إلى المحصورين في بلنسية. كما أرسل بمدد آخر أثناء حصار إشبيلية،لكن المدد استولى عليه العدو،كما استولى على أشبيلية فيما بعد.

وأثناء حصار غرناطة،أو بعد سقوطها لم يستغث أهل الأندلس ببني حفص.ولعل ذلك راجع إلى أن الدولة الحفصية كانت تعيش أخريات أيام-ها،ولم يكن بمقدور أمرائها أن يقدموا أي جهد جدي لدعم مسلمي الأندلس...خصوصا إذا علمنا أن سواحل تونس نفسها لم تنج من الاحتلال الإسباني.أضف إلى ذلك أن الجيش الحفصي الذي كان ذات يوم أفضل جيوش شمال إفريقيا، قد تحلل وأصبح عاجزا عن مقاومة أي عدو. بل فقد سيطرته حتى على الأعراب الذين كانوا يعيثون فسادا في البوادي،وأطراف المدن،الأمر الذي جعل الملوك الحفصيين يستعينون بالمرتزقة من الجنود الإيطاليين والأسبان والزنوج وغيرهم.

3- موقف ملوك الدولة الزيانية

لم تكن أحداث الأندلس بعيدة عن اهتمامات ملوك بني زيان. ذلك لأن أهل الأندلس كانوا يلجئون إلى الزيانيين مستنجدين بهم عندما تضيق بهم السبل. ومن ذلك أنه عندما ضيق الإسبان الخناق على غرناطة أستصرخ ملكها أبو عبد الله

بأبي حمو الزياني، بقصيدة من نظم الـشيخ الفقيـه أبي البركـات محمـد بـن أبي إبـراهيم البلفيقي مطلعها :

هـل مـن مجيـب دعـوة المـستنجد أم مـــن مجـــير للغريـــب المفـــرد

وبرسالة من إنشاء الوزير لـسان ابـن الخطيـب يـذكر فيهـا أنهـم :"... لم يعـانوا منـذ أن فتحت الأندلس شدة، وضيقا أشدّ مما هم عليه الآن. وذكر بأن ملك النصارى جمع لهم جيوشـا من سائر الأمم النصرانية. وأنهم قاموا بإحراق الزروع. والمسلمون ليس لهم مغيث يلجأون إليـه – بعد اللـه – سوى إخوانهم في الدين. وذكر بأنهم كانوا قد أعلموا المرينيين بهذا الخطر، وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم ومـساندة. وأنهـم لا يملكـون غـير أنفـسهم، وقـد بـذلوها في سبيل اللـه. وهم ينتظرون نجدتكم ". فقـام أبـو حمـو الزيـاني بإرسـال الأحـمال العديـدة مـن الذهب والفضة، والخيل، والطعام. وبفضل هذا المدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للـدفاع عـن مدينتهم فترة أطول.

وكما كانت أوضاع الحفصيين، والمرينيين، ثم الوطاسيين لا تؤهلهم للـدفاع عـن بلادهـم، فضلا عن إنقاذ الأندلس، كانت المملكة الزيانية تعيش نفس الظروف المتـدهورة. ولـذلك تعـذر على ملوكها تقديم أي دعم جدي لأهل غرناطة أو غيرها.

4- موقف سلاطين دولة المماليك في مصر

في أواخر القرن الخامس عشر، أرسل مسلمو غرناطة إلى الملك الأشرف قايتبـاي (1468-1496) سلطان المماليك بمصر، يرجونـه التـدخل لإنقـاذهم مـن ظلـم ملـوك النـصارى. فـاكتفى الأشرف بإرسال وفود إلى البابا، وإلى ملوك أوروبا يذكرهم بأن النصارى في دولته يتمتعون بكافـة الحريات، بينما إخوته في الدين في مدن إسبانيا يتعرضون لـشتى ألـوان الاضـطهاد. وهـدد عـلى لسان مبعوثيه بأنه سوف

يتبع سياسة المعاملة بالمثل، وهي التنكيل بالنصارى إذا لم يكفَّ ملوك إسبانيا عن اضطهاد المس-لمين. وطالب بعدم التعرض لهم، ورد ما أُخِذ من أراضيهم.

لكن الملك فرديناندو، والملكة إيزابيلا لم يريا في مطالب سلطان المماليك وتهديده ما يحملهما على تغيير خطتهما في الوقت الذي كانت فيه قواعد الأندلس تسقط تباعا في أيديهما. إلا أنهما بعثا إليه رسالة مجاملة ذكرا فيها : " أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين، والنصارى. ولكنهما لا يستطيعان صبرا على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب. وأن المسلمين إذا شاءوا الحياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية..".

لم يتمكن الباحثون من معرفة مصير هذه الرسالة، كما أنه لا يلاحظ في سياسة مصر المملوكية نحو الرعايا النصارى في مصر، أو في القدس ما يدل على أن السلطان المملوكي قد نفذ تهديده.

ويبدو أن السلطان قايتباي لم يتمكن من إغاثة مسلمي الأندلس بسبب انشغاله بتحركات بايزيد ورد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية. بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية التي كانت تثور هنا وهناك. ومن ثم فإن الجهود المصرية وقفت عند الاكتفاء بالجهود الدبلوماسية. وتركت الأندلس تواجه قدرها بنفسها.

وكرر الأندلسيون استغاثتهم بالملك الأشرف قانصو الغوري (1501-1516) سلطان مماليك مصر والشام. داعين إياه أن يتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين (فرديناندو وإيزابيلا) لاحترام معاهد الاستسلام، ووقف أعمال الاضطهاد ضدهم. فأرسل الغوري وفدا إلى الملكين يبين لهما أنه سوف يجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام، إذا لم تراع الاتفاقات السابقة

بينهما وبين المسلمين. لكن فقهاء المسلمين عارضوا معاملة الرعايا النصارى بالمثل، محتجين بأن الإسلام لا يكره أحدا على الدخول فيه) فأرسل إليه الملكان سفيرا أقنعه بأن المسلمين يعاملون معاملة حسنة. وأن لهم نفس الحقوق التي يتمتع بها الإسبان.

وهكذا خابت آمال المسلمين الأندلسيين في تلقي أي دعم أو مدد من سلطان المماليك قانصو الغوري الذي يبدو أنه كان مشغولا هو الآخر حروبه مع العثمانيين، إضافته إلى كونه لا يملك أسطولا قويا يمكنه من مواجهة الإسبان أقعدته عن إغاثة الأندلسيين.

5- موقف سلاطين الدولة العثمانية

1- موقف السلطان محمد الفاتح

أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة 1477 - أي قبل سقوط غرناطة بأربعة عشر عاما – سفارة إلى إستانبول، وجهوا فيه نظر السلطان محمد الفاتح إلى تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس، وناشدوه التدخل لإنقاذهم. لكن كان في حكم المستحيل أن يستجيب السلطان الفاتح لهذه الاستغاثة، لأنه كان هو الآخر مضطرا إلى مواجهة تحالف صليبي ضم البابا سكست الرابع (TX. Sixte 1471-1484)، وجنوة، ونابولي، والمجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وعددا من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداء شديدا للدولة العثمانية.

2- موقف السلطان بايزيد الثاني

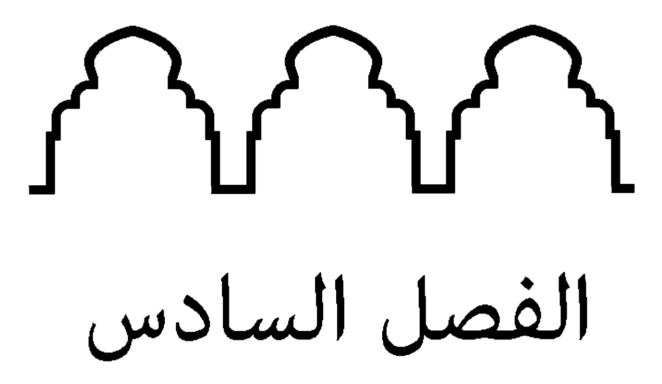
ثم استنجد الأندلسيون مرة أخرى بعد وفاة الفاتح بابنه السلطان بايزيد الثاني (1480-1511)، إلا أن السلطان بايزيد كانت قد تزاحمت عليها أزمات داخلية وخارجية كثيرة منعته من إغاثة مسلمي الأندلس منها : صراعه مع أخيه جم (1481-1495)، وحربه مع المماليك في أدنة سنة 1485-1491، بالإضافة

إلى الحرب مع ترانسلفانيا، والمجر، والبندقية. ثم مزاجهة تحالف صليبي آخر ضد الدولة العثمانية من طرف البابا يوليوس الثاني، وجمهورية البندقية، والمجر، وفرنسا. وما أسفر عن هذا التحالف من حرب أدت إلى تنازل العثمانيين عن بعض ممتلكاتهم. وانتهى حكم السلطان بايزيد بصراع بين أبنائه، أضافة إلى تنحيته عن العرش، ثم موته في ظروف مشبوهة.

لكن رغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في هذه الفترة الحرجة من تاريخها، فإن السلطان بايزيد لم يهمل استغاثة أهل الأندلس، بل حاول أن يقدم لهم ما يستطيعه من أوجه الدعم والمساندة.فأرسل إلى البابا رسولا يعلمه بأنه سوف يعامل النصارى في إستانبول، وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين في غرناطة ، والتضييق عليهم. وبالفعل أرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال رايس إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1486. فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا. وحسب رواية أخرى- لم نتمكن من التأكد من صحتها - فإن السلطان الحفصي عبد المؤمن بعد نجاح وساطته في عقد صلح بين الدولة العثمانية ودولة المماليك، تم عقد اتفاق آخر على تحالف بين الحفصيين والعثمانيين والمماليك لدعم مسلمي الأندلس. وكان الاتفاق يقضي بأن يرسل العثمانيون أسطولا إلى سواحل إيطاليا تكون مهمته إلهاء الإسبان ؛ بينما يستغل الفرصة ويقوم المماليك بإرسال قوات تنطلق من شمال إفريقيا إلى الأندلس لنجدة المسلمين هناك.

وهكذا بسبب المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، لم يتمكن العثمانيون في عصر بايزيد، وقبل ذلك في عصر الفاتح من إغاثة مسلمي الأندلس، كما أن التهديدات، والغارات التي شنها كمال رايس على

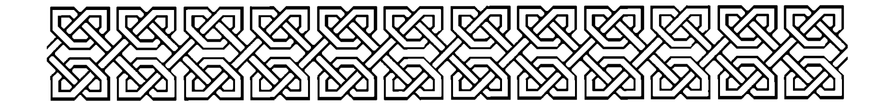
السواحل الإسبانية لم تثن الملكين الإسبانيين عن قرار إنهاء الوجود الإسلامي من إسبانيا النصرانية. وبهذه المواقف التي رأيناها يتضح لنا أن سقوط غرناطة وضياع الفردوس المفقود ارتبط بعدد من الأسباب التي كان يمر بها العالم الإسلامي وقتها. وضياع غرناطة، وما تبعه من طرد المسلمين كان نتيجة متوقعة في ضوء الأحداث التي مرت بها الأمة.



الفصل السادس

مأساة المسلمين في الأندلس

عقب سقوط غرناطة



الفصل السادس

مأساة المسلمين في الأندلس
عقب سقوط غرناطة

لم تكن الدموع التي ذرفها أبو عبد اللـه الصغير وهو يسلم مفاتيح قصور الحمراء بغرناطة لملكي إسبانيا النصرانية "فرناندو" و"إيزابيلا"، هي الدموع الأخيرة في بلاد الأندلس، إذ أعقبها الكثير والكثير من الدموع والدماء، فرغم العهود والأيمان المغلظة التي قطعها "فرناندو"على نفسه ووقع عليها في وثيقة استلام غرناطة الشهيرة، إلا أن اللـه عز وجل الذي هو أصدق قيلا قال في محكم التنزيل" "لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً " [التوبة: 10] وقال: "إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ " [الممتحنة: 2] فأبت على فرناندو صليبيته أن يفي للمسلمين بشيء من العهود والمواثيق، وكانت هذه الوثيقة ستارا للغدر والخيانة وشنيع ما سيقترف بالمسلمين في الأندلس.

كالعادة ولطبيعة جُبلت نفوسهم عليها، وبعد أن ترك أبو عبد اللـه بن محمد الصغير البلاد، لم يوف النصارى بعهودهم مع المسلمين، بل تنكّروا لكلامهم، وأغفلوا شروطهم السبعين، وقد أهانوا المسلمين بشدة، وصادروا أموالهم، وكان ذلك مصداق قوله تعالى: "كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ " [التوبة:8].

وبعد تسع سنوات من سقوط غرناطة، وفي سنة إحدى وخمسمائة وألف من الميلاد أصدر الملكان فرناندو الثالث وإيزابيلا أمرا كان خلاصته أن اللـه قد اختارهما

لتخليص الأندلس من الكفرة (يقصدان المسلمين)، ولذلك يحظر وجود المسلمين في بلاد الأندلس، ويعاقب من يخالف ذلك بالقتل.

ومن هذا المنطلق قام النصارى بعدة أمور، كان منها:

أولا: التهجير: فقد هجر المسلمون بلاد الأندلس بالكلية، هجروها إلى بلاد المغرب والجزائر، وإلى تونس وغيرها من بلاد المسلمين.

ثانيا: التنصير: ولكي يعيش آخرون في بلاد الأندلس في ظل حكم النصارى الأسبان، تَنَصّر من المسلمين آخرون، وهؤلاء لم يرتض لهم النصارى الأسبان حتى بالنصرانية، فلم يتركوهم دون إهانة، وقد سمّوهم بالمُورِسْكِيين احتقارا لهم وتصغيرا من شأنهم، فلم يكن المُورِسْكِي نصرانيا من الدرجة الأولى، لكنه كان تصغيرا لهذا النصراني الأصيل.

((نقل "الدوني روني" مؤرّخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرون في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة" "يعتبر الموريسكي - وهو لقب يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية - أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهًا وليس إلا رسولًا. أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضًا أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع أن أحدًا من الموريسكسين يباشر بعض العادات الإسلامية، ومنها أن يأكل اللحم في الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثيابًا أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلًا باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها

امرأة، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في إتباع هذه العادة، أو يقول: إن يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد أو يقسم بإيمان القرآن أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر- السحور- أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سورًا من القرآن أو أن يتزوج طبقًا لرسوم الشريعة الإسلامية أو ينشد الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية، أو أن يستعمل النساء الخضاب - الحناء - في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيده على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذًا لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتًا إياه بالنبي ورسول الله أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله أو يقول: إن لم ينصّر إيمانًا بالدين المقدس،أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين"[1]..

و لعل أحسن من كتب عن سقوط غرناطة و ما سبقه من أحداث السفير الأمريكي واشنطن إيرفينج ابتداء من سنة 1852 الذي كان يتردد على المخطوطات العربية في إسبانيا ليكتشف الحقيقة من مصادرها. وقد وصف الكاتب ما لحق من هوان بالمسلمين في مالقة بعد ما دخلها الصليبيون. فبعد أن استتب الأمر للملك القشتالي اقتيد المسلمون إلى حظيرة الحيوانات بجوار القصبة محاطة بأسوار عالية، ليقضوا فيها أيامهم في انتظار بيعهم في سوق النخاسة أو اقتسامهم كعبيد وأيامى. "وهكذا كان يرى الشيوخ و النساء الضعيفات والفتيات الناعمات وبعض هؤلاء

(1) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب-ودولة الموحدين - الصلابي.

ممن ينحدرون من أسر نبيلة، وهم يمرّون في شوارع مالقة مثقلين بالسلاسل والأغلال متجهين إلى الزريبة التي أعدت لإيوائهم. وكانت المسلمات يلطمن خدودهن ويضربن صدورهن ويرفعن عيونهن إلى السماء في حسرة و ألم".

وبعد ذلك تحدد مصير كل فرد منهم. فبعد قتل الكثير من الرجال المقاومين سواء من فتيان المدينة أو من الذين جاءوا من جهات أخرى، أخذ الكثير منهم كعبيد يشتغلون في التجديف وفي خدمة الكنيسة، وأما الفتيات المسلمات فقد أرسل خمسون منهن إلى الملكة شقيقة الملك فرديناند ووجه ثلاثون فتاة أخرى هدية إلى ملكة البرتغال، وقدّم باقي الفتيات هدايا إلى نساء البلاط وإلى بعض الأسر النبيلة. ولم يذكر الكاتب حالات الاغتصاب الجماعية التي رافقت غزو المدن الأخرى والتي كانت تدفع إلى الكثير من الحرائر برمي أنفسهن من الأبراج الشاهقة قبل وصول الجيوش الصليبية.

ومن الطبيعي إذن أن معاهدة تسليم غرناطة التي وقعها الملك أبو عبد الله الصغير باسم سكان المدينة لم تكن إلا مرحلة لانتقال المدينة إلى الحكم الصليبي بأدنى تكاليف.

وهكذا فبعد سنوات من التسليم التي اتبع فيها طريقة التنصير بالإقناع أدرك الحكام الإسبانيون أن ذلك عبث وأنه يجب التنصير القسري أو التهجير. وقد بدأت المضايقات بمصادرة الأراضي ومنع الآذان و تحويل المساجد إلى كنائس، ثم بالإجبار على التنصر. وممّا قام به حاكم غرناطة النصراني المسمى خيمنيث بعد أن يئس من محاجاة الفقهاء في دينهم إلزام المسلمين بإحضار جميع كتبهم و مخطوطاتهم إلى الساحة العامة. وبعد أن اختار منها ما هو متعلق بالعلوم الطبيعية مثل الطب و الفلك و الرياضيات و غيرها أشعل نارا رهيبة وألقى فيها جميع الكتب الأخرى

ليقطع عن المسلمين ارتباطهم بثقافتهم. وأما الكتب الأخرى فقد فتح بها جامعة سنة 1501 و التي حولت بعدها إلى مدريد باسم الإسكوريال، والتي لا تزال تحوي الكثير من المخطوطات الإسلامية.

وفي هذا الجو من تضاعف المضايقات، قامت عدة ثورات أهمها ثورة البشارات الأولى ثم الثانية التي انتهت بترحيل الكثير من أهل غرناطة وتهجيرهم قسرا. وأما الذين بقوا فقد مورس عليهم أشد أنواع المضايقات في دينهم و عيشتهم. فقد ذكر الكتاب الغربيون أنواع الضغوط التي كان يعيشها المسلمون يوميا منها منع الوضوء والاغتسال و الصلاة، وختان الأولاد، واضطرارهم إلى أكل الخنزير و شرب الخمر، وارتكاب باقي المحرمات التي ينهى عنها الإسلام.

وقد عهد الملك الصليبي "فرناندو" إلى الكاردنيال "خمنيس" مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية مهمة تنصير مسلمي الأندلس، وكان هذا الرجل من أشد أهل الأرض قاطبة عداوة للإسلام والمسلمين، بل إن البغضاء المشحونة في قلبه كانت مضرباً للأمثال لعصور طويلة، فأنشأ هذا الرجل ما يسمى بديوان التحقيق أو عرف تاريخيا بمحاكم التفتيش وذلك سنة 905 هجرية، فكان أول عمل لهذه المحاكم أن جمعت كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث وأحرقت في ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين بقطع الصلة عن تراثهم وعلومهم الشرعية.

بدأت حملة تنصير المسلمين بعد ذلك بتحويل المساجد إلى كنائس ثم جمع من بقي من الفقهاء وأهل العلم وتم إجبارهم على التنصر، فوافق البعض مكرهاً وأبى الباقون فقتلوا شر قتلة، وكان التمثيل بجثث القتلى جرس إنذار لباقي المسلمين إما التنصير وإما الموت والقتل والتنكيل وسلب الأموال والممتلكات وكانت عملية

التنصير مركزة على إقليم غرناطة ومنه انتقلت حمى التنصير إلى باقي بلاد الأندلس حيث كان هناك الكثير من المسلمين تحت حكم النصارى خاصة في الوسط والشرق.

هب المسلمون بما بقى عندهم من حمية وغيرة على الدين للدفاع عن هويتهم وعقيدتهم، فاندلعت الثورة في عدة أماكن من غرناطة وغيرها، واعتزم المسلمون الموت في سبيل دينهم، ولكنهم كانوا عزلاً بلا سلاح ولا عتاد، فقمع الصليبيون الثورات بمنتهى الشدة فقتل الرجال وسبيت النساء وقضي بالموت على مناطق بأسرها ماعدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة حيث تم تنصيرهم، وبعد قمع الثورة بمنتهى العنف والقسوة، أصدر "فرناندو" منشوراً بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية، وذلك سنة 906 هجرية ومن يومها ظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس المفقود باسم "الموريسكيين" وهى كلمة إسبانية معناها المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين، ومحنتهم تفوق الخيال وما لاقوه وعانوه من إسبانيا الصليبية لا يخطر على بال .

اضطهاد النصارى للمسلمين حقيقة يقرها المستشرقون

ويكفي أن ننقل ما سطره غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب"حيث يقول عن محاكم التفتيش:"يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائضنا من قصص التعذيب والاضطهاد التي قام به النصارى المنتصرين على المسلمين المنهزمين ، فلقد عمدوهم عنوة، و سلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من الجموع. واقترح القس "بليدا" قطع رؤوس كل العرب دون أي استثناء ممن لم يعتنقوا النصرانية بعد،بما في ذلك النساء والأطفال، وهكذا تم قتل أو طرد ثلاثة ملايين عربي". وكان الراهب بيلدا قد قتل في قافلة واحدة للمهاجرين قرابة مئة

ألف في كمائن نصبها مع أتباعه. وكان بيلدا قد طالب بقتل جميع العرب في أسبانيا بما فيهم المتنصرين، وحجته أن من المستحيل التفريق بين الصادقين والكاذبين فرأى أن يقتلوا جميعاً بحد السيف، ثم يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، فيدخل النار من لم يكن صادقاً منهم.

يقول د. لوبون: "الراهب بليدي أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من 140 ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقية"[1].

والكلام السابق

ويقول يورجا في كتابه تاريخ الحروب الصليبية :" ابتدأ الصليبيون سيرهم إلى بيت المقدس بأسوأ طالع ، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها .وقد أسرفوا في القسوة ، فكانوا يبقرون البطون ،ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء ، أما صلاح الدين الأيوبي فعندما استرد بيت المقدس فقد بذل الأمان للصليبين ووفى لهم بجميع عهوده ، وجاد المسلمون على أعدائهم حتى أن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف رقيق من الأسرى ، ومنّ على جميع الأرمن، وأذن للبطريق بحمل الصليب وزينة الكنيسة ، وأباح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن[2].

وهذه الوحشية لم تقتصر على المسلمين فحسب بل امتدت لتشمل مسيحي الشرق أيضا وعن ذلك يقول المستشرق "جيبون": "إن الحملة الصليبية الأولى تركت في التاريخ أقسى ما عرف عن التعصب لا ضد المسلمين فحسب بل ضد

(1) جوستاف لوبون أورده أيضا الدكتور مصطفى أحمد إبراهيم في كتابه أقوال فلاسفة الغرب عن الإسلام ص87.

(2) أقوال فلاسفة الغرب عن الإسلام - الدكتور مصطفى احمد إبراهيم ص87.

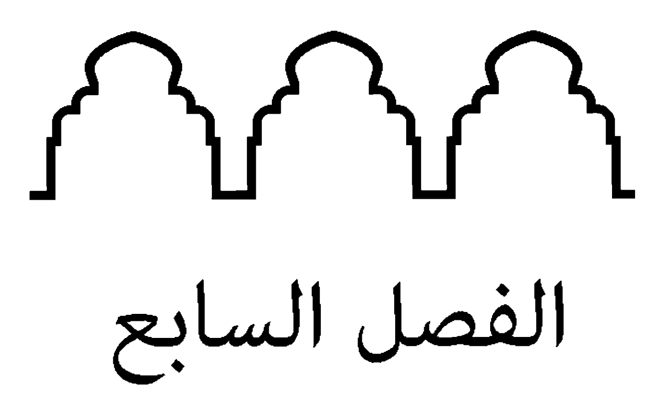
مسيحي الشرق، إذا أنهم بمجرد الاستيلاء على أورشاليم اتهموهم بالإلحاد والتمرد على سلطة البابا فاضطهدوهم وشردوهم، ولقي مسيحيو الشرق ذلك بحسرة وألم مقارنين ما لاقوه من سماحة المسلمين .

وان خدام الرب يوم أن استولوا على بيت المقدس رأوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء في مذبحة استمرت ثلاثة أيام ولم تنته إلا لما أعياهم الإجهاد من القتل[1].

ويقول "لودفيج " تعقيبا على ذلك كيف ساغ لهؤلاء بعد هذه المذبحة البشعان يتضرعوا بجوار قبر المسيح طالبين البركة والغفران [2].

(1) الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام – المستشار على على منصور ص242 .

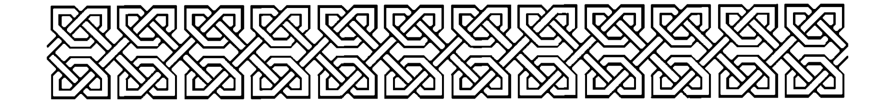
(2) المرجع السابق.



الفصل السابع

الانتفاضات والثورات بعد

السقوط



الفصل السابع

الانتفاضات والثورات بعد السقوط

في اليوم الثاني من شهر يناير/ كانون الثاني لعام 1492 سقطت غرناطة آخر معقلٍ للمسلمين وانتهت بذلك الخلافة الإسلامية في شبه الجزيرة الإبرية، وبسقوط غرناطة استكملت الملكة إيزابيلا ما بدأه بيلايو قبل سبعة قرون فسددت طعنةً أخيرةً وقاضية للأندلس راسمةً باستسلام غرناطة معالم كارثة لم يعرف العالم العربي مثيلاً لها، ولكن زوال السلطة الإسلامية عن شبه جزيرة أَيْبِيرِيَا لم يتضمن زوال الأندلسيين وإن تمكنت قشتالة تقويض الجسد الأندلسي فإنها لم تستطع السيطرة على الروح.

وكان من نصوص المعاهدة التي وقعها أبو عبد الله الصغير وتنازل فيها عن مملكة غرناطة للأسبان ما يلي":

«أنّ للمُرُشْ أن يحتفظوا بدينهم وممتلكاتهم. أن يخضع المرش لمحاكمة قضاتهم حسب أحكام قانونهم وليس عليهم ارتداء علامات تشير لكونهم مرش كما هو حال عباءة اليهود. ليس عليهم دفع ضرائب للملكين النصارى تزيد على ما كانوا يدفعونه للمرش. ولهم أن يحتفظوا بجميع أسلحتهم ماعدا ذخائر البارود. يحترم كل نصراني يصبح مُرُشْ ولا يعامل كمرتد. أن الملكين لن يعينا عاملا إلى من كان يحترم المرش ويعاملهم بحب إن أخلّ في شيء فإنه يغير على الفور ويعاقب. للمرش حق التصرف في تربيتهم وتربية أبنائهم.»

وما إن تسلم ملكا الكاثوليك غرناطة حتى شرعا في تنصير أهلها بأساليب سلمية وعهدوا هِداية المُدَجّنين إلى العقيدة النصرانية إلى القس هيرناندو دي تالابيرا أول أساقفة غرناطة. وانصبّ هذا الأخير على هذه المهمة بكل تفان فتعلم العربية وأخذ يعظ الناس بكل لين ولطف حتى أمسى المسلمون يدعونه "شنتُ الفقيه" إي القديس الفقيه.

الهدوء الذي يسبق العاصفة

وقد استمرت السياسة الأسبانية الرسمية عدة أعوام بعد سقوط غرناطة وانكسار شوكة المسلمين، تلتزم جانب الروية والاعتدال بشكل عام، واتخذت الأهبة لنقل المسلمين الراغبين في الهجرة إلى المغرب، وهاجر كثير من أشراف غرناطة، بعد بيع أملاكهم بثمن بخس، بينما بقي القسم الأكبر من المسلمين في غرناطة وما حولها. هذا عدا جموع المدجنين الموجودين في بلنسية، في شرقي الأندلس وفي سرقسطة في شمالها والذين كانت أعداد كبيرة منهم لا تزال تحتفظ بدينها الإسلامي. بيد أن تلك السياسية السلمية لم تطل، إلا ريثما يتم نزع سلاح المسلمين، وعزلهم في أحياء وتجمعات سكانية منفصلة عن بعضها البعض. ولم يكن ذلك الهدوء النسبي في الواقع، سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة. إذ لم يلبث الأسبان حتى كشفوا عن وجوههم الحقيقية، وأبانوا عن خبثهم وحقدهم وأنانيتهم وسوء طويتهم، وكانت الكنيسة الكاثوليكية، تجيش بنزعتها الصليبية الحاقدة، وتضطرم حماسة ورغبة في القضاء على البقية من الأمة الإسلامية في اسبانيا، وكان الأحبار يطالبون الملكين الكاثوليكيين فريدناند وإيزابيلا بإلحاح بالعمل على سحق طائفة محمد واستئصال شأفتها من اسبانيا، وأن يضعهم بين خيارين لا ثالث لهما ، فإما الجلاء أو التنصير لمن يريد البقاء. ومن هنا بدأ الأسبان الكاثوليك مسلسل

الغدر المبيت والمنظم برعاياهم المسلمين المعاهدَين. وما حل بالمسلمين على أيديهم كان مرعبا وكانت مأساة من أبلغ مآسي التاريخ، ولما تدرس، ولم تكتب صفحاتها- بعد، لأننا لا نملك وثائقها بين أيدينا، فقد تنكر المنتصرون لكل حرف خطوه في المعاهدة، واستطالوا على أولئك المساكين، ونكبوهم شر نكبة، ولم يذكروا لهم إلا ولا ذمة "قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ " [آل عمران:118].

وأطلق الأسبان على تلك الطائفة المسلمة التي غلبت على أمرها، منذ ذلك التاريخ اسم الموريسكيين (Moriscos) ومعناه الأندلسيين القادمين من المغرب العربي والساكنين في أسبانيا. وأصبح هؤلاء الموريسكيين هم القاسم المشترك الأعظم بين كل أعداء إسبانيا، فهم مسلمون مثل العثمانيين وعرب مثل أهل المغرب، وإخوان في الشقاء مع الألمان والهولنديين البروتستانت. "وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللـهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " [البروج: 8].

ولكن بعد مضي عدد من السنوات قام ملوك الكاثوليك باستصدار مرسوم يجبر المسلمين واليهود على إمّا التنصّر أو الرّحيل قسراً، وبدأ التضييق على السكان وخرقت بنود معاهدة التسليم فتحولت المساجد إلى كنائس واضطر أغلب الغرناطيين إلى بيع ممتلكاتهم والرحيل باتجاه المغرب وتونس.

وفي 1502 أصدرت الملكة أمراً مكتوباً يقضي بأن المسلمين ليس أمامهم إلا أحد خيارات ثلاث، إما أن النصر وفي هذه الحالة يكون مواطنا من الدرجة الثانية وإما أن يغادر الأرض ويخرج من البلاد وأما التعرض للمساءلة، يعرض للمحاسبة، التالي يتعرض للعذاب وللعقاب ولأقصى أنواع الاضطهاد.

أدت هذه الاستفزازات التي اشتعال الغضب في نفوس الأندلسيين الذين ظنوا أن للأسبان دينا ،جاء في مخطوط الجندي المجهول ما يلي: " فلما تمت هذه

العقود والمواثيق، قرأت على أهل غرناطة، فلما سمعوا ما فيها اطمئنوا، وكتبوا بيعتهم وأرسلوها إلى صاحب قشتالة، وسمحوا له بالدخول إلى مدينة الحمراء وإلى غرناطة، فعند ذلك أمر أمير غرناطة بإخلاء مدينة الحمراء".

انتفاضة حي (البيّازين) سنة 1502

حدثت أول انتفاضة ضد الاحتلال الاسباني لغرناطة عام منطلقة من حي (البيّازين) لمسلمي غرناطة. وكانت قد انطلقت مع شاب لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره (هرناندو دي فالور)، ينحدر من أسرة أموية، والذي كان قد أرغم على اعتناق النصرانية بالقوة. فما كان منه إلا أن انخلع من استعباده عائدا إلى اسمه العربي ابن أمية.

وتبعتها انتفاضة أخرى منطلقة هذه المرة من ضاحية (البشارى) المنطقة الجبلية،الواقعة شرق غرناطة. وكانت من عواقبها أن قمعت بوحشية دموية لا مثيل لها. فدمرت بهذا الصدد قرى بكاملها، وقتلت النساء والشيوخ والأطفال،وشرد الباقون في نواحي البلاد، في انتظار الحلقة التالية من مسلسل التطهير. وكان ابن "شارل الخامس" "دون جوان دوتريش، النمساوي" هو المسئول عن قمعها. وهكذا راحت المراسيم،عقب هذه المجزرة الأولى، تنهال من هنا وهناك،من أجل التعجيل بالحل النهائي للأمة الأندلسية.فأصدر مرسوم بطرد كل المسلمين الغرناطيين،الذين تتراوح أعمارهم،ما بين أربعة عشر سنة فما فوق. تم طردهم من غرناطة أولا،ثم من باقي مملكة قشتالة. وأصدر مرسوم جديد يتعلق هذه المرة بالمسلمين القدامى، الذين كانوا يقيمون بالأماكن الواقعة تحت السيطرة النصرانية، منذ قرون بحق الجوار. وهم الذين يطلقون عليهم اسم(المود يجار). هذه التسمية التي يعتقد المستشرقون بأنها مشتقة من اللفظ العربي، لكلمة مُدَجّن،فهم إذن

(المدجّنون). ونرى من ناحيتنا خطأ في هذا النعت،والصواب من ناحيتنا،أن الكلمة منحدرة من صيغة "الجار و الجوار"، وهي عادة استورثها النصرانيون من الممالك الإسلامية التي سقطت في أيديهم و ظل بها بعض سكانها من المسلمين. فعادة(حق الجوار) التي كان يطبقها المسلمين في حق الأقليات،صارت تقليدا كرد فعل، وتقليدا بالمثل لدى الآخرين. وكان هؤلاء يتكلمون اللغة القشتالية، أو ما يمكن أن نسميها بالرومانية، وهي منحدرة من العامية اللاتينية. وكانوا يمارسون كتابتها بأحرف عربية تسمى (ألخَمِيّة) وهي لفظة مشتقة من الكلمة العربية (العَجَمِيّة).

وفي هذا المناخ المتأزم، أجبر هؤلاء المسلمين بمغادرة ديارهم. ولقد تم الاتفاق بهذا الشأن، بين الملك"شارل الخامس"و "البابا". وفي هذه الأثناء بالذات،أخرج من جيب "البابا" مرسوما جديدا، يقول ب(طهارة الدم و نقاوته). والغرض منه،سد الطرق،أمام كل من اعتنق النصرانية مجبرا،على تسلم أية وظيفة في أروقة الدولة.هيهات ! والدم العربي يجري في رعاياهم،بل حتى في عروق ملوكهم وملكاتهم. وفي ظل هذا الملك - الإمبراطور (شارل الخامس) خرج إلى الوجود، مصطلح جديد، ألا و هو لفظة (موريسْكوس). وهذه التسمية، هي لفظة هجينة يراد بها التقليل من شأن المسلمين، الذين أرغموا على اعتناق النصرانية. وهنا سنتوقف قليلا، لنبين لكم خيوط المؤامرة الخفية. (موريسكوس !) إنه في الحقيقة، اختراع رائع وجهنمي في الوقت نفسه، لتمرير أكبر جريمة في حق الإنسانية. فهذه التسمية كانت أول ما ظهرت خلال سنة 1502م عقب الانتفاضة، وبقيت مهملة نوعا ما، لغاية ما اضطرت الضرورة السياسية إلى بعثها من جديد. فلفظ (موريسكوس) هذا، أو هذه التسمية، المُسْتَحدثة ستتحول إلى تسمية عامة وشاملة،تخص كل مواطني الأندلس. بل ستخصهم حتى في الممالك النصرانية الواقعة على شبه جزيرة إيبريا شمالا، التي لم تكن قد اتخذت لها تسمية إسبانيا بعد.

فأنت كنت تجد أقلية مسلمي الجوار بالممالك النصرانية،وتجد في الوقت نفسه بالأندلس الإسلامية، المسلمون وكانوا يشكلون الغالبية الساحقة. وتجد النصارى القدامى، الذين فضلوا الإقامة تحت السلطات الإسلامية، مع احتفاظهم بدينهم ولغتهم وتقاليدهم. بالإضافة إلى المستعربين من النصارى، الذين كانوا على غرار مسلمي الجوار، يمارسون ديانتهم النصرانية، وفي الوقت نفسه يتكلمون و يكتبون باللغة العربية. وتجد أيضا المولدون من السكان القدامى للجزيرة (القوط الأريانيين) الذين اعتنقوا الإسلام بدون إكراه، مع بداية الفتح الإسلامي، ومنهم أيضا، أبناء الزواج المختلط، بين رجال مسلمين وأمهات نصرانيات، ومنهم الأقلية اليهودية، التي كانت متواجدة قبل الفتح و بعده. وكنت تجد أيضا، طوائف متنقلة من الغجر،كانت متفرقة هنا وهناك. فكل هذا الخزان البشري، وكل هذه السلطات الثقافية، كانت متعايشة تحت سيادة واحدة، ولو أن التاريخ يخبرنا بأنه كانت ثمة في بعض الأحيان، احتكاكات كانت تجر أحيانا إلى الفوضى وأخرى إلى القتل، إلا أن السلطات لم تكن لتسمح لنفسها قط باقتلاع جذور هذه أو تلك الطائفة. فهذه المحصلة إذن، كانت ثروة الأمة الأندلسية، ونموذجا إنسانيا نادرا في التعايش والتسامح، بين أعراق وديانات مختلفة.

وبمجرد ما أصبحت المملكة الكاثوليكية المنتصرة، قادرة على تثبيت أقدامها على تراب المملكة الأندلسية، حتى صارت بسياستها العرقية منحية كل الطوائف، طائفة من هنا وأخرى من هناك. وحين استعسر عليها الأمر، لأن العديد من المواطنين المسلمين، كانوا قد اعتنقوا النصرانية قهرا، للخلاص بالمظهر من الموت أو الجلاء والبقاء في الباطن مسلمين، لأنه لا خيار لهم، و الوطن الذي يعذبون ويذبحون فيه، وطنهم الأم. حين لم تجد من حيلة، خاصة وأن الكل المواطنين الجدد، قد أصبحوا نصارى، إلا من هاجر منهم طوعا، لجأت إلى الحل

النهائي وهـو القـضاء عـلى (الموريـسكوس). لأنـه لم يعـد بـاق عـلى تـراب الـوطن مـن مجموعة عرقية،إلا هذه. ولأن كل المجموعات العرقية الأخرى أفترض فيها، بأنه لم يعد لهـا مـن وجـود،على تـراب الـوطن الكـاثوليكي الجديـد. وبهـذه العمليـة الاختزاليـة، وبهـذه المـؤامرة الجهنمية،أصـبح في متنـاول الكنيـسة والملـوك الكاثوليـك المتـآمرين معهـا، اقـتلاع جـذور أمـة بكاملها،والتخلص منها،رميا بها إلى البحر.

الثورة في عهدالإمبراطور "فليب الثاني" عرش إسبانيا

بدأت على أثر تولي الإمبراطور 'فليـب الثـاني' عـرش إسـبانيا بدايـة حملـة اضـطهاد غـير مسبوقة للموريسكيين الذين كانوا موضع شك دائـم مـن قبـل الكنيـسة ورهبانهـا الـذين كـانوا يشعرون في قرارة أنفسهم أن الموريسكيين ما زالوا على الإسلام في سويداء قلوبهم، وكان "فليـب الثاني" ملكاً شديد التعصب، كثير التأثر بنفوذ الأحبار،فأصدر حزمة من القـرارات جـاءت بمثابـة الضربة القاتلة لبقايا الأمة الأندلسية وذلك بتجريـدها مـن مقوماتهـا القوميـة الأخـيرة بتحـريم استخدام اللغة العربية والملابس العربية، وعندها قامت الثـورة الـشاملة وكـان مركـز الثـورة في منطقة جبل "الـشارات" وانـدلع لهيـب الثـورة منهـا في أنحـاء الأنـدلس ودوت صـيحة الحـرب القديمة وأعلن الموريسكيون استقلالهم، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت، واختار الثـوار أميراً لهم اسمه "محمد بن أمية" يرجع أصله إلى بني أمية الخلفاء كإشارة على استعادة الخلافـة ودولة الإسلام في الأندلس مرة أخرى.

حقق الموريـسكيون عـدة انتـصارات متتاليـة، اهتـزت لهـا عـروش النـصرانية في أسـبانيا وأوروبا، فأعدت أسبانيا حملة عسكرية ضخمة يقودها أمهر قادتهم هو "الـدون خـوان"، وجـاء المجاهدون المسلمون من المغرب العربي وانضمت فرقة عـسكرية عثمانيـة للثـوار جـاءتهم مـن تونس، وكان الأسبان يقتلون من يقع في أسرهم

ويمثلون بجثثهم أبشع تمثيل حتى الأطفال والنساء لم يسلموا من أفعالهم، وزاد ذلك الثوار يقينا بحتمية الاستمرار في الثورة والقتال حتى الموت، وقويت العزائم وتقاطر المجاهدون المغاربة على الأندلس، وهنا امتدت أيدي الغدر والخيانة في الظلام لتغتال حلم الأندلسيين بمكيدة شريرة ويقتل الأمير 'محمد بن أمية' قبل أن يحقق هدفه المنشود.

القائد الجديد

بعد اغتيال 'محمد بن أمية' لم تكن هذه الثورة لتقف أو تنتهي بموت زعيمها، فاختار الثوار أميراً جديداً هو ابن عم القتيل واسمه "مولاي عبد الله محمد"، وكان أكثر فطنة وروية وتدبرا فحمل الجميع على احترامه ونظم جيش الثوار وجعله على الطراز الدولي ويفوق في تنظيمه الجيش الصليبي الأسباني واستطاع "مولاي عبد الله" أن يستولي على عدة مدن هامة مثل مدينة "أرجبة" التي كانت مفتاح غرناطة والتي كان سقوطها شرارة اندلاع ثورة الموريسكيين وذيوع شهرة "مولاي عبد الله محمد".

حشدت إسبانيا أعداداً ضخمة من مقاتليها يقودهم "الدون خوان"، فحاصر هذا الجيش الجرار الثوار في بلدة "جليرا" وكان مع الثوار فرقة من الجنود العثمانيين، ودارت رحى معركة في منتهى الشراسة أبدى فيها المسلمون بسالة رائعة، ولكن المدينة سقطت في النهاية ودخلها الأسبان دخول الضواري المفترسة وارتكبوا مذبحة مروعة شنيعة لم يتركوا فيها صغيرا ولا كبيرا ولا طفلا ولا امرأة، وحاول "الدون خوان" مطاردة فلول الثوار ولكنه وقع في كمين للثوار في شعب الجبال عند مدينة "بسطة" وأوقع الثوار هزيمة فادحة بالصليبيين الأسبان ، جعلت الحكومة الأسبانية تفكر في مصالحة الثوار المسلمين.

السلام الفاشل

عرضت الحكومة الصليبية الإسبانية على المسلمين الثائرين معاهدة سلام لإنهاء القتال، فبعث "الدون جوان" إلى أحد الثائرين واسمه "الحبقى" وقد لمحت فيه إسبانيا الصليبية بعض المؤهلات التي ترشحه للتفاوض وقبول شروطها المجحفة في السلام، وكانت شروط المعاهدة تتضمن وقف انتفاضة المسلمين فورا وفى سبيل ذلك يصدر وعد ملكي بالعفو عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم في ظرف عشرين يوما من إعلانه ولهم أن يقدموا تظلمهم وشكاواهم مع الوعد بالبحث فيها ودراستها..!

وكل من رفض العفو والخضوع للسلطة الصليبية سيقتل ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة والسبب بالقطع معروف النساء سبايا والأطفال ينصرون.

كانت شروط السلام الصليبي المعروض على الموريسكيين كفيلة بأن يرفض الأمير مولاي عبد الله محمد هذه المعاهدة الجائرة التي لا تعطى المسلمين شيئا وليس لها سوى هدف واحد وهو إيقاف ثورة المسلمين فقط لا غير، وأيقن المسلمون أن الأسبان الصليبيين لا عهد لهم ولا ذمة، فانقلب النصارى يفتكون بكل المسلمين في أنحاء أسبانيا سواءً من اشترك في الثورة أم لم يشترك، واشتبك الدون خوان مع قوات مولاي عبد الله في عدة معارك ولكنها غير حاسمة، وفى نفس الوقت أبقى الأسبان على خط التفاوض مع الزعيم "الحبقى" الذي رأى فيه النصارى السبيل لشق صف الثوار المسلمين.

سار مجرى القتال في غير صالح المسلمين لانعدام التكافؤ بين الطرفين خلا الإيمان بالله عز وجل، ورأى مولاي عبد الله أن أتباعه يسقطون من حوله تباعا

وتجهم الموقف والقوة الغاشمة تجتاح كل شيء، فبدأ يفكر في الصلح والسلام ولكن بغير الشروط السابقة، وتدخل بعض زعماء الأسبان ممن له عقل وتدبير لإجراء الصلح، ولكن "الحبقى" استبق الجميع وشق صف الثورة وخرج عن طاعة مولاي عبد اللـه ومن معه، وذهب بسرية من فرسانه إلى معسكر الصليبيين وقدم الخضوع والذلة إلى قائدهم 'الدون خوان'.

كانت هذه الخطوة الذليلة من "الحبقى" محل سخط كل المسلمين وخاصة زعيمهم مولاي عبد اللـه، فلقد لمح أن "الحبقى" يروج بمنتهى القوة لهذا السلام الذي هو خضوع وذلة بالكلية للصليبيين، وأن الصف المسلم يتصدع بمحاولات "الحبقى" وأراجيفه، خاصة بعدما لمح المسلمون نية الصليبيين في نفيهم بالكلية عن الأندلس، وهذا يجعل الهدف والداعي الذي قامت من أجله الثورة في الأصل هباءً منثوراً وكيف سيعيدون دولة الإسلام في الأندلس مرة أخرى إذا طردوا من أوطانهم، لهذه الأسباب كلها قرر مجلس قيادة الثورة إعدام "الحبقى" الذي ظهر منه ما يدل على عمالته وولائه للصليبيين.

استئناف القتال

أعلن مولاي عبد اللـه أن الثورة لن تتوقف وأن الموريسكيين سيجاهدون حتى الموت وأن حلمهم بإعادة دولة الإسلام في الأندلس لم يمت في قلوبهم، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه مما بذلوا له من وعود معسولة وأماني كاذبة.

وكان لهذا الموقف الشجاع من مولاي عبد اللـه فعل السحر في نفوس المسلمين في جميع أنحاء أسبانيا، فاندلعت الثورة كالنار في الهشيم، وقابل الأسبان ذلك بمنتهى القسوة والشدة بل والحقد الجنوني، حيث مضوا في القتل والتخريب

لكل ما هو مسلم، وهدموا القرى والضياع والحقول حتى لا يبقى للثوار مثوى أو مصدر للقوت.

كانت لهذه القسوة المفزعة أثر كبير على نفوس الموريسكيين حيث فر كثير منهم من البلاد كلها إلى إخوانهم المسلمين في إفريقية، وفي 28 أكتوبر سنة1570 أصدر فليب الثاني قراراً بنفي الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد الأخرى بأسبانيا، ويوزعون على سائر الولايات الإسبانية بل مصادرة أملاكهم وأموالهم ، ووقع تنفيذ القرار في مشهد يندى له جبين البشرية من الخزي حيث السفك والنهب والاغتصاب، وسيق مسلمو غرناطة كالقطعان لمسافات طويلة حيث الجوع والعطش والمرض ثم وضعوا بعد ذلك فيما يشبه المعسكرات الجماعية حيث بقوا رهن المتابعة والرقابة الدائمة، وعين لهم مشرفاً خاصاً يتولى شئونهم ووضعت لهم جملة من القيود من يخالف أدناها يقتل شر قتلة.

الخيانة ونهاية البطل

بعد هذه الوحشية منقطعة النظير وبعد سلسلة من المذابح والمجازر البشرية المروعة في حق مسلمي الأندلس وبعد فرار الكثير من الموريسكيين إلى إفريقية وبعد نفي بقيتهم داخل أسبانيا لم يبق أمام الأسبان سوى آخر فرسان الأندلس مولاي عبد الله وجيشه الصغير الذي ظل مقاوماً للصليبيين معتصماً بأعماق الجبال، رافضاً للصلح أو المهادنة أو الخضوع لسلطة الصليب مهما كانت التضحيات، وهو في هذه الأثناء يقوم بحرب عصابات ضد الحاميات الأسبانية المنتشرة بغرناطة وأوقعت هذه الحرب خسائر فادحة بالأسبان، ولكنها أيضا أنهكت قوة جيش مولاي عبد الله الصغير.

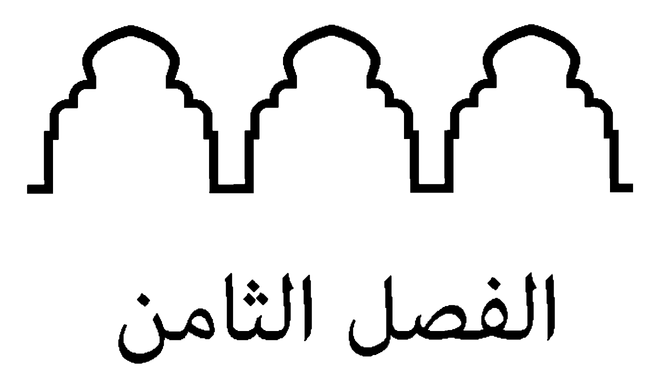
ولأن هذا العصر وتلك الأيام كانت توصف بالخيانة والعمالة وحب الدنيا وكراهية الموت والخوف على النفس والمال والعيال، فلقد استطاع أعداء الإسلام أن يستقطبوا ويجندوا أحد ضباط مولاي عبد الله محمد ويغروه بالأموال والمنح والوعود والعفو الشامل إذا استطاع أن يسلمهم مولاي عبد الله محمد حياً أو ميتاً، وكان الإغراء قوياً ومثيراً والنفوس ضعيفة، فدبر هذا الضابط الخائن خطته لاغتيال آخر أبطال الأندلس، وفي ذات يوم هجم الخائن مع بعض من أغواهم على البطل مولاي عبد الله الذي قاومهم قدر استطاعته ولكنه وبعد معركة غير متكافئة سقط شهيداً، فقام الخونة بفعلة شنيعة حيث ألقوا جثته من فوق الصخور لكي يراها الجميع ويعلم أسيادهم الأسبان بنجاح مخطط الغدر والخيانة، وهكذا تدفع الأمة من جديد ثمن خيانة بعض أبنائها وتفقد ولداً باراً وبطلاً عظيماً قام بنصرتها والدفاع عن عرضها وحاول استعادة مجدها ولكنه وللأسف الشديد زمن الخيانة والعمالة!

هكذا يفعلون في أبطالنا

إن ميراث الحقد والعداوة الدفين في قلوب أعداء الإسلام ضد كل ما هو مسلم ليدعو كل صادق وغيور لأن يكون على استعداد دائم للمعركة التي يخطط لها أعداء الإسلام، والصدام الوشيك بين الحق والباطل، وما فعله الأسبان بجثة البطل الشهيد مولاي عبد الله يدل على مدى الحقد العمى المشتعل في قلوب أعداء الإسلام، حيث قام الأسبان بحمل الجثة إلى غرناطة وهناك استقبلوها في حفل ضخم حضره الكبار والصغار الرجال والنساء، ورتبوا موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل وعليها ثياب كاملة كأنه إنسان حي ومن ورائها أفواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا عقب اغتيال زعيمهم، ثم حملت الجثة إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام، فقطع رأسها ثم جرت في شوارع غرناطة مبالغة في التمثيل

والتنكيل ومزقت أربعاً وأحرقت بعد ذلك في الميدان الكبير ووضع الرأس في قفص من الحديد، رفع فوق سارية في خاصة المدينة تجاه جبال البشرات معقل الثورة ومنشأها، وهكذا يفعلون في أبطالنا.

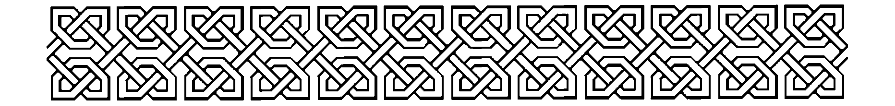
وكانت هذه الثورة قد أحدثت خوفا وهلعا كبيرين في كل أسبانيا النصرانية، ليس في أسبانيا فقط بل في كل أوروبا وكانت أيضا هي الحرب الأخيرة التي قام بها المسلمون في أسبانيا.



الفصل الثامن

محاكم التفتيش الجذور

والتطور



الفصل الثامن

محاكم التفتيش الجذور
والتطور

وقد أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر بقرار من البابا جرينوار التاسع وذلك عام 1233. وكان هدفها محاربة الهرطقة في كل أنحاء العالم المسيحي. والمقصود بالهرطقة هنا أي انحراف ولو بسيط، عن العقائد المسيحية الرسمية. وقد كلف بها رجال الدين في مختلف المحافظات والأمصار. فكل واحد منهم كان مسؤولاً عن ملاحقة المشبوهين في ابرشيته. وكان الناس تساق سوقًا إلى محكمة التفتيش عن طريق الشبهة فقط، أو عن طريق وشاية أحد الجيران. كانوا يعرضون المشبوه به للاستجواب حتى يعترف بذنبه، فإذا لم يعترف انتقلوا إلى مرحلة أعلى فهددوه بالتعذيب. وعندئذ كان الكثيرون ينهارون ويعترفون بذنوبهم ويطلبون التوبة. وأحيانًا كانت تعطى لهم ويبرؤون. ولكن إذا شّكوا بأن توبتهم ليست صادقة عرضوهم للتعذيب الجسدي حتى ينهاروا كليًا. وإذا أصرّ المذنب على أفكاره ورفض التراجع عنها فإنهم يشعلون الخشب والنار ويرمونه في المحرقة. وقد قتل خلق كثير بهذه الطريقة التي أصبحت علامة على العصور الوسطى.[ادعاء غير موثق منذ 163 يوماً]

ويقال أن عدد الضحايا الذين ماتوا بهذه الطريقة يتجاوز عشرات الألوف، ومن أشهر الذين ماتوا حرقا المصلح التشيكي المشهور جان هوس وكان راهبًا مشهورًا بإخلاصه وتقواه واستقامته، كما كان يحتل أرفع المناصب الأكاديمية بصفته

عميدًا لجامعة براغ في بداية القرن الخامس عشر. ولكنهم اتهموه بأنه كان يدّعي أن الكنيسة خرجت عن مبادئ الدين وأنه ادعى أن بعض القساوسة والمطارنة انحرفوا عن واجبهم الحقيقي واهتمامهم بمصالحهم الشخصية واستغلالهم المادي للناس البسطاء. وقد التف حوله ناس كثيرون أحسّوا بصدقه وإخلاصه. وعندئذ قامت الكنيسة الكاثوليكية بتكفيره بتهمة الزندقة، وعلى الرغم من أنهم أعطوه الأمان بعد أن استدعوه للمحاكمة إلاّ أنهم غدروا به فاعتقلوه وألقوه طعمه للنيران في نفس اليوم، أي بتاريخ 6 يوليو من عام 1415.

ومن أهم الذين مثلوا أمام محاكم التفتيش الفيلسوف الإيطالي جيوردانو برينو والعالم الشهير جاليليو، بل إن كوبرنيكوس القائل بدوران الأرض حول الشمس لم ينج منها إلا بسبب حذره الشديد. فقد أجل نشر كتابه الذي يحتوي على نظريته الجديدة حتى يوم وفاته بالضبط ! ولكن لم يكن هذا خط برينو الذي هرب من إيطاليا بعد أن انخرط في سلك الرهبنة لفترة من الزمن، فبسبب من تعلقه بالأفكار الفلسفية وتبنيه لنظرية كوبرنيكوس المدانة من قبل البابا، فإنهم راحوا يشتبهون به ويلاحقونه، وعندئذ اضطر للفرار والعيش متنقلا بين فرنسا وسويسرا وإنجلترا وألمانيا. وكان يشتغل أستاذا في جامعات هذه البلدان التي يمر بها. واشتهر بالتفوق والنبوغ العلمي، بل واستبق على الكثير من النظريات الحديثة التي ثبتت صحتها فيما بعد. وبعد أن غاب سنوات طويلة عن بلاده وشعر بالحنين إليها استدرجه أحد التجار الأغنياء من البندقية. وطلب منه العودة لتعليم أولاده والعيش بأمان في بلاده إيطاليا ولكنه سرعان ما غدر به وسلمه إلى محاكم التفتيش في الفاتيكان. فقطعوا لسانه واحرقوه. وأصبح جيوردانوبرينو منارة مشعة على مدار التاريخ الأوروبي.

وأما العالم الشهير جاليليو فقد كان مهددا بنفس المصير لولا أنه استدرك الأمر في آخر لحظة وقبل بالتراجع عن نظريته المشهورة. وهكذا عفوا عنه. ولم ينفذوا فيه حكم الإعدام. ثم أُحيل إلى الإقامة الجبرية في ضواحي فلورنسا وأتيح له أن يكمل بحوثه وهو تحت المراقبة. ولم تعترف الكنيسة الكاثوليكية بغلطتها في حق جاليليو إلا بعد مرور أكثر من ثلاثمائة سنة على محاكمته! وقد استمرت محرقة محاكم التفتيش موقدة حتى القرن السابع عشر، بل وحتى الثامن عشر. نضرب على ذلك مثلا حادثة شهيرة حصلت في عز عصر التنوير لشخص يدعى جان فرانسولابار (Jean-François de la Barre) أي في القرن التاسع عشر. فقد قطعوا يده لأنه كسر الصليب واقتلعوا لسانه ثم أحرقوه أخيراً. وكان شابا مراهقا لا يتجاوز عمره التاسعة عشر. وقد استغل فولتير هذه القضية وهاجم الأصوليين المسيحيين هجوما شديدا. ومن الأمثلة الأخرى ما حصل للفيلسوف ميخائيل سيرفيتوس الذي أحرقوه حيا في جينيف بتهمة التشكيك بعقيدة التثليث، وهي من العقائد الأساسية في المسيحية.

محاكم التفتيش البرتغالية

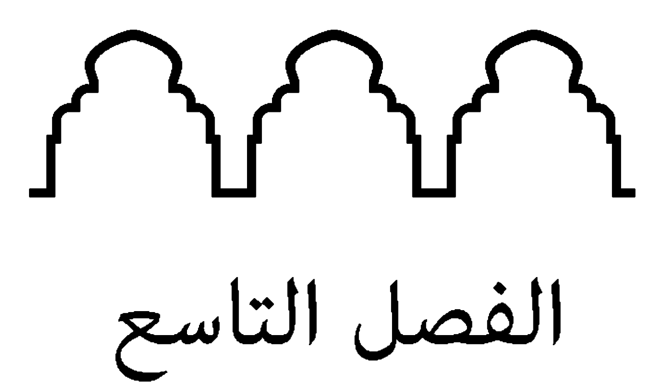
تأسست محاكم التفتيش البرتغالية سنة 1536 على يد ملك البرتغال جوو الثالث.

محاكم التفتيش الرومانية

بعد اندلاع حركة الإصلاح الديني وحركة النهضة في القرن السادس عشر أصبح العدو الأول لروما والفاتيكان شخصين اثنين هما: البروتستانتي والنهضوي. بمعنى آخر أصبح مارتن لوثر هو العدو، وكذلك ايراسم زعيم عصر النهضة. ولذلك قام البابا بحرمان لوثر وفصله من الكنيسة عام 1521.

وبدء من تلك اللحظة انقسم العالم المسيحي في أوروبا إلى قسمين: قسم كاثوليكي وقسم بروتستانتي. ودارت بينهما المعارك والحروب على مدار مائتي سنة تقريبا. وهي حروب الأديان الشهيرة التي ذهب ضحيتها مئات الآلاف من القتلى. وبلغت هذه الحروب ذررتها في فرنسا في الفترة الواقعة بين عامي 1562-1598. فقد هاجت الجماهير الكاثوليكية على أفراد الأقلية البروتستانتية في مختلف المدن والأرياف الفرنسية. وكان أن حصلت تلك المجزرة الشهيرة باسم مجزرة سانت بارتيليمي التي ذهب ضحيتها أكثر من خمسة آلاف شخص. وفر البروتستانت الفرنسيون إلى مختلف أنحاء أوروبا. ولا تزال بعض عائلاتهم تحافظ على أسمائها الفرنسية حتى الآن بعد ثلاثمائة سنة من إقامتها في ألمانيا، أو هولندا، أو السويد، أو إنجلترا.

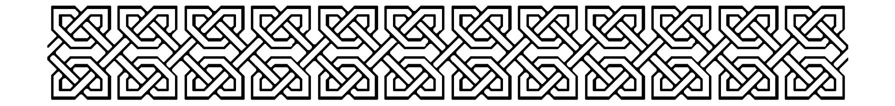
وكان ذلك أبان عهد الملك لويس الرابع عشر، الملقب بالملك - الشمس نظرا لسطوته وهيبته. وقد اعتذر البابا للبروتستانت عن مجزرة سانت بارتيليمي واعترف ضمنيا بالتعصب الكاثوليكي والأعمال الوحشية التي ارتكبوها بحق أخوانهم البروتستانت. فعلى الرغم من أنهم جميعا مسيحيون، إلا أن الحزازات المذهبية كانت شديدة بينهم، ولكن البروتستانت فعلوا الشيء ذاته مع الكاثوليك في البلدان التي كانوا يمثلون فيها الأغلبية.



الفصل التاسع

محاكم التفتيش

وإبادة المسلمين في الأندلس



الفصل التاسع

محاكم التفتيش وإبادة المسلمين في الأندلس

سقطت غرناطة -آخر قلاع المسلمين في إسبانيا- سنة (897 هـ=1492م)، وكان ذلك نذيرًا بسقوط صرح الأمة الأندلسية الديني والاجتماعي، وتبدد تراثها الفكري والأدبي، وكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسي التاريخ؛ حيث شهدت تلك الفترة أعمالاً بربرية وحشية ارتكبتها محاكم التحقيق (التفتيش)؛ لتطهير أسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان.

وهاجر كثير من مسلمي الأندلس إلى الشمال الإفريقي بعد سقوط مملكتهم؛ فراراً بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الأسبان لهم، وعادت أسبانيا إلى دينها القديم، أما من بقي من المسلمين فقد أجبر على التنصر أو الرحيل، وأفضت هذه الروح النصرانية المتعصبة إلى مطاردة وظلم وترويع المسلمين العزل، انتهى بتنفيذ حكم الإعدام ضد أمة ودين على أرض أسبانيا.

ونشط ديوان التحقيق أو الديوان المقدس الذي يدعمه العرش والكنيسة في ارتكاب الفظائع ضد الموريسكيين (المسلمين المتنصرين)، وصدرت عشرات القرارات التي تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم، فقد أحرق الكردينال "خمينيث" عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية،

وصدر أمر ملكي يوم (22 ربيع أول 917 هـ/20 يونيو 1511) يلزم جميع السكان الذي تنصروا حديثًا أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم، ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التي منعت التخاطب باللغة العربية وانتهت بفرض التنصير الإجباري على المسلمين، فحمل التعلق بالأرض وخوف الفقر كثيرًا من المسلمين على قبول التنصر ملاذًا للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهدًا للكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هي رحيل الإسلام عن الأندلس.

محاكم التفتيش

توفي فرناندو الخامس ملك إسبانيا في (17 ذي الحجة 921 هـ=23 يناير 1516م) وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة واختيار المحققين ذوي الضمائر الذين يخشون الله لكي يعملوا في عدل وحزم لخدمة الله، وتوطيد الدين الكاثوليكي، كما يجب أن يسحقوا طائفة محمد!

وقد لبث "فرناندو" زهاء عشرين عامًا بعد سقوط الأندلس ينزل العذاب والاضطهاد بمن بقي من المسلمين في أسبانيا، وكانت أداته في ذلك محاكم التحقيق التي أنشئت بمرسوم بابوي صدر في (رمضان 888 هـ= أكتوبر 1483م) وعين القس "توماس دي تركيمادا" محققًا عامًا لها ووضع دستورًا لهذه المحاكم الجديدة وعددًا من اللوائح والقرارات.

وقد مورست في هذه المحاكم معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى، وأزهقت آلاف الأرواح تحت وطأة التعذيب، وقلما أصدرت هذه المحاكم حكمًا بالبراءة، بل كان الموت والتعذيب الوحشي هو نصيب وقسمة ضحاياها، حتى إن بعض ضحاياها كان ينفذ فيه حكم الحرق في احتفال يشهده

الملك والأحبار، وكانت احتفالات الحرق جماعية، تبلغ في بعض الأحيان عشرات الأفـراد، وكان فرناندو الخامس من عشاق هذه الحفلات، وكـان يمتـدح الأحبـار المحققـين كلـما نظمـت حفلة منها.

وبث هذا الديوان منذ قيامه جوًا مـن الرهبـة والخـوف في قلـوب النـاس، فعمـد بعـض هؤلاء الموريسكيين إلى الفرار، أما الباقي فأبت الكنيسة الكاثوليكية أن تؤمن بإخلاصهم لـدينهم الذي أجبروا على اعتناقه؛ لأنها لم تقتنع بتنصير المسلمين الظاهري، بل كانت ترمي إلى إبادتهم.

شارل الخامس والتنصير الإجباري

تنفس الموريسكيون (المسلمون المنـصرون قـسراً) الـصعداء بعـد مـوت فرنانـدو وهبـت عليهم رياح جديدة من الأمل، ورجوا أن يكون عهد "شارل الخـامس" خـيرًا مـن سـابقه، وأبـدى الملك الجديد -في البداية- شـيئًا مـن اللـين والتـسامح نحـو المـسلمين والموريـسكيين، وجنحـت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال في مطـاردتهم، وكفـت عـن التعـرض لهـم بـسبب توسـط النبلاء والسادة الذين يعمل المسلمون في ضياعهم، ولكن هذه الـسياسة المعتدلـة لم تـدم سـوى بضعة أعوام، وعادت العناصر الرجعية المتعصبة في البلاط وفي الكنيسة، فغلبت كلمتهـا، وصـدر مرسوم في (16 جمادى الأولى 931 هـ=12 مارس 1524م) يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه، وإخراج كل من أبى النصرانية من إسبانيا، وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصر أو الخروج في المهلـة الممنوحة بالرق مدى الحياة، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس.

ولما رأى الموريسكيون هذا التطـرف مـن الدولـة الإسـبانية، اسـتغاثوا بـالإمبراطور شـارل الخامس، وبعثوا وفداً منهم إلى مدريد ليشرح له مظالمهم، فندب

شارل محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق، برئاسة المحقق العام لتنظر في شكوى المسلمين، ولتقرر ما إذا كان التنصير الذي وقع على المسلمين بالإكراه، يعتبر صحيحًا ملزمًا، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت.

وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة، بأن التنصير الذي وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة؛ لأن هؤلاء الموريسكيين سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه، فكانوا بذلك أحراراً في قبوله.

وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكي بأن يرغم سائر المسلمين الذين تنصروا كرهًا على البقاء في أسبانيا، باعتبارهم نصارى، وأن ينصر كل أولادهم، فإذا ارتدوا عن النصرانية، قضى عليهم بالموت أو المصادرة، وقضى الأمر في الوقت نفسه، بأن تحول جميع المساجد الباقية في الحالة إلى كنائس.

وكان قدر هؤلاء المسلمين أن يعيشوا في تلك الأيام الرهيبة التي ساد فيها إرهاب محاكم التحقيق، وكانت لوائح الممنوعات ترد تباعًا، وحوت أوامر غريبة منها: حظر الختان، وحظر الوقوف تجاه القبلة، وحظر الاستحمام والاغتسال، وحظر ارتداء الملابس العربية.

ولما وجدت محكمة تفتيش غرناطة بعض المخالفات لهذه اللوائح، عمدت إلى إثبات تهديدها بالفعل، وأحرقت اثنين من المخالفين في (شوال 936هـ/مايو 1529م) في احتفال ديني.

كان لقرارات هذا الإمبراطور أسوأ وقع لدى المسلمين، وما لبثت أن نشبت الثورة في معظم الأنحاء التي يقطنونها في سرقسطة وبلنسية وغيرهما، واعتزم المسلمون على الموت في سبيل الدين والحرية، إلا أن الأسبان كانوا يملكون السلاح والعتاد فاستطاعوا أن يخمدوا هذه الثورات المحلية باستثناء بلنسية التي كانت تضم

حشدًا كبيرًا من المسلمين يبلغ زهاء (27) ألـف أسرة، فإنهـا استعـصت علـيهم، لوقوعهـا على البحر واتصالها بمسلمي المغرب.

وقد أبدى مسلمو بلنسية مقاومة عنيفة لقرارات التنصير، ولجأت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية (بني وزير)، فجردت الحكومة عليهم قوة كبيرة مزودة بالمـدافع، وأرغمـت المـسلمين في النهاية على التسليم والخضوع، وأرسل إليهم الإمبراطور إعلان الأمان عـلى أن يتنـصروا، وعـدلت عقوبة الرق إلى الغرامة، وافتدى الأندلسيون من الإمبراطور حق ارتداء ملابسهم القوميـة بمبلـغ طائل.

وكانت سياسة التهدئة من شارل الخامس محاولـة لتهدئـة الأوضـاع في جنـوب الأنـدلس حتى يتفرغ للاضطرابات التي اندلعت في ألمانيـا وهولنـدا بعـد ظهـور مـارتن لـوثر وأطروحاتـه الدينية لإصـلاح الكنيـسة وانتـشار البروتـستانتية؛ لـذلك كـان بحاجـة إلى توجيـه كـل اهتمامـه واهتمام محاكم التحقيق إلى "الهراطقـة" في شـمال أوروبـا، كـما أن قيـام محـاكم التحقيـق بمـا يفترض أن تقوم به كان يعني إحراق جميع الأندلسيين؛ لأن الكنيسة تدرك أن تنصرهم شكلي لا قيمة لـه، يـضاف إلى ذلـك أن معظـم المـزارعين الأندلـسيين كـانوا يعملـون لحـساب النـبلاء أو الكنيسة، وكان من مصلحة هؤلاء الإبقاء على هؤلاء المزارعين وعدم إبادتهم.

وكان الإمبراطور شـارل الخـامس حيـنما أصـدر قـراره بتنـصير المـسلمين، وعـد بتحقيـق المساواة بينهم وبين النصارى في الحقوق والواجبات، ولكن هذه المساواة لم تتحقق قـط، وشـعر هؤلاء أنهم مـا زالـوا موضـع الريـب والاضـطهاد، ففرضـت علـيم ضرائـب كثـيرة لا يخـضع لهـا النصارى، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئًا فشيئًا، حتى أصبحوا أشبه بالرقيق والعبيد، ولمـا شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجـرة، صـدر قـرار في سـنة (948 هــ=1514م)، يحـرم عليهم تغيير مساكنهم، كما

حرم عليهم النزوح إلى بلنسية التي كانت دائمًا طريقهم المفضل إلى الهجرة، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من هذه الثغور إلا بترخيص ملكي، نظير رسوم فادحة. وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بشدة.

ولم تمنع هذه الشدة من ظهور اعتدال من الإمبراطور في بعض الأوقات، ففي سنة (950 هـ=1543م) أصدر عفوًا عن بعض المسلمين المتنصرين؛ تحقيقًا لرغبة مطران طليطلة، وأن يسمح لهم بتزويج أبنائهم وبناتهم من النصارى الخلص، ولا تصادر المهور التي دفعوها للخزينة بسبب الذنوب التي ارتكبوها.

وهكذا لبثت السياسة الأسبانية أيام الإمبراطور شارل الخامس (922 هـ=1516م) حتى (963هـ=1555م) إزاء الموريسكيين تتردد بين الشدة والقسوة، وبين بعض مظاهر اللين والعفو، إلا أن هؤلاء المسلمين تعرضوا للإرهاق والمطاردة والقتل ووجدت فيهم محاكم التحقيق الكنسية مجالاً مفضلاً لتعصبها وإرهابها.

الألخميادو

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الاستشهاد المحزن، الذي فرض عليها تحاول بكل وسيلة أن تستبقي دينها وتراثها، فكان الموريسيكيون بالرغم من دخولهم في النصرانية يتعلقون سراً بالإسلام، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية، وكانوا يحافظون على لغتهم العربية، إلا أن السياسة الإسبانية فطنت إلى أهمية اللغة في تدعيم الروح الإسلامية؛ لذلك أصدر الإمبراطور شارل الخامس سنة (932 هـ=1526م) أول قانون يحرم التخاطب بالعربية على الموريسكيين، ولكنه لم يطبق بشدة؛ لأن هؤلاء الموريسكيين دفعوا له (100) ألف دوقة حتى يسمح لهم بالتحدث بالعربية، ثم أصدر الإمبراطور فيليب الثاني سنة (964 هـ/1566م) قانونًا جديدًا يحرم التخاطب بالعربية، وطبق بمنتهى الشدة والصرامة، وفرضت

القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل، ومع ذلك وجد الموريسكيون في القشتالية متنفسًا لتفكيرهم وأدبهم، فكانوا يكتبونها سراً بأحرف عربية، وأسفر ذلك بمضي الزمن عن خلق لغة جديدة هي "ألخميادو" وهي تحريف إسباني لكلمة "الأعجمية"، ولبثت هذه اللغة قرنين من الزمان سراً مطموراً، وبذلك استطاعوا أن يحتفظوا بعقيدتهم الإسلامية، وألف بها بعض الفقهاء والعلماء كتبًا عما يجب أن يعتقد المسلم ويفعله حتى يحتفظ بإسلامه، وشرحوا آيات القرآن باللغة الألخميادية وكذلك سيرة النبي ﷺ، وكان من أشهر كتاب هذه اللغة الفقيه المسمى "فتى أبيرالو" وهو مؤلف لكتب التفسير، وتلخيص السنة، ومن الشعراء محمد ربدان الذي نظم كثيرًا من القصائد والأغنيات الدينية؛ وبذلك تحصن الموريسيكيون بمبدأ "التقية" فصمدوا في وجه مساعي المنصرين الذين لم تنجح جهودهم التبشيرية والتعليمية والإرهابية في الوصول إلى تنصير كامل لهؤلاء الموريسيكيين، فجاء قرار الطرد بعد هذه الإخفاقات.

ولم تفلح مساعي الموريسيكيين في الحصول على دعم خارجي فعال من الدولة العثمانية أو المماليك في مصر، رغم حملات الإغارة والقرصنة التي قام بها العثمانيون والجزائريون والأندلسيون على السفن والشواطئ الأسبانية، ودعم الثوار الموريسيكيين.

واستمرت محاكم التحقيق في محاربة هؤلاء المسلمين طوال القرن السادس عشر الميلادي، وهو ما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة في النفوس بقيت بالرغم من المحن الرهيبة وتعاقب السنين، ولعل من المفيد أن نذكر أن رجلاً أسبانيًا يدعى "بدية" توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة (1222هـ=1807م) أي بعد 329 سنة من قيام محاكم التفتيش.

محاكم التفتيش الاسبانية

في القرن السادس عشر أصبحت إسبانيا أكبر قوة كاثوليكية في العالم آنذاك. وتم إجبار كل المسلمين في قشتالة على التنصر في عام 1502، ثم تم إجبار المسلمين في أراغون على التنصر عام 1526. وكانت إسبانيا نموذجًا لدولة دينية سلطوية، فتتحكم وتعين الكنيسة فيها الملوك والأباطرة الذين يحكمون بحاكميه تسمى ظل الله في الأرض أو قانون الحق الإلهي. وللقضاء على ما سموه وقتها بالفساد فقد قامت بتأسيس محاكم تفتيش، واستهدفت من تم إجبارهم على التنصر من المسلمين واليهود ثم استهدفت المعتقدات المسيحية الأخرى وخاصة البروتستانتية.

قال الشاعر مقارناً حكم مسلمي الأندلس بحكم الإسبان :

حكمنا فكان العدل منا سجيّة ... وحكمتم فسال بالدم أبطح

وحسبكُمُ هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

أهدافها

كانت محاكم التفتيش في إسبانيا منذ القرن الثاني عشر موجهة ضد الكاثاريون الذين حوكموا كهراطقة. وفي 1477 أقنع رئيس الرهبنة الدومنيكي الملكة إيزابيلا بأن بعض اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية لا يزال يمارس اليهودية سراً فقامت بتشكيل محاكم خاصة للنظر في مصداقية هذا الإدعاء. كما شملت هذه المحاكمات المسلمين المتنصرين الذين اجبروا على اعتناق المسيحية عام 1502. وبحلول سنة 1571 أصبح 82% من المحاكمين من الموريسكو.

وكان القس "توماس دي تركيمادا"، يرأس هيئة التفتيش للبحث عن هؤلاء الهراطقه، فيقوم بوعظهم وتعذيبهم وقتلهم إن لم يعودوا إلى كنف الكنيسة

الكاثوليكية، وكان يسمى بالمفتش العظيم أو جراند إنكويستر، وكان يعدم واحدًا على الأقل من كل عشرة أشخاص يمثلون أمام محكمته وكان ذلك بأسلوب خجلت منه الكنيسة الكاثوليكية واعتذرت عنه للعالم. ويكفي أن ننقل ما سطره غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" حيث يقول عن محاكم التفتيش: «يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائضنا من قصص التعذيب والاضطهاد التي قام بها المسيحيون المنتصرين على المسلمين المنهزمين، فلقد عمدوهم عنوة، وسلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من الجموع. واقترح القس "بليدا" قطع رؤوس كل العرب دون أي استثناء ممن لم يعتنقوا المسيحية بعد، بما في ذلك النساء والأطفال، وهكذا تم قتل أو طرد ثلاثة ملايين عربي». وكان الراهب بيلدا قد قتل في قافلة واحدة للمهاجرين قرابة مئة ألف في كمائن نصبها مع أتباعه. وكان بيلدا قد طالب بقتل جميع العرب في أسبانيا بما فيهم المتنصرين، وحجته أن من المستحيل التفريق بين الصادقين والكاذبين فرأى أن يقتلوا جميعاً بحد السيف، ثم يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، فيدخل النار من لم يكن صادقاً منهم. يقول د. لوبون: «الراهب بليدي أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من 140 ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقية».[ادعاء غير موثق منذ 172 يوماً]

تطبيقها

كانت المحاكم غالباً ما تستعمل التعذيب في انتزاع الاعترافات وخاص في القرن الثاني عشر وأثناء محاكم اليهود السفرديين. كما كان المحاكمون غالباً ما يعتمدون على شهادة جيران المتهمين في التحقيق من التهم المنسوبة إليهم. وقام البابا في البداية بنشر إعلان ذكر فيه عدم شرعية هذه المحاكم غير أن ضغط ونفوذ ملوك

إسبانيا أدى إلى إلغاء هذه الدعوة وإعطاء السلطات كافة الصلاحيات الدينية في هذه المحاكم.

غير أن الموريسكو لم يتعرضوا لمثل هذه المعاملات وغالباً ما استخدم الكرادلة في حملات تبشير إلى المناطق التي انتشر فيها هؤلاء. وعند فشل هذه الحملات عمدت السلطات إلى ترحيلهم بشكل قسري إلى المغرب حيث حرم عليهم اصطحاب مجوهراتهم وأموالهم التي تركت للإسبان الذين استوطنوا بيوتهم لاحقاً، وتم هذا سنة 1609 عندما رحل مئات الآلاف من المسلمين "المتنصرين".

كانت محاكم التفتيش وسيلة ملوك أسبانيا الصليبيين لتطهير أسبانيا من المسلمين. وذلك برغم المعاهدة الموقعة منهم عندما سقطت غرناطة -آخر قلاع المسلمين في إسبانيا- سنة (898 هـ \ 1492م). حيث نصت المعاهدة بين أبي عبد الله الصغير والملوك الكاثوليك وضمنها البابا وأقسم عليها: "تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال إبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وإقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كما كذلك وألا يدخل نصراني دار المسلم ولا يغصبوا أحدا....و ألا يؤخذ أحد بذنب غيره وألا يُكره من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ولا ينظر نصراني على دور المسلمين ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله... ولا يمنع مؤذن ولا مصلي ولا صائم ولا غيره في أمور دينه".[ادعاء غير موثق منذ 172 يوماً]

تم نقض المعاهدة كلياً. وتم حظر اللغة العربية، وأحرق الكردينال "أكزيمينيس" عشرات الآلاف من كتب المسلمين. يقول غوستاف لوبون: "ظن رئيس الأساقفة أكزيمينيس أنه بحرقه مؤخرا ما قدر على جمعه من كتب أعدائه

العرب (أي ثمانين ألف كتاب) محا ذكراهم من الأندلس إلى الأبد. فما دَرَى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد". وفي عام 1500 أجبر المسلمون في غرناطة على تسليم أكثر من 15 مليون كتاب تتميز بتجليدات زخرفية لا تقدر بثمن، فقد تمّ حرقها وبقي منها بعض الكتب الطبية فقط.[ادعاء غير موثق منذ 172 يوماً]

ثم تم إجبار المسلمين على التنصُّر. إلا أن معظم هذا الاعتناق الديني كان بالاسم فقط: إذ كان المسلمون يمارسون الطقوس الدينية المسيحية، إلا أنهم استمروا في تطبيق الدين الإسلامي سراً. وكانت هناك محظورات كثيرة منها: حظر الختان، وحظر الوقوف تجاه القبلة، وحظر الاستحمام والاغتسال، وحظر ارتداء الملابس العربية. فإذا عُلم أن أحداً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلا لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام. وكذلك لو وجدوا في بيته مصحفا، أو امتنع عن الطعام في رمضان، أو امتنع عن شرب الخمر وأكل الخنزير. وكانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم، فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته. وتعتبر المحكمة الكاثوليكية والرأي العام أن تصرفات مثل تناول "الكوسكس"، واستخدام الحناء عادات غير مسيحية، يجب معاقبة فاعلها.[ادعاء غير موثق منذ 172 يوماً]

وكان الإمبراطور شارل الخامس حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين، وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين المسيحيين في الحقوق والواجبات، ولكن هذه المساواة لم تتحقق قط، وشعر هؤلاء أنهم ما زالوا موضع الريب والاضطهاد، ففرضت عليم ضرائب كثيرة لا يخضع لها المسيحيون، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئاً فشيئًا، حتى أصبحوا أشبه بالرقيق والعبيد، ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى

الهجرة، صدر قرار في سنة (948 هـ=1514م)، يحرم عليهم تغيير مساكنهم، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية التي كانت دائمًا طريقهم المفضل إلى الهجرة. وأصدر الملك شارل كانت قراراً أن كل شخص يطمح لشغل وضيفة في أسبانيا عليه إثبات عدم وجود أي عضو يهودي أو مسلم في عائلته منذ أربعة أجيال على الأقل.[ادعاء غير موثق منذ 172 يوماً]

ولكن حتى هذا الحل لم ينجح كليا في حل المشكلة الإسلامية في إسبانيا فكان اللجوء إلى الطرد الجماعي في القرن السابع عشر، أما الخسائر التي ستترتب عن الطرد فتم تعويضها بشكل كبير بالأرباح الناتجة عن مصادرة أملاك المورسكيين. حيث أصدر الملك فيليب الثالث قراراً بطرد مئات الآلاف من الموريكسيين بعد أن اقتنع بفشل محاكم التفتيش في إجبار المسلمين على ترك دينهم، على أن يبقى الأطفال الذين كانت أعمارهم بين العاشرة أو أقل في إسبانيا ليقوم الرهبان أو أي أشخاص آخرين موثوق بهم بتعليمهم مع إبقائهم عبيداً بغير زواج. فما بين عامي 1609-1614 تم طرد ما لا يقل عن 500 ألف شخص إلى البلدان الإسلامية المجاورة كالمغرب وتونس والجزائر بل وبعض البلدان المسيحية الأخرى، بعد نهب ومصادرة ثرواتهم وأملاكهم. وكان سكان إسبانيا حوالي 8 ملايين نسمة. وقد تمت إبادة كثير منهم أثناء هذا الترحيل حيث تلقيهم السفن بالبحر ليموتوا غرقاً. وقد أشار "هنري تشارلز لي" بعد دراسة المصادر المعاصرة أن نسبة وفاة المسلمين تقع ما بين ثلثي وثلاثة أرباع مجموع عددهم

وقد أدى هذا النفي لإدخال إسبانيا في أحلك فترة في تاريخها، حيث أن الكثير من الأراضي الخصبة أصبحت أراضي موات، واندثرت أكثر الحرف ازدهاراً (كالبناء وتنظيم السقاية والنقل). لم يبق من الموريكسيين بعد الطرد إلا القليل مختفين بدينهم. أخر ذكر لهم في السجلات كان تقريرا رُفع إلى الملك سنة 1769

يتضمن شكوكا حول أشخاص متهمين بالإسلام سرّا. ولعل من المفيد أن نذكر أن رجلاً أسبانيًا يدعى "بدية" توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة (1222هـ=1807م) أي بعد 329 سنة من قيام محاكم التحقيق. وانتهت محاكم التفتيش رسمياً في 15 حزيران 1834. رغم بقاء العديد من يؤيدها إلى يومنا الحالي، حتى أنه تقرر في نهاية عام 1960 وجوب إضافة اسم "جوان دو ريبيرا" (مخطط عملية الطرد والإبادة وخطف الأطفال) إلى قائمة القديسيين. [ادعاء غير موثق منذ 172 يوماً]

طرق التعذيب

التعذيب من سمات محاكم التفتيش الإسبانية

مورست في هذه المحاكم معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى، وأزهقت آلاف الأرواح تحت وطأة التعذيب. ومن أنواع التعذيب: إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وربط يدى المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية على النار، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك. وكثيراً ما كانت تصدر أحكام إعدام حرقاً، وكانت احتفالات الحرق جماعية، تبلغ في بعض الأحيان عشرات الأفراد، وكان الملك فرناندو الخامس من عشاق هذه الحفلات. وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيا، وأيضا أحواض يقيّد فيها الرجل ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت. كانوا أيضا يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة.[ادعاء غير موثق منذ 172 يوماً]

وكان دستور محاكم التفتيش فييجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتنبش قبورهم. كما يتم حرمان أقاربهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة.

وتمثل محاكم التفتيش أحد أسوأ فصول التاريخ الغربي دموية تجاه المسلمين، وقد امتدت وحشيتها المفرطة لتطال النصارى أيضاً فيما بعد؛ ولذلك كان من الطبيعي ألا يتوقف المؤرخون والمستشرقون الغربيون عندها إلا نادراً في محاولة منهم لتجاوز وقائعها السوداء، بل نجدهم في حالات أخرى كثيرة يحاولون وضع التبريرات لها بادعاء أنها كانت أخطاء غير مقصودة ارتكبها القساوسة في محاولتهم للحفاظ على المسيحية بعد خروج المسلمين من الأندلس، فنجد مثلاً المستشرق البريطاني (وول سميث) يعلن أن الكنيسة ليست مسؤولة مباشرة عن الجرائم التي ارتكبت عبر محاكم التفتيش، ولكن كان على رجال الدين المسيحي في إسبانيا أن يخوضوا معركة ضد الوجود الإسلامي بعد خروج العرب من أسبانيا فاضطروا إلى محاكم التفتيش التي تمادى القائمون عليها في تصرفاتهم فيما بعد[1].

وهكذا عند (سميث) وغيره من المؤرخين والمستشرقين النصارى تتحول محاكم التفتيش إلى (خطأ) غير مقصود له تبريراته، بل يصير الإسلام عندهم هو المسؤول عن تلك المحاكم؛ لأنه دفع بالمسيحيين إلى استنباط محاكم التفتيش ليصدوا تمدده في الغرب!!

على أي حال، فإن السواد الذي غطى تاريخ محاكم التفتيش لم تستطع السنوات أن تزيله من ذاكرة التاريخ العالمي، وحتى الكنيسة عينها لم تعد قادرة على تجاهل مسؤوليتها المباشرة عن الفظائع التي ارتكبت بحق المسلمين من خلال تلك

(1) وول سميث تاريخ أوروبا في العصور الوسطى دار الحقائق بيروت 1980م.

المحاكم؛ ولهذا نجد أنه مثلاً في أواسط العام 2002م قدمت مجموعة مكونة من 30 مؤرخاً من مختلف أنحاء العالم مشروع قرار إلى البابا بولس الثاني حول إمكان اعتذار الكنيسة الكاثوليكية عن محاكم التفتيش وجرائمها بحق المسلمين، وجاء مشروع المؤرخين الغربيين من بين التحضيرات النصرانية لاستقبال الألفية الثالثة للميلاد[1].

وفي هذه المقالة المختصرة نقف عند محاكم التفتيش مستعرضين بعض فصولها، وسنجد أنها بدأت عندما حانت نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس، وسقوط آخر مدينة إسلامية بيد الاسبان وهي غرناطة.

لقد استمر حكم المسلمين (800عام) للأندلس من دون انقطاع، إلا أن الافتتان بالدنيا ونعيمها الزائل، والتحالف مع الأعداء وموالاتهم ضد الإخوة، والثقة في الواشين، وتقريب الأعداء، والاستعانة بهم في القضاء على الإخوة كل هذه الأسباب عجّلت بانهيار الدولة الإسلامية في الأندلس، وأضاعت أرضاً إسلامية فتحت من قبل على جثث وجماجم المقاتلين الشهداء من المسلمين العظام، الذين أرادوا إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، دون ملل أو كلل، حتى سطع نور الإسلام ثمانية قرون على هذه الأرض، ولم يبق من هذه الدولة إلا (غرناطة) التي حاصرها الاسبان.

كانت غرناطة مدينة جميلة في جنوب إسبانيا عاصمة بني زيري من ملوك الطوائف، وعاصمة بني الأحمر، وقد استطاع الأسبان أن يوقعوا الفتنة بين خلفاء علي بن الحسن، ولما تم لهم ذلك حاصرواغرناطة، وأرسل فرديناند ملك إسبانيا رسله إلى قادة غرناطة المسلمة يطلب منهم الاستسلام فرفضوا، فنزل جيش إسباني

(1) جريدة الجماهير: 222001م حلب.

مكوَّن من (25) ألف جندي، واتجهوا صوب المزارع والحدائق وخرّبوها عن آخرها؛ حتى لا يجد المسلمون ما يأكلونه أو يقتاتون عليه، ثم جهزت ملكة إسبانيا جيشاً آخر من (500) ألف مقاتل لقتال المسلمين في القلاع والحصون الباقية، وبعد قتال طويل اجتمع العلماء والفقهاء في قصر الحمراء واتفقوا على الاستسلام، واختاروا الوزير أبا القاسم عبد الملك لمفاوضة ملك اسبانيا فرديناند[1].

اتفاقية التسليم:

تم إبرام معاهدة تنص على أن يسلم حكام غرناطة المدينة للأسبان لقاء ضمان خروج الحكام بأموالهم إلى إفريقيا، كما تضمنت المعاهدة ثمانية وستين بنداً منها: تأمين الصغير والكبير على النفس والمال والأهل، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم، وأن تبقى لهم شريعتهم يتقاضون فيها، وأن تبقى لهم مساجدهم وأوقافهم، وألا يدخل الكاثوليك دار مسلم، وألا يغصبوا أحداً، وألا يولى على المسلمين إلا مسلم، وأن يُطلق سراح جميع الأسرى المسلمين، وألا يؤخذ أحد بذنب غيره؛ وألا يُرغم من أسلم من الكاثوليك على العودة إلى دينه، وألا يعاقب أحد على ما وقع ضد الكاثوليكية في زمن الحرب، وألا يدخل الجنود الأسبان إلى المساجد، ولا يلزم المسلم بوضع علامة مميزة، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم من أمور دينه... وقد وقع على المعاهدة الملك الإسباني والبابا في روما، وكان التوقيعان كافيين لكي تكون المعاهدة ضمانة للمسلمين في إسبانيا، وبناء على هذه المعاهدة خرج أبوعبد الله ابن أبي الحسن ملك غرناطة صباح يوم (211492م)، من قصر الحمراء وهو يبكي كالنساء حاملاً مفاتيح مدينته وملكه الزائل فأعطاها الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند.

(1) الدكتور طاهر أحمد مكي مسلم إسباني أمام محاكم التفتيش مجلة الدوحة قطر 1981م.

فصول الاضطهاد بعد نقض العهد:

الذي حدث أنه فور دخول الأسبان إلى غرناطة نقضوا المعاهدة التي أبرموها مع حكامها المسلمين؛ إذ كان أول عمل قام به الكاردينال مندوسي عند دخول الحمراء هو نصب الصليب فوق أعلى أبراجها، وترتيل صلاة الحمد الكاثوليكية، وبعد أيام عدة أرسل أسقف غرناطة رسالة عاجلة للملك الإسباني يعلمه فيها أنه قد أخذ على عاتقه حمل المسلمين في غرناطة وغيرها من مدن إسبانيا على أن يصبحوا كاثوليكاً؛ وذلك تنفيذاً لرغبة السيد المسيح عليه السلام الذي ظهر له، وأمره بذلك كما ادَّعى، فأقره الملك على أن يفعل ما يشاء لتنفيذ رغبة السيد المسيح عليه السلام، عندها بادر الأسقف إلى احتلال المساجد ومصادرة أوقافها، وأمر بتحويل المسجد الجامع في غرناطة إلى كنيسة، فثار المسلمون هناك دفاعاً عن مساجدهم، لكن ثورتهم قمعت بوحشية مطلقة، وتم إعدام مئتين من العلماء المسلمين حرقاً في الساحة الرئيسة بتهمة مقاومة المسيحية[1].

وظهرت محاكم التفتيش تبحث عن كل مسلم لتحاكمه على عدم تنصره، فهام المسلمون على وجوههم في الجبال، وأصدرت محاكم التفتيش الإسبانية تعليماتها للكاردينال (سيسزوس) لتنصير بقية المسلمين في أسبانيا، والعمل السريع على إجبارهم على أن يكونوا نصارى، وأحرقت المصاحف، وكتب التفسير، والحديث، والفقه، والعقيدة، وكانت محاكم التفتيش تصدر أحكاماً بحرق المسلمين على أعواد الحطب وهم أحياء في ساحة من ساحات مدينة غرناطة، أمام الناس، وقد استمرت هذه الحملة الظالمة على المسلمين حتى عام(1577م)، وراح ضحيتها حسب بعض المؤرخين الغربيين أكثر من نصف مليون مسلم، وتم تنصير البقية

(1) وائل علي حسين محاكم التفتيش والمسؤولية الغربية مجلة الراية العدد 186 بيروت 1982م.

الباقية من المسلمين بالقوة، ثم صدر مرسوم بتحويل جميع المساجد إلى كنائس، وفي يوم (12101501)، صدر مرسوم آخر بإحراق جميع الكتب الإسلامية والعربية، فأحرقت آلاف الكتب في ساحة الرملة بغرناطة، ثم تتابع حرق الكتب في جميع المدن والقرى، ثم جاءت الخطوة التالية، عندما بدأ الأسقف يقدم الإغراءات الكثيرة للأسر المسلمة الغنية حتى يعتنقوا الكاثوليكية، ومن تلك الإغراءات: تسليم أفرادها مناصب عالية في السلطة، وقد استجاب له عدد محدود جداً من الأسر الغنية المسلمة، وهو ما أثار غضب العامة من المسلمين فهاجموا أسر الذين اعتنقوا الكاثوليكية وأحرقوا بعضها، عندها أعلن الكاردينال (خيمينيث) أن المعاهدة التي تم توقيعها مع حكام غرناطة لم تعد صالحة أو موجودة، وأعطى أوامره بتنصير جميع المسلمين في غرناطة دون الأخذ برأيهم، أو حتى تتاح لهم فرصة التعرف إلى الدين الجديد الذي يساقون إليه، ومن يرفض منهم عليه أن يختار أحد أمرين:

1 - إما أن يغادر غرناطة إلى أفريقيا دون أن يحمل معه أي شيء من أمواله، ودون راحلة يركبها هو أو أحد أفراد أسرته من النساء والأطفال، وبعد أن يشهد مصادرة أمواله.

2 - وإما أن يُعدم علناً في ساحات غرناطة باعتباره رافضاً للنصرانية.

كان من الطبيعي أن يختار عدد كبير من أهالي غرناطة الهجرة بدينهم وعقائدهم، فخرج قسم منهم تاركين أموالهم سيراً على الأقدام، غير عابئين بمشاق الطرقات، ومجاهل وأخطار السفر إلى أفريقيا من دون مال أو راحلة، وبعد خروجهم من غرناطة كانت تنتظرهم عصابات الرعاع الإسبانية والجنود الأسبان، فهاجموهم وقتلوا معظمهم، وعندما سمع الآخرون في غرناطة بذلك آثروا البقاء

بعد أن أدركوا أن خروجهم من إسبانيا يعني قتلهم، وبالتالي سيقوا في قوافل للتنصير والتعميد كرهاً، ومن كان يكتشفه الأسبان أنه قد تهرب من التعميد تتم مصادرة أمواله وإعدامه علناً، وقد فرَّ عدد كبير من المسلمين الذين رفضوا التعميد إلى الجبال المحيطة في غرناطة محتمين في مغاورها وشعابها الوعرة، وأقاموا فيها لفترات، وأنشأوا قرى عربية مسلمة، لكن الملك الإسباني بنفسه كان يشرف على الحملات العسكرية الكبيرة التي كان يوجهها إلى الجبال، حيث كانت تلك القرى تُهدم ويُساق أهلها إلى الحرق أو التمثيل بهم وهم أحياء في الساحات العامة في غرناطة[1].

انتشار الاضطهاد في كل الأندلس:

على المنوال نفسه، سارت حملات كاثوليكية في بقية المدن الإسبانية، وقد عُرف المسلمون المتنصرون باسم المسيحيين الجدد تمييزاً لهم عن المسيحيين القُدامى، وعرفوا أيضاً باسم (الموريسكوس) أي المسلمين الصغار، وعوملوا باحتقار من قبل المسيحيين القدامى، وتوالت قرارات وقوانين جديدة بحق (الموريسكيين)؛ فعلى سبيل المثال صدر في العام (1507م) أمر بمنع استعمال اللغة العربية، ومصادرة أسلحة الأندلسيين، ويعاقب المخالف للمرة الأولى بالحبس والمصادرة، وفي المرة الثانية بالإعدام، وفي العام (1508م) جددت لائحة ملكية بمنع اللباس الإسلامي، وفي سنة (1510م) طُبِّقت على الموريسكيين ضرائب اسمها (الفارضة)؛ وفي سنة (1511م) جددت الحكومة قرارات بمنع اللباس وحرق المتبقي من الكتب الإسلامية، ومنع ذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية.

---

(1) نفس المصدر.

في حمأة تلك الحملة الظالمة على المسلمين، كما رأينا، تم تشكيل محاكم التفتيش التي مهمتها التأكد من (كثلكة) المسلمين، وقد تبين للمحاكم أن كل أعمال (الكثلكة) لم تؤت نفعاً، فقد تكثلك المسلمون ظاهراً، ولكنهم فعلياً يمارسون الشعائر الإسلامية فيما بينهم سراً، ويتزوجون على الطريقة الإسلامية، ويرفضون شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، ويتلون القرآن في مجالسهم الخاصة، ويقومون بنسخه وتداوله فيما بينهم، بل إنهم في منطقة بلنسية أدخلوا عدداً من الكاثوليك الإسبان في الإسلام، وعلموهم اللغة العربية، والشعائر الإسلامية.

لقد جاءت تقارير محاكم التفتيش صاعقة على رأس الكاردينال والملك الإسباني والبابا، في أحد التقارير التي رفعها أسقف غرناطة الموكل بتنصير مسلمي غرناطة للكاردينال، ورد أن (الموريسكوس) لم يتراجعوا خطوة واحدة عن الإسلام، وأنه لم يتم إيجاد طرق فاعلة لوقفهم، وإن لم يتم إيجاد تلك الوسائل فإنهم سيدخلون مسيحيي غرناطة وبلنسية ومداً أخرى في الإسلام بشكل جماعي.

وبناء على هذه التقارير تقرر إخضاع جميع (الموريسكوس) في إسبانيا إلى محاكم التفتيش من دون استثناء، وكذلك جميع المسيحيين الذين يُشك بأنهم قد دخلوا الإسلام، أو تأثروا به بشكل يخالف معتقدات الكنيسة الكاثوليكية، ولتبدأ أكثر الفصول وحشية ودموية في التاريخ الكنسي الغربي؛ إذ بدأت هذه المحاكم تبحث بشكل مهووس عن كل مسلم لتحاكمه، ومحاكم التفتيش في الواقع نمط عجيب غريب من المحاكم، فقد مُنحت سلطات غير محدودة، ومارست أساليب في التعذيب لم يعرفها أو يمارسها أكثر الطغاة وحشية عبر التاريخ، وقد بدأت تلك المحاكم أعمالها بهدم الحمامات العربية، ومنع الاغتسال على الطريقة العربية، ومنع ارتداء الملابس العربية، أو التحدث باللغة العربية، ومنع الزواج على الطريقة العربية أو الشريعة الإسلامية، ووضعت عقوبات صارمة جداً بحق كل من يثبت أنه

يرفض شرب الخمر، أو تناول لحم الخنزير، وكل مخالفة لهذه الممنوعات والأوامر تعد خروجاً على الكاثوليكية، ويحال صاحبها إلى محاكم التفتيش.

الوقوف في محكمة التفتيش:

كان المتهم الذي يمثل أمام المحكمة يخضع لاختبار أولي، وهو أن يشرب كؤوساً من الخمر يحددها المحاكمون له، ثم يُعرض عليه لحم الخنزير ويطلب منه أن يأكله، وبذلك يتم التأكد من المتهم أنه غير متمسك بالدين الإسلامي وأوامره، ولكن هذا الامتحان لا يكون عادة إلا خطوة أولى يسيرة جداً إزاء ما ينتظر المتهم من رحلة طويلة جداً من التعذيب؛ إذ يُعاد بعد تناوله الخمر وأكل لحم الخنزير إلى الزنزانة في سجن سري، ودون أن يعرف التهمة الموجهة إليه، وهو مكان من أسوأ الأمكنة، مظلم، ترتع فيه الأفاعي والجرذان والحشرات، وتنتشر فيه الأوبئة، وفي هذا المكان على المتهم أن يبقى أشهراً طويلة دون أن يرى ضوء الشمس أو أي ضوء آخر، فإن مات، فهذا ما تعتبره محاكم التفتيش رحمة من الله وعقوبة مناسبة له، وإن عاش، فهو مازال معرضاً للمحاكمة، وما عليه إلا أن يقاوم الموت لمدة لا يعرف أحد متى تنتهي، وقد يُستدعى خلالها للمحكمة لسؤاله وللتعذيب.

وعادة كان يسأل المحقق في المرة الأولى إن كان يعرف لماذا ألقي القبض عليه وألقي في السجن؟ وما التهم التي يمكن أن توجه إليه؟ ثم يطلب منه أن يعود إلى نفسه، وأن يتأمل واقعه، وأن يعترف بجميع الخطايا التي يمليها عليه ضميره، ويسأله عن أسرته وأصدقائه ومعارفه وجميع الأماكن التي عاش فيها، أو كان يتردد عليها، وخلال إجابة المتهم لا يُقاطع، يُترك ليتحدث كما يشاء، ويسجل عليه الكاتب كل ما يقول، ويُطلب منه أن يؤدي بعض الصلوات المسيحية؛ ليعرف المحققون إن كان بالفعل أصبح مسيحياً أو ما زال مسلماً؛ ودرجة إيمانه بالمسيحية.

وبعد هـذه المقـابلات البطيئـة الروتينيـة، يقـرأ أخـيراً المـدَّعي العـام عـلى المـتهم قائمـة الاتهامات الموجهة إليه، وهي اتهامات تم وضعها بنـاء عـلى مـا اسـتنتجته هيئـة المحكمـة مـن استنطاق المتهم، ولا تستند إلى أدلة من نوع ما، ولا يهم دفاع المـتهم عـن نفـسه؛ إذ إن قـانون المحكمة الأساسي أن الاعتراف سيد الأدلة، وما على المتهم إلا أن يعترف بالتهم الموجهـة إليـه، ولا تهم الأساليب التي يؤخذ بها الاعتراف، فإن اعترف المتهم تهربـاً مـن التعـذيب الـذي سـينتظره، أضاف المدعي العام إليه تهماً أخرى.

وفي النهاية يرى المحقق أن المتهم يجب أن يخضع للتعذيب؛ لأنه إنما يعترف تهربـاً مـن قول الحقيقة، أي: أن التعذيب لابد منه، سواء اعترف المتهم أم لم يعترف[1].

من أساليب التعذيب في محاكم التفتيش:

يشتمل التعذيب على كل ما يخطر على البال من أساليب وما لا يخطر منها، وتبدأ بمنـع الطعام والشراب عن المتهم حتى يصبح نحيلاً غير قـادر عـلى الحركـة، ثـم تـأتي عمليـات الجلـد ونزع الأظفار، والكي بالحديد المحمي، ونزع الـشعر، ومواجهـة الحيوانـات الـضارية، والإخـصاء، ووضع الملح على الجروح، والتعليق من الأصابع... وخلال كل عمليات التعذيب يـسجل الكاتـب كل ما يقوله المتهم من صراخ وكلمات وبكاء، ولا يستثنى من هـذا التعـذيب شـيخ أو امـرأة أو طفل، وبعد كل حفلة تعذيب، يترك المتهم يوماً واحداً ثم يُعرض عليه ما قاله في أثناء التعـذيب من تفسيرات القضاة، فإذا كان قد بكى وصرخ: يا اللـه، يفسر القاضي أن اللـه التي

---

(1) عبد الرحمن حمادي نحو منهج جديد لإعادة كتابة التاريخ العربي ندوة إعادة كتابة التاريخ العربي الرباط 1991م مجلة الوحدة عدد خاص عن الندوة الرباط 1991م.

لفظها يقصد بها رب المسلمين، وعلى المتهم أن ينفي هـذا الاتهـام أو يؤكـده؛ وعـلى أي حال يجب أن يتعرض لتعذيب من جديد؛ وهكذا يستمر في سلسلة لا تنتهي من التعذيب.

أخيراً، وقبل أربع وعشرين ساعة من تنفيذ الحكم يـتم إخطـار المـتهم بـالحكم الـصادر بحقه، وكانت الأحكام على أنواع ثلاثة:

الأول: البراءة: وهو حكم نادراً ما حكمت به محـاكم التفتـيش، وعنـدها يخـرج المـتهم بريئاً، لكنه يعيش بقية حياته معاقاً محطماً بسبب التعذيب الـذي تعـرض لـه، وعنـدما يخـرج يجد أن أمواله قد صودرت، ويعيش منبوذاً؛ لأن الآخرين يخافون التعامل معه، أو التحدث إليه؛ خوفاً من أن يكون مراقباً من محاكم التفتيش، فتلصق بهم نفس التهم التي ألصقت به.

ثانياً: الجلد: وقد كان المتهم يساق إلى مكان عام عارياً تماماً وينفذ فيه الجلد، وغالباً مـا كان يموت تحت وطأة الجلد، فإن نفذ وكتبت له الحيـاة يعـيش كوضـع المحكـوم بـالبراءة مـن حيث الإعاقة ونبذ المجتمع له.

ثالثاً: الإعدام: وهو الحكم الأكثر صدوراً عن محاكم التفتيش؛ ويتم الإعدام حرقـاً وسـط ساحة المدينة.

وفي بعض المراحل صـارت المحـاكم تـصدر أحكامـاً بالـسجن، وبـسبب ازدحـام الـسجون صارت تطلق سراح بعضهم وتعدم آخـرين مـن دون أي محـاكمات، وفي بعـض الحـالات تـصدر أحكاماً بارتداء المتهم لباساً معيناً طوال حياته، مع إلـزام النـاس بـسبه كلـما سـار في الـشارع أو خرج من بيته، وفي هذه الأحكام كما قلنا لا يُستثنى أحد بسبب العمر، فهنـاك وثـائق تـشير إلى جلد طفلة عمرها أحد عشر عاماً

مئتـي جلـدة، وجلـد شـيخ في التـسعين مـن عمـره ثلاثمائـة جلـدة، وحتـى المـوتى كـانوا يخضعون للمحاكمة فيتم نبش قبورهم[1].

ثبات المسلمين رغم ما نالهم:

كل هذه المحاكم والأسـاليب لم تـنجح في إجبـار المـسلمين عـلى تـرك ديـنهم كـما تريـد الكنيسة التي أدركت مدى عمق الإيمان بالعقيـدة الإسـلامية في نفـوس (الموريـسكيين) فقـررت إخـراجهم مـن إسـبانيا، فأصـدر مجلـس الدولـة بـالإجماع في (3011608م) قـراراً بطـرد جميـع (الموريسكيين) من إسبانيا، ولم يحـل شـهر أكتـوبر عـام (1609م) حتـى عمَّـت مـوانئ المملكـة وبلنـسية مـن لقنـت جنوبـاً إلى بنـي عـروس شـمالاً حركـة كبـيرة، فرحـل بـين (91606م) إلى (11610م) نحو (120) ألف مسلم من موانيء لقنت ودانيـة والجابيـة ورصـافة وبلنـسية وبنـي عروس وغيرها.

وفي (51611م) صدر قرار إجرامي للقضاء على المتخلفين من المسلمين في بلنسية، يقـضي بإعطاء جائزة ستين ليرة لكل من يأتي بمسلم حي، وله الحق في استعباده، وثلاثين لـيرة لمـن يـأتي برأس مسلم قتل، وقد بلغ عدد من طُرِد من إسبانيا في الحقبة بين سـنتي (1609 1614م) نحـو (327. 000) ألف شخص، مات منهم (65. 000) ألف غرقـاً في البحـر، أو قتلـوا في الطرقـات، أو ضحية المرض، والجوع، والفاقة، وقد استطاع (32. 000) ألف شخص من المطرودين العـودة إلى ديارهم في الأندلس، بينما بقي بعضهم متستراً في بلاده بعد الطرد العام لهم، وقد استمر الوجود الإسلامي بشكل سري ومحدود في الأندلس في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

(1) طاهر أحمد مكي مصدر سبق ذكره.

وهكذا حكمت محاكم التفتيش في غرناطة سنة (1726م) على ما لا يقل عن (1800) شخص، بتهمة إتباع الدين الإسلامي، وفي (951728م)، احتفلت غرناطة ب(أوتوداف) ضخم، حيث حكمت محاكم التفتيش على 64 غرناطياً بتهمة الانتماء للإسلام، وفي (10101728)، حكمت محكمة غرناطة مرة أخرى على ثمانية وعشرين شخصاً بتهمة الانتماء إلى الإسلام، وتابعت محاكم غرناطة القبض على المتهمين بالإسلام إلى أن طلبت بلدية المدينة من الملك سنة (1729م) طرد كل الموريسكيين حتى تبقى المملكة نقية من الدم الفاسد.

وفي سنة (1769م) تلقى ديوان التفتيش معلومات عن وجود مسجد سري في مدينة قرطاجنة مقاطعة مرسي، فتم إلقاء القبض على أكثر من مائة (مورسكي) حوكموا وأعدم معظمهم علناً[1].

تعذيب النصارى أيضاً:

إننا مهما أسهبنا في استعراض محاكم التفتيش فإننا لن نلم إلا بجزء يسير جداً من صفحاتها السوداء الوحشية، ولن نستطيع استعراض إلا جزء يسير جداً من جرائمها التي طالت مسلمي إسبانيا، وقد بلغ الرعب الذي سببته تلك المحاكم حداً لا يوصف بين سكان إسبانيا، فقد كان جرُّ أيِّ إنسان إلى محاكم التفتيش عملية سهلة، وقد يكون الاتهام مجرد إشاعة، أو يذهب الإنسان بنفسه ليعترف رعباً، أو دليلاً على حسن نيته، بلفظ تفوه به عرضاً ودون أن يعني له شيئاً، ويخشى أن يكون قد سمعه أحد، وفتح الباب على مصراعيه أمام الضغائن الشخصية، كمن يطمع في زوجة جاره، فيشي به، والمالك الذي يريد أن يهرب من أجر عامله يشي به، والتاجر الذي يخشى من منافسة زميل له يشي به، حتى الأطفال في أثناء لعبهم مع بعضهم

(1) وائل علي حسين مصدر سبق ذكره.

بعضاً كانوا معرضين للاتهام، كأن يذهب طفل ويشي بطفل آخر متهماً إيّاه أنه قال كذا وكذا في أثناء اللعب، فيلقى القبض على الطفل المتهم ويحاكم، وغالباً يموت؛ لأنه لا يتحمل أهوال التحقيق والتعذيب والسجن... وهكذا صار الطريق واسعاً وعريضاً لكل من يريد أن يتخلص من أي إنسان، وأيٌّ تهمة صالحة لأن تدفع بمسلم سابق إلى أعماق السجون؛ سواء أكان هذا المسلم السابق رجلاً أم طفلاً أم شيخاً مسناً.

ومن الإنصاف أن نذكر أن ضحايا التفتيش لم يكونوا فقط من المسلمين السابقين، بل كانوا من المسيحيين أيضاً، فقد انتهجت الكنيسة السلوك الإرهابي عينه تجاه بعض المسيحيين عن طريق محاكم التفتيش التي أوكلت إليها مهمة فرض آرائها على الناس باسم الدين والبطش بجميع من يتجرأ على المعارضة والانتقاد، فنصبت المزيد من المشانق، وأعدمت عدداً من النصارى المعارضين لسياساتها القمعية عن طريق حرقهم بالنار، ويقدر بعض المؤرخين الغربيين عدد الضحايا المسيحيين ممن جرت عملية إعدامهم من قبل محاكم التفتيش (300. 000) ألف شخص، أُحرق منهم (32000) ألفاً أحياء، وقد كان من بينهم العالم الطبيعي المعروف (برونو) الذي نقمت عليه الكنيسة نتيجة آرائه المتشددة التي منها قوله بتعدد العوالم وكذلك الأمر فيما يتعلق بالعالم الطبيعي الشهير(غاليليو) الذي نفذ به القتل؛ لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس[1].

(1) وول سميث ويلاحظ أن تركيز المؤرخين النصارى على عدد المسيحيين الذين كانوا ضحية لمحاكم التفتيش يأتي من باب تقليل أعداد الضحايا من المسلمين والإيحاء بأن المسيحيين كانوا هم الضحايا الأكثر.

ماذا نريد؟

بعد الذي عرضناه عن محاكم التفتيش نطرح السؤال التالي: لماذا نعود إلى محاكم التفتيش ونستعرضها هكذا؟ هل لنتباكى على مآس مضت أم لنستذكر أحزاناً انقضت.

الإجابة نستشفها مما فعله ويفعله الصهاينة بسبب ما زعموه من محارق الهولوكوست، وما ادَّعوه من حرق النازية لآلاف اليهود في المحارق، فما زالت الصهيونية تضع الغرب بشكل خاص، والعالم بشكل عام أمام تلك المحارق التي كانت أحد تبريراتها لاحتلال فلسطين، بينما ما زال العالم يجهل الكثير عن محاكم التفتيش التي ذهب ضحيتها آلاف وآلاف المسلمين، وإذا كانت محارق النازية قد استمرت أعواماً، فقتل وإحراق وتعذيب المسلمين عبر محاكم التفتيش استمر مئات من الأعوام، وفي الوقت الذي تفتح فيه دول الغرب النصراني أرشيفها، ووثائقها للصهيونية؛ لتؤلف منه ما تدَّعي أنه وثائق عن محارق اليهود في عهد النازية، مازال الفاتيكان والكنائس ترفض فتح أرشيفها وكشفه أمام المسلمين وغير المسلمين؛ كي لا تظهر وثائق جديدة عن فظائع محاكم التفتيش.

إن المسلمين بحاجة الآن لدراسة متمعنة لتاريخ محاكم التفتيش وفظائعها وضحاياها من المسلمين، وأن تُعتمد وثائق أرشيف الفاتيكان والكنائس الكاثوليكية في إسبانيا وغيرها من الدول النصرانية لوضع تاريخ حقيقي لتلك المحاكم، وإبراز هذا التاريخ للعالم، مع مقارنة موضوعية بين التعسف الكنسي والجرائم التي ارتكبت ضد المسلمين باسم المسيحية، وبين التسامح الإسلامي وكيف عاش المسيحيون بأمان وسلام في الدولة الإسلامية بحماية الإسلام الحنيف، مع ملاحظة أن معظم ما كُتب عن محاكم التفتيش حتى الآن يعتمد على رؤية

نصرانية من قِبَلِ مستشرقين ومؤرخين غير مسلمين؛ وبما تسمح به السلطات النصرانية.

ملاحظات هامة:

1- (محاكم التفتيش الكنسية):

لقد سمى المؤرخون محاكم التفتيش ب (محاكم التفتيش الأوروبية) أو (محاكم التفتيش الإسبانية) نسبة للمكان الذي جرت فيه أحداث محاكم التفتيش وهي قارة أوروبا، ولكنني أرى وبعد قراءتي لتاريخ محاكم التفتيش بأن تسمى (محاكم التفتيش الكنسية)، وذلك لأن الأوروبيين من مسلمين ويهود وحتى بعض النصارى كانوا هم ضحايا محاكم التفتيش وأن الذين أنشأوا ومارسوا محاكم التفتيش هي الكنيسة الكاثوليكية ورهبانها وأتباعها وبأوامر من البابوات والرهبان الكاثوليك . فمن الأصح تسمية محاكم التفتيش بمحاكم التفتيش

2- الموركسيون هم أندلسيون:

الموركسيون* : هم أندلسيون وهم أبناء وأصحاب تلك الأرض الطاهرة وليسوا دخلاء عليها ولم يكونوا دخلاء عليها في يوم من الأيام هجروا بالقوة خلال محاكم التفتيش لشمال المغرب وبعضهم هرب فرارا بدينه خوفا من الردة بالقوة عن

* وهنا أريد أن أوضح كلمة يسمي بها الإسبان المسلمين الأندلسيين. الإسبان كانوا يسمون المسلمين في الأندلس بكلمة: "مورو"، وعندما أجبروا المسلمين على التنصر سموهم ما يسمى بالمسلمين المتنصرين، وهم لم يتنصروا في الحقيقة، بل أجبروا على التنصير،سموهم ب-: "موريسكوس"، "موريسكو" هي تصغير: "مورو"، تصغير للاحتقار، ولذلك عندما نقول في هذا الكتاب: "تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيين"، الموريسكيون هم: المسلمون الذين كانوا مسلمين سرا ونصارى ظاهرا، أو على الأقل رسميا.) نقلا عن محاضرة للدكتور علي الكتاني - رحمه الله.

دين الـلـه. فحقهم في العودة للأندلس حقـا لا ينكـره عـالم ولا جاهـل ولـيس اسـتجداء مطالتهم بحقهم بالعودة لأرضهم وممتلكاتهم.

3- الإسبان الحاليين هم بمعظمهم أبناء مسلمين:

على المسلمين أن يقوموا بحملـة توعويـة للأندلـسيين الأحيـاء الحـاليين (الأسـبان) بـأن الكنيسة الكاثوليكية قـد فعلـت الأعاجيـب مـن أشـكال التعـذيب لتنـصير آبـاءهم وأجـدادهم وبأنهم أحفاد هؤلاء الآباء والأجداد المسلمين وبأنهم قد تنصروا خـلال محـاكم التفتـيش بـالقوة وتحت التعذيب الذي مارسته تجاههم الكنيسة الكاثوليكية في حينـه... وبـأن أصـولهم إسـلامية ..وأنهم أبناء جيل قد بنى أعظم حضارة عرفتها أوروبا حينما كانوا عرفوا الإسلام وتحولوا للإسلام .....

المسلمون البربر والعرب فتحوا الأندلس... ولكن أهل الأنـدلس (أهـل الـبلاد الأصـليين) تحولوا للإسلام بعد ذلك رغبة وليس رهبة:

الحقيقة التاريخية أن المسلمون قدموا مـن شـمال إفريقيـا (وهـم مـن البربـر والعـرب) وفتحوا بلاد الأندلس ونشروا فيها الإسلام، وقد تحول أهل تلك البلاد للإسلام وأقاموا دولة الإسلام في الأندلس، وليس فقط المسلمون الذين قدموا من شمال إفريقيا (من العرب والبربر) هم مـن قطن وبنى تلك الحضارة.. فما يقوم بتصويره بعض المغرضين من تشويه للتاريخ بأن الأندلـسيين الذين بنو الدولة الأندلسية المسلمة هم من العرب الغازين لإسبانيا ... فالحقيقـة أن أهـل تلـك البلاد بعد الفتح الإسلامي تحولوا للإسلام وبنو تلك البلاد وتلك الحضارة ولم يكونـوا دخـلاء عـلى تلك البلاد !! وان الذين نصروا بالقوة وبقوا فيها أو رحلوا منها إلى شـمال إفريقيـا أو استـشهدوا تحت التعذيب ودفنوا في ثراها هـم من أبناء تلك البلاد الطاهرة ولم يكونوا دخلاء عليها في يـوم من الأيام.

وهنا لا يسعني إلا أن أستشهد بما ذكره الدكتور علي الكتاني - رحمه الله في إحدى محاصراته حيث ذكر ما يلي:

4- فتح الأندلس لم يكن غزوا:

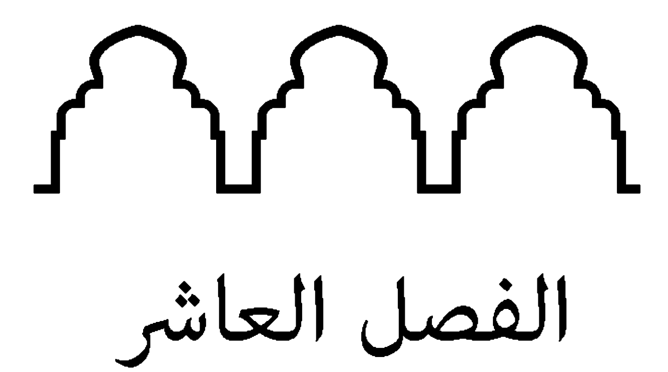
تعلمنا في كتب التاريخ - أو في بعضها على الأقل - أن العرب دخلوا الأندلس سنة 711 ميلادية، وخرجوا منها سنة 1492 بعد "حرب استرداد طويلة" من طرف الإسبان. وهذا يتنافى مع الواقع تماما؛ لأن فتح الأندلس من طرف المسلمين لم يكن غزوا استعماريا لشعب أزاح شعبا آخر كما يقع الآن في فلسطين وكما وقع في القرون الماضية من طرف الدول الأوروبية الغازية التي احتلت شمال أمريكا مثلا، واحتلت أستراليا وأبادت شعوبها. ولكن الفتح الإسلامي للأندلس كان فتحا إسلاميا بمعنى أن: العرب الأوائل أتوا بالدين الإسلامي وقدموه للشعب الأندلسي الذي قبله وتعرّب مع مر الأيام.

فالأندلسيون هم - في الحقيقة - الشعب الأصيل في الجزيرة الإيبيرية، وهو الذي اندمج مع المسلمين الآخرين الذين قدموا لها من عرب وبربر، وتبنى الحضارة الإسلامية، وأصبحت اللغة العربية لغته، وهو الذي أعلى الحضارة الإنسانية إلى المستويات التي نعرفها.

فإذن؛ لم يكن الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية غزوا، ولكن كان تحولا حضاريا لأمة قبلت الإسلام كمحرر من الاضطهادات القائمة من طرف القوط، والحكومات التي غزتها من الشمال في تلك الأحيان، وهذا ليس كلامي فقط؛ بل حتى الكُتاب الإسبان المعاصرون أخذوا يرون الوجود الإسلامي في الأندلس بنظرة جديدة.

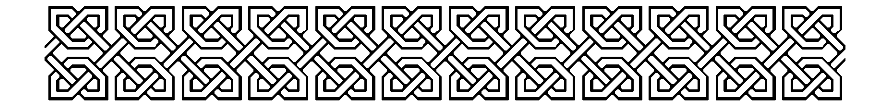
وأنبه بهذه المناسبة إلى كتاب صدر حديثا باللغة الإسبانية، طبع تحت عنوان: "الثورة الإسلامية في الغرب"/ "la revolucion Islamica en Occidente" لإگناسيو أولاگواي Ignacio Olague ، الذي يبين هذا الموضوع.

وبهذا؛ فالحرب لإخراج الإسلام من الأندلس - التي تسمى إسبانيا اليوم - لم تكن حرب استرجاع، ولكن كانت حربا استعمارية صليبية هي نفسها الحرب التي كانت تتجه نحو المشرق العربي والتي كانت تتجه نحو فلسطين بالذات. بهذا نرى هذا الارتباط - حتى في البداية - بين فلسطين والأندلس. وعندما كان الصليبيون يحاولون السيطرة على القدس - وقد نجحوا لحد ما لمدة قرن كامل - كانوا في نفس الوقت يحاربون نفس الأمة؛ وهي: الأمة المسلمة في الغرب في أرض الأندلس.



الفصل العاشر

وحشية محاكم التفتيش



الفصل العاشر

وحشية محاكم التفتيش

من موسوعة قصة الحضارة وتحت عنوان محكمة التفتيش، جاءت صفحات تبين الإرهاب الفكري الذي مارسته الكنيسة الكاثوليكية للنصارى ، فلم تحارب محاكم التفتيش الأوروبية المرتد فقط ، بل حاكمت كل من يفكر في الدين أو يتناقش في أمر من أمور العقيدة فأطلقت عليه وصف مهرطق وأسلمته إلى القتل حرقا، وإن اعترف يتم تخفيف الحكم عليه بأن يشنق قبل أن يحرق . وفي نفس الصفحات المفزعة لتاريخ النصرانية، نقرأ عن اضطهاد اليهود وتخييرهم بين الدخول في النصرانية أو الطرد من أسبانيا، ثم نقرأ عن التعميد بالإكراه، ثم عن اختطاف أطفال اليهود وعزلهم في جزر منعزلة لتنشئتهم نصارى، ثم اضطهاد المسلمين وتخييرهم بين التعميد أو الرحيل مع منعهم من اصطحاب أطفالهم في حالة رحيلهم بل يتم تعميد الأطفال لينشئوا عبادا" للمسيح عليه السلام.والأحداث لن نستخرجها من كتاب يهودي أو إسلامي بل هي من كتاب تاريخ نصراني لمؤرخ حظي باحترام وثقة كل العالم بكتابته لتاريخ البشرية حتى القرن التاسع عشر . سنترك الموضوع بدون تعليق، وأمام القارئ الكريم جزء من شهادة التاريخ عن المحبة الدامية مع العلم أننا قمنا بحذف فقرات بين النصوص لا تمت للموضوع سلبا" أو إيجابا" من أجل الاختصار(مثال لذلك وصف الكاتب للآثار والمباني في مدينة لحظة دخول القوات المحاربة لها)، كذلك قمنا باختصار بعض الفقرات بحذف جمل كاملة لا تؤثر في الموضوع بل تستفيض في شرح يكفي القليل منه (مثال لذلك الوصف التفصيلي لمذبحة سان بارتيملي وأسماء الأشخاص وكيف تم طعن

قائد البروتستانت وغيرها...). ولم نتدخل في تركيب أي جملة بل تركنا الجمل على حالتها بأسلوب الترجمة العربية. من موسوعة قصة الحضارة : انتشر مبدأ محكمة التفتيش في يسر بين الأشخاص الذين لم تتأثر مذاهبهم الدينية بالتعليم والرحلة، والذين كانت عقولهم أكثر خضوعاً لحكم العادة والخيال. واعتقد جميع نصرانيي القرون الوسطى تقريباً عن طريق تعليمهم في الطفولة والوسط الذي عاشوا فيه بأن الكتاب المقدس من وحي الله بكل لفظ فيه، وأن ابن الله قد أنشأ الكنيسة النصرانية مباشرة. وبدا أنه ينتج عن هذه المقدمات أن الله يريد أن تكون جميع الأمم نصرانية وأن الإيمان بديانات غير نصرانية يعد كبيرة في حق الله. يضاف إلى ذلك، أنه ما دامت كل هرطقة مادية تؤدي بالضرورة إلى عقاب أبدي فإن المختصين منها قد يعتقدون أنهم بإرهاق روح هرطيق، إنما ينقذون الهدى الكامن فيه وربما أنفذوه هو نفسه من الجحيم الأبدي. وشرعت محكمة التفتيش القوانين والإجراءات الخاصة بها. وكانت قبل أن تقيم قضاتها في مدينة من المدن تذيع في الشعب عن طريق منابر الكنائس منشوراً دينياً "يطالب كل من له علم بهرطقة أن يكشف عنها لرجال التفتيش. وشجع كل امرئ على أن يكون شاهدا، ليبلغ عن جيرانه وأصدقائه وأقاربه. ولم يكن يسمح في القرن السادس عشر مع ذلك باتهام الأقربين ووعد المبلغون بالسرية الخالصة والحماية التامة، وأوقع حرم صارم- أي حرمان ولعنة- على هؤلاء الذين يعرفون هرطيقاً ويخفونه. فإن ظل يهودي معمد يأمل في عودة المسيح، وإذا حافظ على قواعد الطعام التي في الشريعة الموسوية وإذا اعتبر السبت يوم عطلة وعبادة أو غير ملابسه لذلك اليوم، وإذا احتفل بأي وجه من الوجوه بيوم من أعياد اليهود، وإذا ختن أي واحد من أطفاله أو أسماه باسم عبري، أو باركهم دون أن تقوم بعلامة الصليب،وإذا صلى بحركات رأسه أو ردد مزموراً من مزامير الكتاب المقدس دون أن يضيف تمجيد الله في الأعالي، وإذا اتجه بوجهه إلى

الحائط وهو يحتضر، فإذا فعل هذا وأمثاله، كانت عند رجال التفتيش من الشواهد على الهرطقة السرية التي لابد من إبلاغها إلى المحكمة فوراً. ولكل من يشعر بأنه اقترف هرطقة فله في خلال "مهلة صفح" أن يأتي إلى المحكمة ويعترف بها، فيحكم عليه بغرامة أو تفرض عليه كفارة ويصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هراطقة آخرين. ويلوح أن قضاة محكمة التفتيش كانوا يفصحون بعناية القرائن التي جمعها المبلغون والمحققون. حتى إذا اقتنعت المحكمة بالإجماع بإدانة شخص من الأشخاص فأنها تصدر أمراً بالقبض عليه. ويتحفظ على المقبوض عليه في سجن انفرادي، حيث لا يسمح لغير عملاء محكمة التفتيش بالتحدث إليه، ولا يزوره أحد من أقربائه. وكان يقيد بالسلاسل عادة. ويطلب إليه أن يستحضر معه فراشه وملابسه، وأن يدفع جميع نفقات محبسه وطعامه. فإذا لم يقدم المال الكافي لهذا الغرض فإنه يباع القدر المناسب من متاعه ليفي بالمبلغ المطلوب. ولم يكن يخبر المتهم أولا عن التهم الموجهة ضده، وإنما يستدعى لمجرد الاعتراف بتقصيره كما تقضى بذلك العقيدة والعبادة الصحيحتان وأن يشي بكل الأشخاص الذين يتهمون بالهرطقة. فإن أقنع اعترافه المحكمة فقد يصدر عليه حكم غير الإعدام، وإذا أبى الاعتراف سمح له باختيار محامين للدفاع عنه، ويتحفظ عليه في الوقت نفسه في سكن انفرادي. وفي كثير من الأحوال كان يعذب ليكره على الاعتراف وتستمر القضية عادة شهوراً، ويكفي التقييد بالسلاسل في السجن الانفرادي غالباً للحصول على أي اعتراف. ولم يكن يلجأ إلى التعذيب إلا بعد أن يقترع عليه أغلبية قضاة المحكمة على أساس أن الذنب محتمل، وإن كانت القرائن لا تقطع به. ويؤجل التعذيب الذي يحكم به على هذا النحو غالباً على أمل أن الفزع منه يدفع إلى الاعتراف ويبدو أن قضاة التفتيش اعتقدوا بإخلاص أن التعذيب خدمة للمدافع عن نفسه وهو الذي سبق أن عد مذنباً، فقد يكسبه بالاعتراف عقاباً أخف، بل أنه

إذا حكم بإعدامه بعد اعترافه يحصل من قسيس على المغفرة تنجيه من الجحيم؛ ومع ذلك، لم يكن الاعتراف بالذنب كافياً، فقد يلجأ إلى التعذيب مع مدافع عن نفسه لإكراهه على ذكر شركائه في الهرطقة أو الجريمة. وربما عذب الشهود المتناقضون للكشف عمن يذكر الحقيقة منهم؛ وقد يعذب العبيد ليقيموا الدليل على ساداتهم. ولم يكن هناك حد في السن ينقذ الضحايا، ذلك أن فتيات في الثالثة عشرة ونسوة في الثمانين قد ألزمن العذراء (العذراء هي وسيلة تعذيب). وكانت العقوبة القصوى هي الإحراق في المحرقة. وهي للذين حكم عليهم بأنهم اقترفوا هرطقة عظيمة، ولم يعترفوا قبل بدء المحاكمة، ولأولئك الذين اعترفوا في الوقت المناسب وخففت عنهم عقوبتهم أو صفح عنها ولكنهم ارتدوا إلى الهرطقة. ...وإذا لم يعترف إلا بعد صدور الحكم عليه، فإنه يغنم الرحمة بشنقه قبل إحراقه، ولما كانت الاعترافات في اللحظة الأخيرة كثيرة، فقد أصبح إحراق الأحياء نادراً نسبياً، أما الذين يحكم عليهم بالهراطقة الكبيرة، وينكرون ذلك إلى النهاية، يحرمون من الكنيسة المقدسة، ويتركون برغبة محكمة التفتيش للجحيم الأبدي. عين فرديناند وإيزابيلا القضاة الأوائل لمحكمة التفتيش في سبتمبر من عام 1480، لمنطقة إشبيلية. .... واحتفل بأول محرقة أثمرتها محكمة التفتيش الإسبانية في السادس من فبراير لعام 1481 بإحراق ستة من الرجال والنساء. وما أن جاء الرابع من نوفمبر للعام نفسه، حتى كان قد أحرق ثمانية وتسعون ومائتا شخص وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون شخصاً. كم بلغت كثرة الضحايا ؟ قدر ليورنت . بأنهم بلغوا بين عامي 1480 و1488 ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا، وستة وتسعين ألفا وأربعمائة وتسعين عوقبوا، وبين عامي 1480- 1508 بواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة وأثنى عشر أحرقوا ومائتين وواحد وتسعين ألفا وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة، وكانت هذه الأرقام في معظمها تخمينية. ويرفضها اليوم بصفة عامة

المؤرخون البروتستنت ويعدونها تطرفا في المبالغة، يذهب مؤرخ كاثوليكي إلى أنه قد أحرق ألفان بين عامي 1480و1504، وألفان آخران حتى سنة 1758. وأحصى كاتب سر إيزابيلا واسمه هرناندو ده بولجر عدد الذين أحرقوا، بألفين قبل عام 1490 وفاخر ذوريتا أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف في إشبيلية وحدها هناك ضحايا في معظم المدن الأسبانية، بل في الإمارات التابعة لأسبانيا مثل البليار وسردينيا وصقلية والأراضي الواطئة وأمريكا. ونقص معدل الإحراق بعد عام 1500. ولا تصور الإحصائيات أياً كانت الفزع الذي عاش فيه العقل الأسباني في تلك الأيام والليالي. كان الغرض من محكمة التفتيش أن ترهب جميع نصارى المحدثين والقدامى على السواء ليتمسكوا بالسنة الظاهرة على الأقل، على أمل أن يقضى على الهراطقة في مهدها وأن الجيل الثاني أو الثالث من اليهود المعمدين سوف ينسون يهودية أسلافهم. ولم تكن هناك نية للسماح لليهود المعمدين أن يرحلوا عن إسبانيا، فلما حاولوا الهجرة حرمها عليهم فرديناند ومحكمة التفتيش ولكن ماذا كان مصير اليهود غير المعمدين؟ لقد ظل حوالي مائتين وخمسة وثلاثين ألفاً منهم في إسبانيا النصرانية. فكيف السبيل إلى تحقيق الوحدة الدينية للدولة، إذا سمح لهؤلاء أن يمارسوا شعائر عقيدتهم وأن يصرحوا بها؟ ورأى توركيمادا استحالة ذلك، وأوصى بإكراههم على التنصر أو نفيهم. وفي 30 مارس 1492-وهي سنة مزدحمة بالأحداث في تاريخ أسبانيا وقع فرديناند وإيزابيلا مرسوم نفي اليهود. ومؤداه أن جميع اليهود غير المعمدين، أيا كانت أعمارهم أو أحوالهم، عليهم أن يتركوا أسبانيا في موعد غايته 31 يوليه، ولا يسمح لهم بالعودة، ومن يفعل عقوبته الإعدام، ولهم أن يتخلصوا من متاعبهم في هذه الفترة القصيرة بأي ثمن يحصلون عليه ولهم أن يأخذوا معهم المتاع المنقول وصكوك المعاملات دون النقد من ذهب وفضة. وقبل ألف يهودي تقريبا التنصر، وسمح لهم بالبقاء، وترك أسبانيا أكثر من

مائة ألف في موكب خروج طويل كئيب. وقبل رحيلهم زوجوا جميع أطفالهم الذين فوق الثانية عشرة. وساعد الصغار الكبار، وأعان الأغنياء الفقراء. وسار الحجيج على متون الخيل أو الحمير وفي العربات أو على الأقدام. وناشد النصرانيون الطيبون المنفيين عند كل منعطف أن يذعنوا للتعميد. فقابل الربانيون ذلك بأن أكدوا لأشياعهم بأن اللـه سيهديهم إلى أرض الميعاد، وذلك بأن يفتح لهم معبرا في البحر كما فعل لآبائهم في القديم. وانتظر المهاجرون الذين أجمعوا في قادس يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى إفريقيا دون أن تبتل أقدامهم. فلما إنجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل بالسفن وفرقت العواصف أسطولهم الذي كان يتألف من خمس وعشرين سفينة، وردت ست عشر منها إلى أسبانيا حيث آثر الكثيرون من اليهود اليائسين التعميد على دوار البحر. وتحطمت سفينة بخمسين من اليهود بالقرب من صقلية، فسجنوا عامين ثم بيعوا رقيقاً. ولم يجد الآلاف الذين أبحروا من جبل طارق ومالقة وبلنسية أو برشلونة، في العالم النصراني بأسره إلا إيطاليا الراغبة في استقبالهم بدافع إنساني. كانت البرتغال أكثر الأهداف ملائمة للمهاجرين. فقد وجدت فيها من قبل جماعة كبيرة من اليهود، وبلغ بعضهم مكانة من الثراء والمركز السياسي في كنف ملوك لا يضمرون لهم عداوة. ولكن جون الثاني أفزعه عدد اليهود الإسبان-ربما بلغوا ثمانين ألفا – الدين تدفقوا عليها. فمنحهم مهلة ثمانية أشهر، عليهم أن يرحلوا بعدها. وهام مائتان وخمسون يهودياً على ظهر سفينة في البحر أربعة أشهر؛ ترفض ميناء بعد ميناء نزولهم، لأن الطاعون لما يزل متفشيا بينهم. واعتقل قرصان بسكاي إحدى السفن ونهبوا ركابها ثم إستاقوا السفينة إلى مالقة، حيث خير القسس والحكام اليهود بين التعميد أو الموت جوعا. وبعد أن مات خمسون منهم زودت السلطات الباقين بالخبز والماء وطالبتهم بالإيجار إلى إفريقيا. وما أن انتهت مهلة الثمانية أشهر، حتى

باع جون الثاني بيع الرقيق، أولئك اليهود المهاجرين الذين بقوا في البرتغال وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من آبائهم وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشئوا تنشئة نصرانية. ولما ذهبت التوسلات إلى منفذي المرسوم عبثاً، فقد آثرت بعض الأمهات إغراق أنفسهن وأطفالهن، على تحمل الآم فراقهم، ومنحهم خليفة جون واسمه مانويل فرصة جديدة يجمعون فيها أنفاسهم، فقد حرر أولئك الذين استرقهم جون وحرم على القسس أن يثيروا الدهاء على اليهود، وأمر محاكمة أن ترفض جميع المزاعم بأن اليهود قتلوا أطفال نصارى باعتبارها حكايات خبيثة. ولكن مانويل خطب إيزابيلا في الوقت نفسه، وهي ابنة فرديناند وإيزابيلا ووريثتهما، حالما أن يوحد العرشين في فراش واحد ووافق الملكان الكاثوليكيان بشرط أن مانويل ينفي من البرتغال جميع اليهود غير المعمدين سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين.
وخضع مانويل لهذا الشرط، مؤثرا الجاه على الشرف وأمر جميع اليهود والمسلمين في مملكته أن يتنصروا أو يطردوا من البلاد (1496). ولما وجد أن فئة قليلة منهم آثرت التنصر، وكره أن تباد المهن والصناعات التي تفوق فيها اليهود أم جميع الأطفال اليهود دون سن الخامسة عشرة، أن يفصلوا عن آبائهم وينصروا كرهاً. وعارض رجال الدين الكاثوليك هذا الجراء، ولكنه نفذ. فقد روى أحد الأساقفة "رأيت أطفالاً كثيرين يسحبون إلى حوض التعميد من شعورهم". واحتج بعض اليهود على ذلك بوأد أطفالهم ثم قتل أنفسهم، وأصبح مانويل شرساً، فعطل اليهود، ثم أمرهم بأن ينصروا كرهاً. فسحلوا إلى الكنائس، الرجال من لحاهم والنساء من شعورهن، وقتل كثيرون منهم نفسه في الطريق وأرسل المتنصرون البرتغاليون رسالة إلى البابا إسكندر السادس يرجون توسطه ولا يعرف رده، ولعله كان في مصلحتهم، لأن مانويل منح إذ ذاك (مايو 1491) جميع المتنصرين كرها إذنا رسمياً مدته عشرون سنة لا يقدمون أثناءها إلى أي محكمة

بتهمة التشيع لليهودية. ولكن نصراني البرتغال رفضوا منافسة اليهود معمدين وغير معمدين، فإذا جادل يهودي في معجزة تنسب إلى كنيسة في لشبونه فإن الغوغاء يمزقونه إربا (1506)، وانتشرت المذابح ثلاثة أيام لا يمنعها أحد، وقتل فيها ألفا يهودي ودفن مئات منهم أحياء. وأنكر المطارنة الكاثوليك هذه السورة من الغضب، وقتل راهبان دومينيكان حرصا على الشغب. واستتب السلام، أو كاد، باستثناء هذه الأحداث مدى جيل من الزمان. وتم خروج اليهود الرهيب من إسبانيا. بيد أن الوحدة الدينية لم تكن قد تحققت بعد: فقد بقى المسلمون. ذلك أن غرناطة سقطت، ولكن سكانها المسلمين منحوا الحرية الدينية. وانتدب كبير الأساقفة هرناندو ده تالافيرا، حاكماً على غرناطة. فنفذ الميثاق في شيء من السرية وحاول أن يستدرج المسلمين إلى التنصير بالرفق والعدل. ولكن اكسيمينيس لم يوافق على مثل هذا الاعتناق للنصرانية. فألح على الملكة، بأن العهد لا يحافظ عليه مع الكافرين، وأقنعها بأن تصدر مرسوماً (1499) يخير المسلمين بين الدخول في النصرانية وبين مغادرة إسبانيا. وذهب بنفسه إلى غرناطة، وتسلط على طلبيرة وأغلق المساجد، ونصب المحارق العامة التي التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية التي وصلت إليها يده، وأشرف على التنصير الإجباري بالجملة. وكان المسلمون يمسحون الماء المقدس عن أطفالهم عندما يبتعدون عن عين القسيس ونشبت الثورات في المدينة والولاية، وسحقت. وخير جميع المسلمين في قشتالة وليون بمقتضى مرسوم ملكي صدر في الثاني عشر من فبراير لعام 1502 بين الدخول في النصرانية ومغادرة البلاد وأعطوا لذلك مهلة غايتها آخر إبريل من العام نفسه. واحتج المسلمون بأن أسلافهم عند ما حكموا معظم إسبانيا، فإنهم سمحوا بالحرية الدينية، إلا في القليل النادر، للنصارى الذين تحت سلطاتهم، ولكن الملكين لم يتأثرا بهذا الاحتجاج وحرم على الأطفال الذكور دون الرابعة عشرة والإناث

دون الثانية عشرة أن يغادروا إسبانيا مع آبائهم وسمح للأمراء الإقطاعيين بأن يحتفظوا بأرقائهم المسلمين على أن يوضعوا في الأغلال. ورحل الألوف، أما الباقون فقبلوا أن ينصروا بفلسفة أكبر مما فعل اليهود وتعرضوا باعتبارهم عربا موريسكيين محل اليهود المعمدين لتحمل عقوبات محكمة التفتيش على عودتهم إلى ديانتهم السابقة وترك إسبانيا إبان القرن السادس عشر ثلاثة ملايين من المسلمين المتظاهرين بالنصرانية ووصف الكاردينال ريشليه مرسوم عام 1502 بأنه "أمجد حادث في إسبانيا منذ عهد الرسل". واستطرد قائلا: "الآن أصبحت الوحدة الدينية في مأمن، وأوشك عهد من الازدهار أن يبزغ"[1].

2- قتل المرتد بين النصوص والتاريخ: قامت محاكم التفتيش بعقاب كل من يفكر في أمر من أمور الاعتقاد النصراني، مثل ألوهية المسيح عليه السلام أو ألوهية الروح القدس أو جدوى التعميد أو أن العذراء هي أم الإله أم هي أم الإنسان أو عصمة الكتاب المقدس، أو على من أنكروا أن المسيح عليه السلام يتجسد في الخبز الذي يتم تقديمه في القداس بالكنيسة ، وكان العقاب يصل إلى القتل في كثير من الأحيان ، وبالتالي كان عقاب المرتد عن النصرانية القتل بلا هوادة ولا رحمة ولا مراجعة ولا استتابة. وتم الاستدلال على جواز قتل المرتد بنص واضح وصريح من الكتاب المقدس : (تثنية 13 : 6 «وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرّاً أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوِ امْرَأَةُ حِضْنِكَ أَوْ صَاحِبُكَ الذِي مِثْلُ نَفْسِكَ قَائِلاً: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلا آبَاؤُكَ 7 مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الذِينَ حَوْلكَ القَرِيبِينَ مِنْكَ أَوِ البَعِيدِينَ عَنْكَ مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلى أَقْصَائِهَا 8 فَلا تَرْضَ مِنْهُ وَلا تَسْمَعْ لهُ وَلا تُشْفِقْ عَيْنُكَ عَليْهِ وَلا تَرِقَّ لهُ وَلا تَسْتُرْهُ 9 بَل قَتْلاً تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَليْهِ أَوَّلاً لِقَتْلِهِ ثُمَّ أَيْدِي

(1) موسوعة قصة الحضارة- ج 23 ص 77- 97.

جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيراً. 10 تَرْجُمُهُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ.). ومن أمثلة تطبيق حد الردة في العهد القديم ما جاء عن موسى عليه السلام أنه عندما عاد ووجد قومه يعبدون العجل قتل منهم 3000 رجل. (خروج 32 : 28 فَفَعَلَ بَنُو لاوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاثَةِ الافِ رَجُلٍ.). كتب الشيخ أحمد ديدات-رحمه الله-: "هكذا دون استتابة تأمر التوراة بقتل المرتد ويعيبون على الإسلام قتل المرتد في حين أن القرآن الكريم قد أورد ذكر المرتد بموضعين لم يأمر الله بقتله في أي منهما بل اختص الله نفسه بعقاب المرتد مما يوحى بأن عقابه يوم القيامة أفظع من القتل وأشد. وإذا كان ثمّة أحاديث نبوية توصي وتأمر بقتل المرتد حفاظاً على معنويات ومقومات الجماعة المسلمة فإن هذه مسألة فقهية تجتهد الشريعة الإسلامية عن طريق الاستتابة وتقدير ملابسات الحالة من وقوع ضرر أو عدم وقوعه وحدوث حرابة أو خيانة أو عدم حدوث ذلك لتخفيف ما يمكن تخفيفه من عقاب، ما لم يكن الارتداد مؤكّداً مصحوباً بحرابة جماعة المسلمين مما يصل بمقترفة حدّ ما يسمونه بالخيانة العظمى[1].

والمقصود بالاستتابة في الإسلام ، هو إعطاء المرتد فرصة ليراجع نفسه عسى أن تزول عنه الشبهة وتقوم عليه الحُجة ويكلف العلماء بالرد على ما في نفسه من شبهة حتى تقوم عليه الحُجة إن كان يطلب الحقيقة بإخلاص وإن كان له هوى أو يعمل لحساب آخرين، يوليه الله ما تولى. وإن كان الرد النصراني أن شريعة التوراة قد نسخت أو ألغيت بالعهد الجديد، نسألهم عن النصوص التي نسختها أو ألغتها عندهم أولا ولماذا كنت تطبقونها لمئات السنين إن كانت قد ألغيت ؟. أمثلة من التاريخ لقتل المرتد واضطهاد الطوائف الأخرى:

(1) أحمد ديدات – عتاد الجهاد- ص 16.

أ- **إنجلترا** : جلب جيمس (الملك جيمس - ملك إنجلترا) على نفسه الخزي والعار بإحراق اثنين من طائفة الموحدين (الذين يرفضون التثليث ويقولون بالتوحيد) بتهمة الشك في ألوهية المسيح، برغم البراهين التي قدمها الملك إليهم (1612). ولكنه أحسن صنعاً في أنه لم يجز بعد ذلك الإعدام بسبب الخلاف الديني، فكان هذان الاثنان آخر من لقي حتفه بتهمة الكفر في إنجلترا. وباطراد التحسن في الحكومة الدنيوية، أخذت تسود. في بطء، الفكرة القائلة بأن التسامح الديني ينسجم مع الأخلاق العامة والوحدة الوطنية، وتغزو ما كان راسخاً في الأذهان، بطريقة تكاد تكون شاملة، من أن النظام الاجتماعي يتطلب ديانة وكنيسة لا ينازعهما أحد. وحاول ليونارد بوشر في كتابه "السلام الديني" (1614) أن يدلل على أن الاضطهاد الديني يوسع هوة الخلاف ويؤدي حتماً إلى النفاق، ويضر بالتجارة، وذكر جيمس بأن "اليهود ونصارى والأتراك المسلمين متسامحون في القسطنطينية، ومع ذلك فهم جميعاً مسالمون ويعيشون في سلام" على أن بوشر هذا يرى أن الأفراد الذين تشوب عقيدتهم شائبة الخيانة-ولعله يقصد الكاثوليك الذين يرفعون البابا فوق منزلة الملك-ينبغي أن يحرم عليهم عقد الاجتماعات، أو الإقامة في أبعد من عشرة أميال من مدينة لندن[1].

ب- **فرنسا** : عندما نشر الأسقف بريسونيه عام 1523 على أبواب كاتدرائيته كتاباً للبابا عن صكوك الغفران مزقه جان لكلير، وكان يعمل في تمشيط الصوف في مو ووضع مكانها إعلاناً ملصوقاً يصف البابا بأنه مناهض للنصرانية، فقبض عليه، ووسم بالنار على جبهته (1525) بناء على أمر المجلس النيابي لباريس. فانتقل إلى ميتز وهناك حطم التماثيل الدينية، التي كان من المقرر أن يمر أمامها موكب لتقديم

(1) موسوعة قصة الحضارة- ج 28 ص 210.

البخور. وقطعت يده اليمنى واجتث أنفه، وانتزعت حلمتا ثدييه بملقط، وربط رأسه بشريط من الحديد المحمى إلى درجة الاحمرار. وأحرق حياً (1526). وأرسل عدد كبير من المتطرفين الآخرين إلى المحرقة في باريس بتهمة "التجديف" أو لإنكارهم ما للعذراء والقديسين من تفويض في الشفاعة (1526-27)[1].

ج- **إيطاليا** : في عام 1500 أحرق جيورجيو نافارا في بولونيا لأنه، على ما يظهر، أنكر ألوهية المسيح، ولم يكن له من يحميه من الأصدقاء أصحاب النفوذ. وفي ذلك العام نفسه أعلن أسقف أرندا أن ليس ثمة جنة ولا نار، وأن صكوك الغفران ليست إلا وسيلة لجمع الأموال، ولم يوقع عليه مع ذلك أي عقاب. وفي عام 1510 أراد فردناند الكاثوليكي أن يدخل محاكم التفتيش في نابلي، ولكنه لقى مقاومة عنيفة من جميع السكان على اختلاف طبقاتهم اضطر معها إلى التخلي عن هذه المحاولة[2].

د- إضطهاد البروتستانت للكاثوليك ردا" على محاكم التفتيش : وكان الاضطهاد الديني للهراطقة، الذي قام به الكثالكة منذ عهد بعيد، قد نهض به وقتذاك البروتستانت في إنجلترا، وكذلك في سويسرا وألمانيا اللوثرية، وذلك بمطاردة الهراطقة والكثالكة. وأعد كرانمر بياناً بالهرطقات التي يعاقب مرتكبوها بالإعدام إذا لم يرتدوا عنها، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقاً في القربان المقدس أو السيادة الكنسية للبابا، وإنكار الوحي في العهد القديم، أو الطبيعتين في المسيح أو التزكية بالإيمان. وذهبت جوان بوشر الكونتيسة إلى المحرقة لشكها في تجسد الإقنوم الثاني (1550). وقالت لريدلي: أسقف لندن البروتستانتي الذي توسل إليها أن تتراجع عما تقول: "لقد أحرقتم آن أسكيو منذ عهد غير بعيد من أجل قطعة من الخبز (لإنكارها التجسد)، ومع ذلك حدث أن آمنتم بالعقيدة التي أحرقتموها من أجلها، وأنتم سوف تحرقونني الآن من أجل قطعة من

(1) موسوعة قصة الحضارة- ج 25 ص 22-23 . 8513 .

(2) موسوعة قصة الحضارة- ج 21 ص 87 .

اللحم (تشير إلى العبارة الواردة في الإنجيل الرابع). "لقد صنعت الكلمة لحماً، وسوف تؤمنون بهذا أيضاً آخر الأمر". ولم يحرق في عهد إدوارد إلا هرطقيان، ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من الكثالكة سجنوا لحضورهم القداس أو لانتقادهم علناً العقيدة المحافظة المقبولة. وأقيل القساوسة الكاثوليك المتشبثون بآرائهم من مناصبهم وأرسل بعضهم إلى سجن البرج، وعرض على جاردنر، وكان لا يزال هناك، الحرية إذا وافق على التبشير بالعقيدة التي يقول بها أنصار الإصلاح الديني. وعندما رفض نقل إلى "مسكن أحقر" في البرج وحرم من الورق والقلم والكتب. وفي عام 1552 أصدر كرانمر كتابه الثاني عن الصلاة العامة وفيه أنكر وجود المسيح حقاً في القربان المقدس، ونبذ تقديم القربان المقدس بالمسيح المغالى فيه، وراجع في ظروف أخرى الكتاب الأول باتجاه بروتستانتي[1].

هـ- مذبحة لإحدى طوائف البروتستانت : ولعلنا نتعاطف أكثر مع "المهرطقين" الألبيين الذي بكاهم ملتن في سونيتة سماها "حول المذبحة الأخيرة في بييدمونت". وبيان ذلك أنه كان يسكن الأودية الرابضة بين بييدمونت السافواوية ودوفينه الفرنسية قوم يدعون الفودوا، هم حفدة "الفالدنيز" الذين سبقوا حركة الإصلاح البروتستنتي وعاشوا بعدها، والذين احتفظوا بعقيدتهم البروتستنتية خلال عشرات التقلبات التي طرأت على القانون والحكومة. وفي 1655 انضم الدوق شارل ايمانويل الثاني أمير سافوي إلى لويس الرابع عشر في تنظيم جيش لإكراه هؤلاء الفودوا على اعتناق الكاثوليكية. وأثارت المذبحة التي أعقبت ذلك

(1) موسوعة قصة الحضارة- ج 25 ص 164 .

سخط كرومويل، فحصل من مازاران على أمر بوقف هـذا الاضـطهاد. ولكـن بعـد مـوت حامي الجمهورية (كرومويل) والكردينال (مازاران) تجدد الاضطهاد، فلـما ألغـي مرسـوم نانـت استأنفت الدولة الفرنسية جهودها في استئصال شأفة البروتستنتية مـن الإقلـيم. وألقـى الفـودوا السلاح على وعد بالعفو العام، وما لبث ثلاثة آلاف منهم، مجردين مـن الـسلاح، وفـيهم النـساء والأطفال والشيوخ، أن ذبحوا ذبح الأنعام (1686). وسمح للباقين منهم على قيد الحيـاة، الـذين أبوا اعتناق الكاثوليكية، بالهجرة إلى أرباض جنيف[1].

و- قتل يهود تنصروا عنوة ثـم ارتـدوا : ولم يكـن في أسـبانية القـرن الثـامن عـشر يهـود سافرون. ففي مطالع حكم البوريون الأسـبان اسـتغلت جماعـات صـغيرة مـنهم اسـتنارة فليـب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليهودية سراً، واكتشفت حالات كثيرة، وأعدم ديـوان التفتيش بين عام 1700 و1720 ثلاثة يهود في برشلونة، وخمـسة في قرطبـة، وثلاثـة وعـشرين في طليطلة، وخمسة في مدريد. واحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديـد، وبلـغ عدد الدعاوي التي نظرتها محاكمة بين عامي 1721 و1727 أكثر من ثمانمائة بتهمة اليهودية من بين 868 دعوى، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا[2].

ز- صراعات دموية بين البروتستانت والكاثوليك : ...أخذت الأمور تتحرك بسرعة عنـدما قامت جماعة متطرفـة مـن المـصلحين الفرنـسيين بلـصق إعلانـات في شـوارع بـاريس وأورليـان وغيرهما من المُدن، بل وحتى على أبواب مخدع الملك في أمبواز تندد بالقداس وتصفه بأنـه مـن قبيل عبادة الأوثان وبالبابا ورجال الدين

(1) موسوعة قصة الحضارة- ج 33 ص 93 -94.

(2) موسوعة قصة الحضارة- ج 41 ص 367.

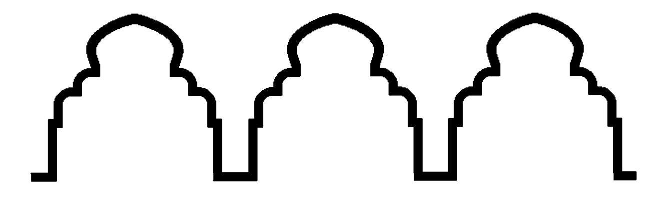
الكاثوليك، وتصفهم بأنهم "ذرية دودة... مارقون، ذئاب... كذابون، كافرون ومزهقون للأرواح" (18 أكتوبر سنة 1534). فاستشاط فرانسيس غضباً وأمر بسجن جميع المشتبه فيهم بدون تمييز وامتلأت السجون. وفي عشية تلك الليلة أحرق ستة من البروتستانت حتى الموت في باريس بطريقة رئي أنها تصلح لتهدئة المعبود. فقد علقوا فوق نار وكانوا يدلون إليها ويرفعون منها مراراً وتكراراً وذلك لإطالة أمد عذابهم. وأحرق في باريس أربعة وعشرون من البروتستانت وهم أحياء من العاشر من نوفمبر عام 1534 والخامس من مايو عام 1535. وزجر البابا بول الثالث الملك لهذه القسوة التي لا داعي لها وأمره بوقف الاضطهاد.. وفي خلال أسبوع واحد (12-18 أبريل) أحرقت بضع قرى حتى سويت بالأرض، وفي إحداها ذبح 800 رجل وامرأة وطفل، وفي مدى شهرين أزهقت أرواح 3.000 نفس وهدمت اثنتان وعشرون قرية، وأكره 700 رجل على العمل في السفن. ولقيت خمس وعشرون امرأة مذعورة لجأن إلى كهف حنقهن خنقاً بنار أشعلت عند مدخله. ورفعت سويسرا وألمانيا البروتستانتيتان احتجاجات مروعة وبعثت أسبانيا بالتهاني إلى فرانسيس وبعد عام اكتشفت جماعة لوثرية صغيرة مجتمعة في سو برئاسة بيير لكلير شقيق جين الذي وسم بالنار وعذب أربعة عشر من الجماعة وأحرقوا كما أحرق ثمانية منهم بعد أن انتزعت ألسنتهم (7 أكتوبر سنة 1546)[1].

ح- محاولة فرض المذهب الكاثوليكي على المصريين من جستنيان : لم يبق بعدئذ أمام جستنيان إلا أن يوحد العقيدة الدينية، وأن يجعل الكنيسة أداة متجانسة يتخذها وسيلة للحكم. وأكبر الظن أن جستنيان كان مخلصاً في عقيدته الدينية، وأن غرضه من توحيد الدين لم يكن سياسياً فحسب، فقد كان هو نفسه يعيش في قصره

(1) موسوعة قصة الحضارة- ج 25 ص 25-27 .

عيشة الراهب في ديره على قدر ما تسمح له بـذلك ثيـودورا؛ يـصوم، ويـصلي، وينكـب عـلى دراسـة المؤلفـات الدينيـة، ويناقش دقـائق العقائـد الدينيـة مـع الفلاسـفة، والبطارقـة، والبابوات. .... وقد استطاع جستنيان أن يكسب تأييد القساوسة الإيطاليين أتباع الدين الأصـلي ضد القوط، وإخوانهم في الشرق ضد اليعقـوبين، بقبولـه وجهـة نظـر البابويـة في المـسائل التـي كانت موضوع الخلاف. وكانت هذه الشيعة الأخيرة التـي تقـول بـأن لـيس للمـسيح إلا طبيعـة واحدة قد كثر عددها في مصر حتى كاد يعادل عدد الكاثوليك. وبلغ من كـثرتهم في الإسـكندرية أن انقسموا هم أيضاً إلى طائفتين يعقوبيتين إحداهما تؤمن بنصوص الكتاب المقدس وأخـرى لا تؤمن به. وكان أفراد الطائفتين يقتتلون في شوارع المدينة بينما كانت نساؤهم يتبادلن القذائف مـن سـطوح المنـازل. ولمـا أن أجلـست قـوات الإمبراطـور المـسلحة أسـقفاً كاثوليكيـاً في كـرسي أثناسيوس كانت أول تحية حياه به المـصلون أن رجمـوه بوابـل مـن الحجـارة، ثـم قتلـه جنـود الإمبراطور وهو جالس على كرسيه. وبينما كانت الكثلكة تسيطر على أسقفية الإسـكندرية، كـان الخارجون عليها يزداد عددهم زيادة مطردة في ريف مصر، فكان الفلاحون لا يـأبهون بقـرارات البطريق أو بأوامر الإمبراطور، وكانت مصر قد خرجت عـن طاعـة الإمبراطوريـة أو أوشـكت أن تخرج عن طاعتها قبل أن يفتتحها الغرب بقرن كامل[1].

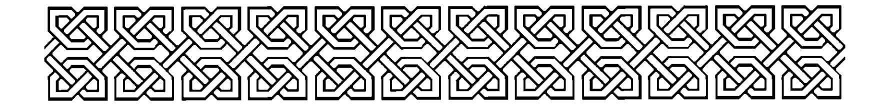
(1) موسوعة قصة الحضارة- ج 12 ص 232 .



الفصل الحادي عشر

من قصص

محاكم التفتيش الأسبانية



الفصل الحادي عشر

من قصص

محاكم التفتيش الأسبانية

ضابط في جيش نابليون يفضح محاكم التفتيش

انتهت محاكم التفتيش رسمياً بعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس ، عندما أرسل نابليون حملته إلى أسبانيا وأصدر مرسوماً سنة 1808 م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانية.لكن بعدها استطاع الملك فريديناند السابع أن يستعيد الحكم لذا فقد انتهت فعلياً في عام 1834م.

فبعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، أرسل نابليون حملته إلى أسبانيا وأصدر مرسوماً سنة 1808 م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانية.

ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها لنا أحد ضباط الجيش الفرنسي الذي دخل إلى إسبانيا بعد الثورة الفرنسية (كتب (الكولونيل ليموتسكي) أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال: " كنت سنة 1809 ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة وكان الإمبراطور نابيلون أصدر مرسوماً سنة 1808 بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ.

وصمم الرهبان الجزوبت أصحاب الديوان الملغى على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقاماً من القرار الصادر وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي في شارع مهجور من شوارع مدريد إذ باثنين مسلحين قد هجما عليّ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعاً شديداً ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب. وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش فأسرعت إلى(المارشال سولت)الحاكم العسكري لمدريد وقصصت عليه النبأ فقال: لا شك بأن من يقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع وهاجم دير الديوان واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة".

حدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى دخلوا عنوة ثم يتابع قائلاً " أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعاً وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراس هزازة وسجاجيد فارسية وصور ومكاتب كبيرة وقد صنعت أرض هذه الغرفة من الخشب المصقول المدهون بالشمع وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعد أنَّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع يوقد أمام صور الرهبان ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد " .

" وكادت جهودنا تذهب سدى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، فلقد فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها ولم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان للتفتيش. وعزمنا على الخروج من الدير يائسين،كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهماً باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع،فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير،لكن "دي ليل" استمهلني قائلاً:"أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟!!).

قلت له:فتشنا الدير كله،ولم نكتشف شيئاً مريباً. فماذا تريد يا لفتنانت؟!..

قال: (إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف فإن قلبي يحدثني بأن السر تحتها).عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة - وكنا نرقب الماء - فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط "دي ليل" من شدة فرحه، وقال ها هو الباب، انظروا، فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة... وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضئ أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعى يده على كتفي متلطفاً، وقال لي: يا بني: لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.

قلت له،يا هذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بـدم الأبريـاء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك!؟!.

وهبطت على درج السلم يتبعني سـائر الـضباط والجنـود، شـاهرين سـيوفهم حتـى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهـم قاعـة المحكمـة، في وسـطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديـوان التفتـيش والقـضاة لمحاكمة الأبرياء. ثم توجهنا إلى غـرف التعـذيب وتمزيـق الأجـسام البـشرية التـي امتـدت عـلى مسافات كبيرة تحت الأرض.

رأيت فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والت-قزز طوال حياتي.

رأينا غرفاً صغيرةً في حجـم جـسم الإنـسان، بعـضها عمـودي وبعـضها أفقـي، فيبقـى سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سـجين الغـرف الأفقيـة ممداً بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عـن العظـم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة مـن جثـث المـوتى فتحـوا نافـذة صـغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.

كان السجناء رجالاً ونساءً، تـتراوح أعمارهـم مـا بـين الرابعـة عـشرة والـسبعين، وقـد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم ، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعاً عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً، وهم يقبّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهداً يبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كل دقيقة نقطة، وقد جُنّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره. فإذا أغلق مزق جسم المعذب المسكين، وقطعه إرباً إرباً.

كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنفٍ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقاً وسحقتها سحقاً وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة[1]... وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شر ممزق ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك. ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهباً ثم أخذ ينهب ما بالدير [2].

(1) السيدة الجميلة هي آلة التعذيب التي بها السكاكين.

(2) علي مظهر: محاكم التفتيش، ص132- 139.

محمد الصغير ... قصة حقيقية مؤثرة جداً

بقلم الأديب الشيخ علي الطنطاوي

قال: كنت يومئذ صغيراً، لا أفقه شيئاً مما كان يجري في الخفاء، ولكني كنت أجد أبي - رحمه الله - يضطرب، ويصفر لونه، كلما عدت من المدرسة، فتلوت عليه ما حفظت من " الكتاب المقدس "، وأخبرته بما تعلمت من اللغة الإسبانية، ثم يتركني ويمضي إلى غرفته التي كانت في أقصى الدار، والتي لم يكن يأذن لأحد بالدنو من بابها، فلبث فيها ساعات طويلة، لا أدري ما يصنع فيها، ثم يخرج منها محمر العينين، كأنه كان بكى بكاءً طويلاً، ويبقى أياماً ينظر إلى بلهفة وحزن، ويحرك شفتيه، فعل من يهم بالكلام، فإذا وقفت مصغياً إليه ولاّني ظهره وانصرف عني من غير أن يقول شيئاً،

وكنت أجد أمي تشيعني كلما ذهبت إلى المدرسة، حزينة دامعة العين، وتقبلني بشوق وحرقة، ثم لا تشبع مني، فتدعوني فتقبلني مرة ثانية، ولا تفارقني إلا باكية، فأحس نهاري كله بحرارة دموعها على خدي، فأعجب من بكائها ولا أعرف له سبباً، ثم إذا عدت من المدرسة استقبلتني بلهفة واشتياق، كأني كنت غائباً عنها عشرة أعوام، وكنت أرى والديّ يبتعدان عني، ويتكلمان همساً بلغة غير اللغة الإسبانية، لا أعرفها ولا أفهمها، فإذا دنوت منهما قطعا الحديث، وحوّلاه، وأخذا يتكلمان بالإسبانية، فأعجب وأتألم، وأذهب أظن في نفسي الظنون، حتى أني لأحسب أني لست ابنهما، وأني لقيط جاءا به من الطريق، فيبرح بي الألم، فآوي إلى ركن في الدار منعزل، فأبكي بكاءً مراً.

وتوالت علي الآلام فأورثتني مزاجاً خاصاً، يختلف عن أمزجة الأطفال، الذين كانوا في مثل سني، فلم أكن أشاركهم في شيء من لعبهم ولهوهم، بل أعتزلهم وأذهب، فأجلس وحيداً، أضع رأسي بين كفي، واستغرق في تفكيري، أحاول أن أجد حلاً لهذه المشكلات.. حتى يجذبني الخوري من كم قميصي، لأذهب إلى الصلاة في الكنسية.

وولدت أمي مرة، فلما بشرت أبي بأنها قد جاءت بصبي جميل، لم يبتهج، ولم تلح على شفتيه ابتسامة، ولكنه قام بجر رجله حزيناً ملتاعاً، فذهب إلى الخوري، فدعاه ليعمد الطفل، وأقبل يمشي وراءه، وهو مطرق برأسه إلى الأرض، وعلى وجهه علائم الحزن المبرح، واليأس القاتل، حتى جاء به إلى الدار ودخل به على أمي.. فرأيت وجهها يشحب شحوباً هائلاً، وعينيها تشخصان، ورأيتها تدفع إليه الطفل خائفة حذرة.. ثم تغمض عينيها، فحرت في تعليل هذه المظاهر، وازددت ألماً على ألمي.

حتى إذا كان ليلة عيد الفصح، وكانت غرناطة غارقة في العصر والنور، والحمراء تتلألأ بالمشاعل والأضواء، والصلبان تومض على شرفاتها ومآذنها، دعاني أبي في جوف الليل، وأهل الدار كلهم نيام، فقادني صامتاً إلى غرفته، إلى حرمه المقدّس، فخفق قلبي خفوقاً شديداً واضطربت، لكني تماسكت وتجلدت، فلما توسط بي الغرفة أحكم إغلاق الباب، وراح يبحث عن السراج، وبقيت واقفاً في الظلام لحظات كانت أطول عليّ من أعوام، ثم أشعل سراجاً صغيراً كان هناك، فتلفتّ حولي فرأت الغرفة خالية، ليس فيها شيء مما كنت أتوقع رؤيته من العجائب، وما فيها إلا بساط وكتاب موضوع على رف، وسيف معلق بالجدار، فأجلسني على هذا البساط، ولبث صامتاً ينظر إليّ نظرات غريبة اجتمعت علي، هي، ورهبة المكان، وسكون الليل، فشعرت كأني انفصلت عن الدنيا التي تركتها وراء

هذا الباب، وانتقلت إلى دنيا أخرى، لا أستطيع وصف ما أحسست به منها.. ثم أخذ أبي يدي بيديه بحنو وعطف، وقال لي بصوت خافت:

يا بني، إنك الآن في العاشرة من عمرك، وقد صرت رجلاً، وإني سأطلعك على السر الذي طالما كتمته عنك، فهل تستطيع أن تحتفظ به في صدرك، وتحبسه عن أمك وأهلك وأصحابك والناس أجمعين؟

إن إشارة منك واحدة إلى هذا السر تعرض جسم أبيك إلى عذاب الجلادين من رجال " ديوان التفتيش" .

فلما سمعت اسم ديوان التفتيش ارتجفت من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي، وقد كنت صغيراً حقاً، ولكني أعرف ما هو ديوان التفتيش، وأرى ضحاياه كل يوم، وأنا غاد إلى المدرسة، ورائح منها - فمن رجال يصلبون أو يحرقون، ومن نساء يعلقن من شعورهن حتى يمتن، أو تبقر بطونهن، فسكتُ ولم أجب.

فقال لي أبي : مالك لا تجيب! أتستطيع أن تكتم ما سأقوله لك؟

قلت: نعم

قال: تكتمه حتى عن أمك وأقرب الناس إليك؟

قلت: نعم

قال: أقترب مني. أرهف سمعك جيداً، فإني لا أقدر أن أرفع صوتي. أخشى أن تكون للحيطان آذان، فتشي بي إلى ديوان التفتيش، فيحرقني حياً.

فاقتربت منه وقلت له:

إني مصغ يا أبت.

فأشار إلى الكتاب الذي كان على الرف، وقال:

أتعرف هذا الكتاب يا بني؟

قلت: لا

هذا كتاب اللـه.

قلت : الكتاب المقدس الذي جاء به يسوع بن اللـه.

فأضطرب وقال:

كلا، هذا هو القرآن الذي أنزله اللـه، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولـد، ولم يكن له كفواً أحد، على أفضل مخلوقاته، وسيد أنبيائه، سيدنا محمد بـن عبـد اللـه النبـي العربي ﷺ.

ففتحت عيني من الدهشة، ولم أكد أفهم شيئاً.

قال: هذا كتاب الإسلام، الإسلام الـذي بعـث اللـه بـه محمـداً إلى النـاس كافـة.. فظهـر هناك.. وراء البحار والبوادي.. في الـصحراء البعيـدة القاحلـة.. في مكـة في قـوم بـداة، مختلفـين، مشركين، جاهلين، فهداهم به إلى التوحيـد، وأعطـاهم بـه الاتحـاد، والقـوة، والعلـم والحـضارة، فخرجوا يفتحون به المشرق والمغرب، حتى وصـلوا إلى هـذه الجزيـرة، إلى إسـبانيا، فعـدلوا بـين الناس، وأحسنوا إليهم، وأمنوهم على أرواحهم وأموالهم، ولبثوا فيها ثمانمائة سنة.. ثمانمائة سـنة، جعلوها فيها أرقى وأجمل بلاد الدنيا.

نعم يا بني نحن العرب المسلمين..

فلم أملك لساني من الدهشة والعجب والخوف، وصحت به:

ماذا.؟ نحن؟ .. العرب المسلمين!

قال: نعم يا بني. هذا هو السر الذي سأفضي به إليك.

نعم نحن. نحن أصحاب هذه البلاد، نحن بنينا هذه القـصور، التـي كانـت لنـا فـصارت لعدونا، نحن رفعنا هذه المآذن التي كان يرن فيها صوت المؤذن، فصار

يقرع فيها الناقوس، نحن أنشأنا هذه المساجد، التي كان يقوم فيها المسلمون صفاً بين يدي الله، وأمامهم الأئمة، يتلون في المحاريب كلام الله، فصارت كنائس يقوم فيها القسوس والرهبان، يرتلون فيها الإنجيل.

نعم يا بني .. نحن العرب المسلمين، لنا في كل بقعة من بقاع إسبانيا أثر، وتحت كل شبر منها رفات جد من أجدادنا، أو شهيد من شهدائنا. نعم .. نحن بنينا هذه المدن، نحن أنشأنا هذه الجسور، نحن مهدنا هذه الطرق، نحن شققنا هذه الترع، نحن زرعنا هذه الأشجار.

ولكن منذ أربعين سنة.. أسامع أنت؟ منذ أربعين سنة خدع الملك البائس أبو عبد الله الصغير، آخر ملوكنا في هذه الديار، بوعود الإسبان وعهودهم، فسلمهم مفاتيح غرناطة، وأباحهم حمى أمته، ومدافن أجداده، وأخذ طريقه إلى بر المغرب، ليموت هناك وحيداً فريداً، شريداً طريداً وكانوا قد تعهدوا لنا بالحرية والعدل والاستقلال. فلما ملكوا خانوا عهودهم كلها، فأنشئوا ديوان التفتيش، أفدخلنا في النصرانية قسراً، وأجبرنا على ترك لغتنا إجباراً، وأخذ منا أولادنا، لينشئهم، على النصرانية، فذلك سر ما ترى من استخفائنا بالعبادة، وحزننا على ما نرى من امتهان ديننا، وتكفير أولادنا.

أربعون سنة يا بني، ونحن صابرون على هذا العذاب، الذي لا تحمله جلاميد الصخر، ننتظر فرج الله، لا نيأس لأن اليأس محرم في ديننا، دين القوة والصبر والجهاد.

هذا هو السر يا بني فاكتمه، واعلم أن حياة أبيك معلقة بشفتيك، ولست و الله أخشى الموت أو أكره لقاء الله، ولكني أحب أن أبقى حياً، حتى أعلمك لغتك ودينك أنقذك من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، فقم الآن إلى فراشك يا بني.

صرت من بعد كلما رأيت شرف الحمراء أو مآذن غرناطة، تعـروني هـزة عنيفـة، وأحـس بالشوق والحزن، والبغض والحب، يغمر فؤادي، وكثيراً ما ذهلت عن نفسي ساعات طويلة فـإذا تنبهت أطوف بالحمراء وأخاطبها وأعاتبها، وأقول لها:

أيتها الحمراء .. أيتها الحبيبة الهاجرة، أنسيت بُناتك، وأصحابك الـذي غـذوك بـأرواحهم ومهجهم، وسقوك دماءهم ودموعهم، فتجاهلت عهدهم، وأنكرت ودهم؟

أنسيت الملوك الصيد، الذين كانوا يجولون في أبهائك، ويتكئون على أساطينك، ويفيضون عليك، ما شئت من المجد والجلال، والأبهة والجمال، أولئك الأعزة الكرام، الذين إن قالوا أصغت الدنيا، وإن أمروا لبى الدهر. أألفت النواقيس بعد الأذان؟

أرضيت بعد الأئمة بالرهبان؟؟

ثم أخاف أن يسمعني بعض جواسـيس الـديوان، فـأسرع الكـرة إلى الـدرة لأحفـظ درس العربية، الذي كان يلقيه عليّ أبي، وكأني أراه الآن يأمرني أن أكتب له الحـرف الأعجمـي، فيكتـب لي حذاءه الحرف العربي، ويقول لي: هذه حروفنا. ويعلمني النطق بها ورسـمها، ثـم يلقـي عـليّ درس الدين، ويعلمني الوضوء والصلاة لأقوم وراءه نصلي خفية في هذه الغرفة الرهيبة.

وكان الخوف من أن أزل فأفشي الـسر، لا يفارقـه أبـداً، وكـان يمتحنـني فيـدس أمـي إليّ فتسألني:

ماذا يعلمك أبوك؟

من أدوات التعذيب التي كانت متبعة من قبل محاكم التفتيش تقطيع الأعضاء بواسطة الأدوات الحادة

فأقول : لا شيء

فتقول: إن عندك نبأ مما يعلمك، فلا تكتمه عني.

فأقول: إنه لا يعلمني شيئاً.

حتى أتقنت العربية، وفهمت القرآن، وعرفت قواعد الدين، فعرفني بأخ له في الله، نجتمع نحن الثلاثة على عبادتنا وقرآننا.

واشتدت بعد ذلك قسوة ديوان التفتيش، وزاد في تنكيله بالبقية الباقية من العرب، فلم يكن يمضي يوم لا نرى فيه عشرين أو ثلاثين مصلوباً، أو محرقاً بالنار حياً، ولا يمضي يوم لا نسمع فيه بالمئات، يعذبون أشد العذاب وأفظعه، فتقلع أظافرهم ، وهم يرون ذلك بأعينهم، ويسقون الماء حتى تنقطع أنفاسهم، وتكوى أرجلهم وجنوبهم بالنار، وتقطع أصابعهم وتشوى وتوضع في أفواههم، ويجلدون حتى يتناثر لحمهم.

واستمر ذلك مدة طويلة، فقال لي أبي ذات يوم: إني أحس يا بني كأن أجلي قد دنا وأني لأهوى الشهادة على أيدي هؤلاء، لعل الله يرزقني الجنة، فأفوز بها فوزاً عظيماً، ولم يبق لي مأرب في الدنيا بعد أن أخرجتك من ظلمة الكفر، وحملتك الأمانة الكبرى، التي كدت أهوي تحت أثقالها، فإذا أصابني أمر فأطع عمك هذا ولا تخالفه في شيء.

ومرّت على ذلك أيام، وكانت ليلة سوداء من ليالي السِّرار، وإذا بعمي هذا يدعوني ويأمرني أن أذهب معه، فقد يسر الله لنا سبيل الفرار إلى عدوة المغرب بلد المسلمين فأقول له : أبي وأمي.؟

فيعنف عليّ ويشدُّني من يدي ويقول لي: ألم يأمرك أبوك بطاعتي؟

فأمضي معه صاغراً كارهاً، حتى إذا ابتعدنا عن المدينة وشملنا الظلام، قال لي:

اصبر يا بني.. فقد كتب الله لوالديك المؤمنين السعادة على يد ديوان التفتيش.

ويخلص الغلام إلى بر المغرب ويكون منه العالم المصنف سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي وينفع الله به وبتصانيفه.

ترجمة صاحب القصة:

محمد بن رفيع الأندلسي : هو محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسيني الجعفري المرسي الأندلسي، سكن تونس، ذكر الزركلى ما جاء بخطه في نهاية كتابه الأنوار النبوية وهو " وقع الفراغ من جمعه وتحرير فصوله وكتبه عشية يوم الجمعة الزهراء بحضرة تونس العلية الخضراء عام 1044 ... إلي قوله : علي يد جامعه وكاتبه العبد إلي الله محمد الرفيعى الشريف الجعفرى الأندلسي المرسى المالكي الموثى طريقة ومذهباً وبأحد الحرمين الشريفين إن شاء الله مدفنا " انتهي .

توفى سنة 1052 للهجرة./ذكر هذه القصة الحقيقية الأستاذ المرحوم علي الطنطاوي في كتابه قصص من التاريخ .

محضر محكمة التفتيش الإسبانية ضد المورسكي دييغو دياث

ترجمة هشام زليم المغربي.

الأندلس، ذلك الحلم الجميل الذي رسمه المؤرخون و الأدباء وتنافس في وصفه الفصحاء و البلغاء سرعان ما أحالته محاكم التفتيش الإسبانية إلى كابوس رهيب و ماض أليم. أمة بكاملها تعرضت لجميع أنواع الإبادات الحسية و المعنوية من تقتيل و تهجير و طمس للهوية و مصادرة للماضي و للإنجازات. من كان يصدق أن الأرض التي شهدت أول نهضة أوربية ستكون للأسف مسرحا لولادة أول دولة عنصرية في التاريخ. فلتفخر إسبانيا بماضيها القائم على الكذب و الأساطير و الروايات الزائفة، و لتُقِم الأعياد تمجيدا لسقوط هذه المدينة أو تلك بيد الملكين الكاثوليكيين و لكن هيهات ينسى أحرار العالم ما اقترفته أيديها من جرائم و إبادات و ما سنته من سنن سوداء في "تكنولوجيا" الإرهاب و التعذيب... ويوما ما ستقف إسبانيا في قفص الاتهام مطأطئة الرأس، مهانة و ستتلى عليها سجلات جرائمها التي ارتكبتها بأيد أشخاص دنيئين مثل الكرادلة توركيمادا، ثيثنيروس، خايمي بليدة، خوان ريبيرا و غيرهم، يومها سيرجع الحق إلى أصحابه و ستُطوى صفحة سوداء من التاريخ و ستُشرق على العالم شمس الأندلس من جديد!

سنذكر اليوم محنة رجل مورسكي عانى كثيرا مع محكمة التفتيش الإسبانية، جريمته العودة إلى أرضه و الوقوع في "خطيئة" لم يرتكبها هو و كانت رغما عنه!!!

إن قضية هذا المورسكي توضح المعاناة التي عاشها المورسكيون و تعطي فكرة عن الدولة البوليسية-التيوقراطية التي أسستها محكمة التفتيش الإسبانية، دولة جعلت أفعال العباد من أخص خصائصها و نادت بالوشاية بأقرب الأقربين

لعل الواشي ينال غفران الكنيسة. و أهم ما يستشف من القضية هو إصرار الأندلسيين على العودة إلى أرضهم رغم الطرد و بالتالي استمرارهم في العيش بإسبانيا إلى اليوم متنكرين في أزياء و أسماء نصرانية مستعارة.

* تنبيه: ترددت في تعريب كلمة الموروس Moros التي وردت كثيرا في هذا الموضوع، فهناك من يعربها بمعنى "المسلمين" و هناك من يراها تعني "العرب"، لكن ما أراه صحيحا هو ما نحاه العلامة تقي الدين الهلالي المغربي رحمه الله في ترجمته لكتاب "مدنية المسلمين بإسبانيا" لمّا ترجم الموروس بمعنى "المغاربة"، و هذا هو الصحيح، لأن أهل شمال المتوسط اعتادوا نعت سكان شمال أفريقيا بالبربر أو الموروس، و قد تحولت هذه الكلمة اليوم إلى وصف قدحي ينعت به جميع المسلمين بربرا كانوا أو عربا أو حتى سكان الجزر الفيليبينية التي كانت تحتلها إسبانيا، حيث أطلقت على سكان تلك البلاد من المسلمين "المورو".

ملخص و مقتطفات من محضر محكمة التفتيش ضد الموريسكي القشتالي، دييغو دياث، المتابع بكوينكا سنة 1630 بعد أن تم طرده مرتين من شبه الجزيرة الأيبيرية:

الجزار دييغو دياث و زوجته مارية ديل قشتيليو Maria del Castillo موريسكيان يقطنان بلمونتي[1] (Belmonte)

مثُل دييغو دياث أمام المحكمة بعد أن اتهمه كل من خادمته السابقة، أنطونيو مالو Antonio Malo و زوجته و شاهد آخر بما يلي:

- الطبخ بالزيت عوض استعمال شحم الخنزير في الإناء.

(1) الأرشيف الكنسي لكوينكا. Leg 437، num 6169.

- أكل اللحم في أيام الصوم الأكبر -الكواريثما- و في الجُمع دون أن يكونا مُعتلا الصحة إضافة لأكلهما سمك التونة، السردين، الجبن، و هي أشياء لا يأكلها المرضى.

- لا يحضران القداس و لا يعلمان أبناءهما الصلوات.

- يغتسلان، يغيران ثيابهما في الجُمع و ينامان عاريين.

- يستقبلان في فندقهما بغالين و مورسكيين من وادي ريكوتي Valle del Ricote."و تعلم هذه الشاهدة أن المدعو دييغو دياث كان يجمع في منزله العديد من مورسكيي وادي ريكوتي، فكان يدخل هو و زوجته إلى غرفته رفقة هؤلاء المورسكيين فيتحدثون بالعربية التي لا تفهمها هذه الشاهدة و يغلقون عليهم باب الغرفة لأكثر من ثلاث أو أربع ساعات".

عندما سُئل دييغو دياث في المحكمة إن كان له أعداء، ذكر خادمة سابقة طردها بسبب شربها للخمر، و أنطونيو مالو و زوجته أصحاب فندق مثله و منافسين له. يدفع عن نفسه التهم (يقول مثلا أنه لم يتحدث بالعربية مع أولئك الذين استقبلهم بمنزله و إنما باللغة البلنسية، لأنه عاش فترة طويلة في تلك البلاد و تحدث بلغتها و له أصدقاء هناك). و من خلال عدة استجوابات سيروي قصة حياته. ينحدر دييغو دياث من دايميال Daimiel، إحدى بلدات قلعة رباح Calatrava الخمس. ينتمي للموريسكيين القدامى الذين يقيمون بقشتالة لخدمة الملوك الكاثوليك منذ أكثر من 300 سنة، و قد أرادوا طردهم بعد طرد الغرناطيين، و قاموا فعلا بطردهم فعادوا للعيش و الاستقرار في تلك البلدات."

كان سن دييغو عند الطرد 17 سنة، و كان حتى ذلك الحين يعمل مزارعا. "بعد مغادرته ممالك قشتالة، عند الطرد سنة 1609م، عبَر إلى بايونة Bayona عبر

سان خوان دي لوث San Juan de Luz بمملكة فرنسا. قضى هناك حوالي 15 يوما رفقة العديد ممن شملهم قرار الطرد". عاد دييغو إلى داميال قادما من فرنسا لكنه اعتقل، و بعد سجنه لمدة شهرين نُقِل إلى قرطاجنة رفقة موريسكيين آخرين حملوا جميعا في السفينة في اتجاه مدينة الجزائر. روى دييغو تفاصيل مقامه بهذه المدينة و اعترف أنه مختون.

"رسوا قرب الجزائر و جاء أتراك هذه المدينة و حملوهم إلى المدينة نفسها و وضعوهم في مخازن Taraçanas و هي عبارة عن دور ملكية كبيرة تحوي الأسلحة و ذخائر المدفعية، فقاموا في هذا المكان بمعاينة جميع الذكور و ختنوهم". لقد قام بعملية الختان حلاقون، عالجوهم وضمدوهم وأعطاهم الأتراك بعد ذلك طعاما فخما "كما يُعمل في إسبانيا أيام الزفاف". وُضِع الطعام الذي منحوهم على الأرض فوق حصيرة قصبية غطيت بغطاء المائدة . بعد ذلك، صنعوا له من معطف كان يرتديه لباسا للمغاربة."

"عمل دييغو في السفن و في استخراج الحجر ضمن أشغال بناء رصيف للميناء." كانوا يمنحونه ريالا و نصف. كان يمشي رفقة مورسكيين آخرين من طليطلة و من مملكة غرناطة و أيضا مع نصارى. ذات مرة، بينما كانا يتظاهران بلعب الورق، اعترف بخطاياه لقسيس أسير و بأنه مستمر في العيش وفق شريعة النصارى دون أن يخبر بذلك أي أحد. لم يدخل إلى المسجد الكبير بالجزائر إلا مرة واحدة لإحساسه برغبة فضولية في التعرف عليه، و كان ذلك في وقت غير أوقات الصلاة.

يذكر الأمور التي صدمته في عادات الأتراك و كيف أن هذه الأمور كانت ستمنعه عن اعتناق شريعة محمد لو رغب في ذلك. يقول أن كل شيء يعملونه عكس ما هو موجود في إسبانيا: عندما يتبولون يرفعون القميص و يخفضون

السراويل مثل النساء[1]. "ينتعلون أحذية دون أربطة و تبدو كل الأشياء على عكس إسبانيا، أما النساء فيمشين وجوههن مغطاة بحيث لا يستطيع أحد أن يراهُنَّ.". يأكلون و هم جلوس في القذارة، لكن أكثر ما يثير اشمئزازه هو "شراؤهم لغلمان كعبيد للنوم معهم، فانظر سيدي أي وقاحة هذه"... "كما يوجد في الجزائر -العاصمة- أكثر من 6 ألاف غرناطي نصراني بينما موريسكيو أراغون وبلنسية لم يكونوا نصارى أبدا[2] و إذا كان لأحد الغرناطيين الموجودين في الجزائر طفل فإنه لا يجرأ على مفارقته حتى يبلغ العشرين سنة مخافة أن يأخذه منه مغاربة الجزائر و يفعلوا به سوءا كما ذكر سالفا"[3].

(1) نفس الشيء ذكره الراهب دييغو دي هايدو Diego De Haedo في تاريخه العام للجزائر: "يتبولون جالسين القرفصاء كالنساء"

(2) "السبيل الرابع للموروس هو ذاك الذي اتخذه أهل مماليك غرناطة، أراغون، بلنسية و قطلونية بمرورهم باستمرار إلى هذه البقاع رفقة أبنائهم و نسائهم عبر مرسيليا و أماكن أخرى في فرنسا، إنهم لا يرغبون في ركوب السفن من هناك لكن الفرنسيين يحملونهم في قواربهم بكل سرور. كل هؤلاء إذن ينقسمون فيما بينهم إلى طائفتين أو طريقتين في مناحي عديدة، فبعضهم يسمى مدجنا و هؤلاء هم فقط أهل غرناطة و أندلوثيا، و آخرون يدعون ثغريين و يضمون أهل أراغون، بلنسية و قطلونية. هؤلاء جميعا بيض و جميلو القوام مثل أولئك الذين وُلدوا في إسبانيا أو جاؤا منها. يمارس هؤلاء الكثير و العديد من المهن لأنهم جميعا يعرفون إحدى الفنون. بعضهم يصنع البنادق (الكابوسات Cabuces)، آخرون البارود، و البعض الآخر الأملاح، آخرون حدادون، نجارون، بناءون، خياطون، إسكافيون، خزافون و في حرف و فنون أخرى مشابهة؛ و العديدون يعتنون بالحرير و آخرون يتوفرون على محال تجارية تباع فيها كل أنواع البضائع. جميعهم على العموم يُعتبرون ألذ و أشرس أعدائنا نحن نصارى بلاد البربر لأنهم لا يملون أبدا و لا يرتوي عطشهم للدماء النصرانية الزكية. جميعهم يلبسون وفق الموضة و الطريقة التي يلبس بها الأتراك الذين سنتكلم عنهم فيما بعد؛ يوجد منهم في الجزائر حوالي ألف بيت..." دي هايدو. نفس المصدر، الجزء الأول، الصفحة 50-51.

(3) "الرجل الذي عنده ولد يحرسه إن أراد وقايته من هذا الفساد (اللواط) بنفس العيون التي حَرَس بها آريوس* - و قليلون الذين لا يفارقونه بعد ذلك- " دي هايدو، نفس المصدر الصفحة 176.

* وفق الأساطير اليونانية آريوس هو عملاق ذو عيون كثيرة تنتشر في رأسه وسائر جسده، ما يقارب 100 عين. وقد كلفته الإلهة هيرا بحراسة آيو التي حولها عشيقها زيوس إلى عجلة. ولذلك قام آريوس بحراسة آيو وإبقائها مقيدة في شجرة زيتون مقدسة، بعيدا عن زيوس. لهذا يضرب به المثل في دقة الحراسة.

بعد بضعة أشهر في الجزائر، ركب دييغو قاربا للصيادين، بينهم العديد من موريسكيي أراغون، و رأى ذات يوم أنه بات قريبا من شاطئ إسبانيا فارتمى في الماء و سبح حتى وصل إلى طرطوشة. و منها عبر إلى سرقسطة ثم ذهب إلى فرنسا لعله يجد والده أو أحد إخوته. لم يجد أحدا (بعضهم مات، والبعض عاد إلى إسبانيا)، ذهب حتى أبينيون Avignon ثم عاد إلى إسبانيا. عاش في بلنسية، أين تعلّم مهنة الجزارة، ليمارسها بعد ذلك في أوريولة Orihuela ، مانثانارث Manzanares، موتا ديكويربو Mota de Cuervo، و بلومنتي Belmonte و بها استقر حينما تمّ اعتقاله. يقول مدافعا عن نفسه أنه لو لم يكن نصرانيا صالحا لما عاد إلى إسبانيا مرّتين بعد طرده مرّتين. " و أنه لو كان يحفظ شريعة محمد لكان الآن في الجزائر و هي أرض يتوفر فيها كل شيء بكثرة."

طيلة المحضر، كانت النقطة الأساسية في النقاش هي إن كان الختان طوعيا أو لا، بل و إن كان قسريا هل يؤدي هذا إلى الردة عن العقيدة الكاثوليكية لأنه كان بمقدوره الامتناع و اختيار الموت. من جهة أخرى كان محققو محكمة التفتيش يعتقدون أن المغاربة لا يجبرون أحدا على اعتناق عقيدتهم و لا يفرضون الختان بطريقة عنيفة.

"قال و كيل المحكمة: اطلعت على محضر دييغو دياث و ظهر لي أنه غير حصين بما فيه الكفاية، و يعوزه للمصادقة عليه أهم ثلاثة شهود : أنطونيو مالو و زوجه مارية دي لاكونا. بالنسبة لهذين، رأى المفوّض أنه لعدم معرفة المكان الذي يتواجدان فيه يكفي استجواب شخص واحد من بلمونتي، اعتبارا لقيمته، يعلم أنهما صاحبي فندق، و الشخص المستجوَب محامي و رئيس الجمعية الأخوية. من اللازم الاستعلام لدى فندقيين آخرين و الأشخاص العاديين جيران و أصدقاء الغائبين، فليس من المعقول الاختفاء التام لشخصين متزوجين.

نفس الشيء بالنسبة لشاهد آخر، مارية إيرنانديث، التي كانت مرتبطة بهما - بالشاهدين -و تعمل عندهما.

إلى حين المصادقة على هؤلاء الشهود، أقول أنه مع افتراض صحة انتماء هذا المتهم إلى طائفة المغاربة و إلى الذين كانوا لا يُشك عموما في حفاظهم على شريعة محمد و لهذا طُردوا من إسبانيا، هناك خمس شهادات تقول أنه خلال الصيام الأكبر -الكوريثما- و الأيام الحرم الأخرى رأوه يأكل اللحم خاصة في كاورثما سنة 1632م إلى جانب سمك التونة، الجبن و أشياء أخرى مضرة بالصحة.

لإبطال هذا الدليل قدّم دييغو دياث عدة شهود قالوا أنه إذا أكل ذلك فلمرض ألم به و برخصة من الطبيب، لكن بما أن أقوال الشهود لها أساس صحي بخصوص الوعكة الصحية و رخصة الطبيب فإذا لم يقل الطبيب ذلك فلا وزن لألف شاهد يقول بذلك. يقول الطبيب باثكيث Vazquez أنه منحه في بعض المرات رخصة لأكل اللحم؛ لكن الطبيب نفسه قال في المحضر أمام ممثل الكنيسة ثم أمام مفوض محكمة التفتيش أنه لم يمنح له رخصة من هذا القبيل في كاوريثما سنة 1632م و أن الرخصة الممنوحة له أحيانا ليست دائمة الصلاحية. و وصف -أي المتهم- اثنان من بين الشهود الأربعة بأنهم أعداء له هما أنطونيو مالو و زوجته، و يبدوا ذلك قابلا للتصديق لأن مكمن العداء كونهم جميعا أصحاب فنادق و جيران، و هذا يولد لدى أصحاب النفوس الدنيئة حسدا و مصلحة في طرد الآخر من المنطقة. باقي التهم التي وجهها للشهود الأربعة حول اللصوصية و السكر لا أعتد بها رغم أن الشهود يقولون بصفة عامة أن لهم أيادي سوداء و أنهم رأوهم سكرانين، لكن عليهم إعطاء أدلة أكثر فالسكر يُعرف بما يصدر عن السكران من أفعال و لا يُرى بالعين، إضافة إلى أن في مسائل العقيدة لا يُقبل أي طعن في الشهادات إلا إذا كان دافعها العداء.

اتهام آخر هو عدم سماعه للقداس في الأعياد، وهو اتهام ناقص لهذا لا أعتد به، وأيضا لأن هذا لم يقله سوى شاهد واحد وهذا غير حاسم، وهناك شهود كثيرون يفيدون بأنهم رأوه يسمع القداس".

اتهام آخر هو عدم أكله لحم الخنزير حيث قالت خادمة أنه خلال الأشهر السبعة التي قضتها معهم لم تره يأكله ولا يستعمله في القِدر، ولو كانت هناك شهادة أخرى لكان هذا الدليل محكما بأنه من سلالة المغاربة؛ غير أن الشاهد واحد و رغم قولي من قبل أني لا أعتد بتهمة السكر فإنه من خلال شهادتها يبدو في كلامها شيئا من الحماسة ضد هما، ولقولها أنها لم ترهما أبدا يعلمان أبناءهما الصلوات و قد تحققنا من ذلك من خلال إحدى بناتهما ذات 7 سنوات كانت تعرف الصلوات، ومن الممكن أن والديها قد علماها، وكذلك لوجود عدة شهود دعاهم – المتهم- قالوا أنهم رأوه يأكل الخنزير، لهذا لا أعتد بصحة هذا الاتهام..

اتهام آخر يبدو للوهلة الأولى محكما و هو ارتداءه هو و أهل بيته لقمصان نظيفة و أحسن الملابس في أيام الجُمع، لكن إذا اعتبرنا أن الرجل جزار فإن يوم عطلته و ارتداء الملابس النظيفة هو يوم الجمعة. يبقى ارتياب واحد، فالأمر لا يتعلق به وحده فباقي الأسرة يغيرون القمصان في الجُمع. لكن هذا كله عبارة عن قول شاهد واحد هو الخادمة المذكورة أعلاه."

"أقوى دليل ضد هذا المتهم هو ما اعترف به هو نفسه و تأكد منه الخبراء بعد معاينته و هو أنه مختون، و هذا هو أهم شعيرة عند المغاربة، و قد خُتِن بالجزائر عندما طُرد رفقة مورسكيين آخرين، ورغم قوله أنه خُتن قسرا فإن الظاهر الجلي هو العكس، لأن المغاربة لا يجبرون أحدا على اعتناق عقديتهم فما بالك بختن من لم يختن بعد بالقوة. لهذا مما لا شك فيه عندي أن هذا المتهم و الذين ختنوا قد ارتدوا

عن شريعة المسيح المخلص أو أنهم اعترفوا أنهم لم يكونوا نصارى البتة، و هكذا بالنسبة للختان و للباس و للدخول للمساجد قد أقر بانتمائه لشريعة محمد، لأنه اعترف بدخوله إلى المسجد في جو من الوقار، علما أن المغاربة لا يسمحون بالدخول لأصحاب العقيدة المخالفة. واعترف كذلك بأنهم صنعوا له هناك من رداء كان يرتديه زيا للمغاربة و رغم محاولته إبداء الأمر على أنه أُجبر على ذلك فهذا لا يمكن تصديقه أبدا، و قد تم التحقق من الماضي المرتد الذي تاب منه. الأمر الأكثر تأكيدا اعتقاده هو و العامة أنه بذهابه إلى روما للتوبة فسيتجنب العقاب، فاتخذ سبيله إلى هناك، ولما عثر في أبينيون على لجنة كنسية مجتمعة لذاك الغرض اعترف هناك فغفروا له و قد كَشف عن شهادة المعترف بتاريخ 2 يوليوز 1618م. و هذا كله يؤكد أنه لو كان في وقت ما كاثوليكيا فقد ارتد لمّا كان في الجزائر."

" رغم قول الشهود الذين تحدثوا بدعوة منه أمورا في صالحه لم ترفع عنه هذه الشبهة و لم تخفف منها و يلاحظ حديثهم الحماسي و القوي لصالحه، فأحدهم قال أنه رآه عدة مرات يحمل صلوات و يعلمها لأبنائه علما أنه رجل لا يعرف القراءة. آخرون قالوا أنهم رأوه يرتدي ملابسا جديدة أيام الأحد و هذا شيء لا يمكن ملاحظته في العادة إلا من طرف الخدم. و كخلاصة قال أحد الجراحين أن هؤلاء لم يخبروه عن أي وعكات صحية و لا يعرف إن كانت تسمح لهم بأكل اللحم. و قال شاهد قدموه أن وعكاته الصحية معروفة و قد اطلع عليها و أنه بإمكانه أكل اللحم و ضميره مرتاح، و في أوقات أخرى أمام شهود من هذا النوع تم جلدهم 200 جلدة، سواء الجراح، أو الذين شهدوا على الصلوات...(و هناك شهود آخرون قالوا أشياء أخرى مرتبكة و ملقاة على عواهنها كهذه. "

"أما أولئك الذين شهدوا لصالحه بأنه يعطي الصدقات و أفعال أخرى تدل على صلاح الرجل فهي أشياء مشتركة بين المغاربة، الكفرة و اليهود و كلهم

يعتبرونها أعمالا صالحة. فقط نوع واحد خاص بالنصارى و هي، حسب قول بعض الشهود، إعطاؤه للصدقات لأجل طعام القداسات، و هذا إن لم يكن تظاهرا فإنها محاولة للتكفير عن ردته في الجزائر، لهذا يبدو لي وجوب تقديمه إلى التعذيب و أطلب رخصة بذلك."

"إضافة لهذا أقول أن الاعتراف المقدس الذي أدلى به في أبينيون جاء بعد 7 أو 8 سنوات على خروجه من الجزائر، فإذا كان ختانه نتيجة الخوف و كذلك اعتناقه شريعة محمد، ما كان ليتأخر كل هذا الوقت عن الندم والتوبة ".

"في محكمة التفتيش المقدسة بمدينة كوينكا في يوم العشرين من شهر دجنبر 1633م، حضر الجلسة المسائية السادة المفتشون دون سيبستيان دي فرياس Don Sebastian de Frias، دون إنريكي دي بيرلتا قردناش Don Enrique de Peralta y Cardenas و دون راموس رودريغيث دي مونروي Don Ramos Rodriguez de Monroy وأمروا بإحضار دييغو دياث من الزنزانة، وبعد حضوره أخبروه بما اتفقوا عليه في شأنه وأنه عليه قول ما يريح ضميره و يبر قسمه الذي أداه قبل ذلك، دون أن يضر ذلك بقضيته. فقال أنه ليس عنده ما يخبر به أكثر مما أخبر به".

" سُئِل عن إفادته المتعلقة بختانه هو وباقي الموركسيين بمجرد وصولهم إلى الجزائر من إسبانيا وأنه رفض هذا العمل لأنه بقي نصرانيا بحيث لمّا وجد نفسه مع راهب أسير اعترف له،وأن يذكر السنة التي جرى فيها ذلك والأمور التي ناقشها مع الراهب وإن كان قد اعترف له خصوصا بخطيئة الختان."

"قال أنه لا يتذكر بأي شكل من الأشكال الوقت أو السنة التي كان فيها الطرد لكنه يظن أن بعد سنتين على خروج جميع الموركسيين من غرناطة حملوه في

البداية إلى فيوبيا Veobia ومكث بعض الوقت بسان خوان دي لوثSan Juan de Luz دون أن يتذكر المدة، ومنها عاد إلى إسبانيا، فاعتُقل ببلدة فيلا ديارو Villa de Aro هو والراحل فرانثيثكو مورينو، المنحدر من داميال، اعتقلهما "أمين الفلفل" و سلّمهما للعدالة المدنية واعتّقلوا لمدة ثلاثة أشهر سلّموا بعدها مرّة أخرى إلى "الممون العام" بفيوبيا...ومن هنا ذهب إلى سان خوان دي لوث حيث كان والده ومكث هناك ستة أشهر عاد بعدها إلى إسبانيا، وجاء عبر مدريد إلى ديميال وكان له اتصال بمخبر محكمة التفتيش الذي يُدعى أوروثكو Orozco الذي ظل عنده ما بين 8 و 9 أشهر فأخذه منه عمدة كورتي ماديرا Corte Madera مع كثيرين كانوا أسرى و حملهم إلى قرطاجنة حيث ظلوا بضعة أيام إلى أن جاء العمدة كابريرا Cabrera بمجموعة أخرى من الموريسكيين فجمع عمدة كورتي ماديرا المجموعتين على متن قارب و وعدوهم بأن يرسوا بهم بأرض النصارى فأخذوهم إلى أرض البربر و رسوا بهم في شاطئ مكان يدعى Sorjel سرخيل على بعد 12 أو 14 كلم من الجزائر العاصمة. فبدؤوا بالمسير جميعا نحو الجزائر و عند منتصف الطريق وصلت من الجزائر و المناطق المجاورة فرقة من الجيش يفوق تعدادها 100 شخص فحملوهم إلى المدينة المذكورة فأكرموهم و حملوا من أعياه المسير على خيول جيدة و أردفوا نساء المطرودين من إسبانيا في مؤخرة الأحصنة. بعد 3 أو 4 أيام قاموا بالختان الذي تحدث عنه، بحيث يقوم رجلان من الجزائر بإمساك أحدهم من يديه و دون أن ينبسوا بكلمة واحدة يخفضون سراويله و يختنوه. أما مع الراهب أو القس الذي لا يعلم ما جرى له، فبينما كانا يلعبان الورق اعترف له و أبدى له أسفه لتواجده هناك ولختانهم له.

"و سُئِل عن عدد الأيام التي فصلت بين الختان والاعتراف الذي قال أنه أدلى به للراهب."

"قال بأنه يظن بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من الختان لأن بعض المغاربة الغرناطيين الذين يصنعون الكراسي ولا يعلم أسماءهم أخبروه بوجود راهب أسيرا اعترفوا له، فإن أراد الذهاب للاعتراف لديه فسيتواصلون بينهم بما أنهم نصارى وسيبقون بالقرب منه بينما يعترف".

"ثم سُئِل عن المدة الفاصلة بين اعترافه و خروجه من الجزائر و إلى أي مكان ذهب أول مرّة و في أي منطقة. فقال أن الراهب نفسه نصحه إن كان يعرف العربية أن يذهب إلى وهران ومنها إلى إسبانيا، وإلا فليرافق بعض الموركسيين الأراغونيين القباطنة الذين يخرجون في فرقطات للسرقة و لأغراض أخرى.

وهكذا أتيحت له الفرصة في خرجات قبطان موريسكيي أراغون و قطلونية فارتمى في الماء ووصل إلى هذه المدينة ومنها إلى سرقسطة حيث مرض فدخل المستشفى، وقبل أن يدخل قام بالاعتراف بخطاياه. ومن تم ذهب إلى سان خوان دي لوث بفرنسا بحثا عن والده وإخوانه، فعلم كيف أن بعضهم قد مات وأن الآخرين عادوا إلى إسبانيا، فاتخذ سبيله إلى أفينيون بفرنسا حيث اعترف بخطاياه"

"ثم طُلِب منه أن يكشف عمن نصحه بالذهاب إلى أفينيون بفرنسا وأخبره أن هناك أشخاصا باستطاعتهم تحلته من مثل تلك الأمور".

"قال أنه هو الذي قرر الذهاب إلى روما للاعتراف بذنوبه وعند مروره من أفينيون التقى بقسيسن فرنسيين قبل الوصول إلى المدينة فأخبرهما أنه ذاهب إلى روما لأنه يحفظ بعض الذنوب التي لم يعترف بها فأجاباه أن هناك أسقفا وسفيرا بابويا بإمكانهما تحلته من ذنوبه المحفوظة وأعطياه عباءة ليدخل بها، فمكث هناك بضعة أيام ثم ذهب لرؤية الأسقف و السفير البابوي لكنهما لم يفهما منه ولو كلمة واحدة فأحالاه إلى الرهبان لعل وعسى يجدان أبا يفهم لغته، فأحاله هؤلاء بدورهم إلى

راهب يدعى بتريانو عاش في طليطلة مدة ثلاثة عشرة سنة فاعترف لديه وأحلّه من ذنوبه، فعاد من هناك عبر بربينيون وخيرونا ومرّ قرب سرقسطة ليصل إلى بلنسية ثم أليكانتي فأوريخويلا Orihuela حيث تعرف على أحد الجزارين فتعلّم مهنة الجزارة، وختم بأن ما قاله و أدلى به هو الحقيقة..".

" بعد ذلك طلب وكيل المحكمة استدعاء برناردينو ميدرانو، الذي يقطن بالمدينة و كان أسيرا في الجزائر، ليسألوه حول صحة إجبارية ختان الموريسكيين الذين يصلون هناك و ضرورة التزامهم بقوانين وأزياء المغاربة".

"في مدينة كوينكا و بمقر محكمة التفتيش، يوم العاشر من شهر يناير 1634م، حضر الجلسة الصباحية السيد المفتش دون سيبستيان دي فرياس الذي ترأس الجلسة بمفرده، فأمر بإدخال رجل أدى القسم على قول الحق وكتم السر، وقال أنه يدعى:"دون برناردينو دي ميدرانو Medrano Don Bernardino de نبيل (ينحدر من هذه المدينة يبلغ من العمر حوالي 47 سنة.

سُئل أن يفيد في الفترة التي كان فيها أسيرا في الجزائر إن كان رأى أو سمع عن ختن المغاربة)[1] القادمين من هنا دون أن يطلبوا منهم ذلك كي يصبحوا مغاربة أو يجبروهم بالقوة على زي و شريعة المغاربة".

"قال أنه خلال الفترة التي طُرد فيها المغاربة من إسبانيا أُسِر بمدينة الجزائر وظل بها لمدة ثلاث سنوات و شهرين ورأى بأم عينيه رجال الشرطة Adabajies يمرون في الشوارع وإذا ما عثروا على مورسكي من إسبانيا غير مختون يمسكونه

(1) هذه الفقرة غير موجودة في النسخة التي عربتها، و قد عدت لكتاب الباحثة غارثية مرثيدس أرينال "محكمة التفتيش و الموريسكيون. محاضر محكمة كوينكا" التي نشرت هذا المحضر و أثبتته هنا. الصفحة 148.

ويزجون به بالقوة في أول ردهة تصادفهم فيفحصونه فإن لم يكن مختونا ختنونه رغم أنفه وقد مات الكثيرون جراء الختان وكثيرون جدا أولئك الذين اشتكوا للأسرى وإلى رجال الدين النصارى ختانهم ضدا عن رغبتهم لأنهم كانوا كاثوليكيين نصارى لا يستطيعون الجهر بذلك أمام المغاربة وإنما أمام النصارى الذين يثقون بهم، وتبدأ عملية الختان بعد إصدار إعلانات من طرف العدالة بأن يتم ختان جميع المورسكيين شاءوا أم أبوا.

وقد لاحظ هذا الشاهد أن كل مورسكيي مملكة بلنسية كانوا مختونين، ونصف مورسكيي أراغون تقريبا، بينما لا أحد من مورسكيي قشتالة وأندلوثيا كان مختونا حسب الرأي الذي كان متداولا بين الأسرى و رجال الدين.

ويعلم هذا الشاهد أن القس برناردو دي مونرو المخلص العام لطائفة التثليث قد حصل على تفويض من قداسته (البابا) بالعفو عن المورسكيين الكاثوليكيين الذين خُتنوا وقد رأى هذا الشاهد بأم عينيه بعضا من مورسكيي إسبانيا يتوجهون للاعتراف رفقة الأب مونرو ويدير لهم الطقوس الدينية".

"وسُئِل إن كان يعلم أو سمع في الوقت الذي كان فيه في الجزائر إن كان المغاربة يسمحون للنصارى الذين يعيشون بين ظهرانيهم بالدخول إلى مساجدهم".

" قال حينما يكونون في المسجد للصلاة لا يسمحون بأي شكل من الأشكال بدخول النصارى ولا حتى لنسائهم. و عندما لا يكونون في جماعاتهم من عادة البواب السماح بالدخول بسرعة لمن سنهم بين السابعة والأربعين".

" و سُئل إن كان في الفترة التي قضاها أسيرا في الجزائر قد سمع أو رأى المورسكيين يختنون نصرانيا، فقال أنه رأى المسجد لكن لم يتوقف عنده وأنهم حين

الصلاة و تلاوة القرآن يوجد حرس على البـاب لا يـسمحون للنـصارى ولنـساء المغاربـة بالدخول".

"وسُئل إن كان زي النصارى هناك مثل زي المغاربة أو مخالف لـه وإن كـانوا يـسمحون بأن يرتدي النصارى زيهم و إن كانوا يجبرون الأسرى أو يقنعونهم بأن يصبحوا مغاربة".

"قال بأن الأسرى النصارى الكاثوليك يرتدون جميع أنواع الأقمشة التركية إلا القلنـسوة و يلبسون البني، لكن لا يسمح لهم بارتداء الـزي الإسـباني وإلا انتزعـوه مـنهم و ألبـسوهم لبـاس العبيد الذي هو عبارة عن سراويل من أقمشة بيضاء إلى الساق و قدمين حافيتين وصدرة واسعة إلى نصف الركبتين من الخيش البني، وإذا كانوا أطفالا أو نساء يُلبـسهم المغاربـة حـسب زيهـم حتى يقنعونهم بشريعتهم بـل و يجـبرونهم عـلى ارتـدائها بـالحبس و الهـراوات وأفعـال أخـرى مؤذية، أما الرجال فلا يقنعونهم بترك شريعتهم أو ارتداء زيهم".

" ثم سُئل إن كان في هذه المدينة أو بجوارها شخص عنده علم بالأشياء التي أدلى بها".

"قال لا علم عنده عن شخص ما قد يفيد بذلك غـير خادمـه المـدعو فرانثيثكـو يورتـادو Francisco Urtado الذي كان يعمل عنده قبل 4 سنوات ولا يعلم الآن مكان تواجده أو إن كـان ميتا أو حيا، ثم أكد أن ما قاله هو الحق الذي أدى اليمين عليه".

الدون برناردينو دي كويلار إي مديرانو Don Bernardino de Cuellar y Medrano

"بعد هذا التصريح للدون برناردينو دي مدرانو يبدو لي أنه يقدم شيئا في صالح المتهم حول ما قاله عن الختان القسري وإن كانت هذه شهادة واحدة لا تشكل بأي شكل دليلا كاملا. كما أكدت ذلك بخصوص أمر قليل الاحتمال، وإن كان صدر من قوم متوحشين، فإنهم مقتنعون بأن من كان من نسل المغاربة أو عُرف بذلك يجوز ختانه بالقوة "(رغم ذلك، قال وكيل المحكمة أنه بسبب وجود شاهد واحد فقط، اعتبر المتهم مشتبها به و يجب أن يحال إلى التعذيب. مع ذلك قاموا بالتصويت ليعتبر القاضي دييغو دياث بريئا ويجب العفو عنه بعد توبيخ شديد و كفارة أمام الملأ لأنه تركهم يختنوه".

هكذا اختتم المحضر.

المصدر: المنشورات الالكترونية للجماعة الإسلامية بالأندلس.

الموركسية كاتلينا مونتيرا Catalina Montera

في إطار "مرسوم الإيمان" Autodafe الذي أُقيم في 3 نونبر 1577 حكمت محكمة التفتيش بلوكرونيو Logrono غيابيا بالموت على الموركسية كاتلينا مونتيرا ذات الستة و العشرون سنة و القاطنة ببلدة أكيلار Aguilar، إضافة لمصادرة ممتلكاتها لصالح الخزينة الملكية.

أمام هذا القرار، قامت كاتلينا بالتخفي عن أعين السلطات المدنية والكنسية ونجحت، عكس الموركسية الأخرى كاتلينا دي أليخندرCatalina de Alexandre، في الفرار من إسبانيا، حيث عبرت جبال البرانس على خطى سهم وعنبسة والغافقي رحمهما الله، لكن ليس لفتح فرنسا ، ولكن لاستئناف الحكم ضدها في روما. لقد كللت جهودها في البداية بالنجاح، حيث عادت بعد سنتين إلى إسبانيا وفي جيبها قرار بابوي يطعن في الحكم ضدها. ومباشرة بعد وصولها المُظفّر أُلغي الحكم، وجاء في محضر الإلغاء الخاص بمحكمة التفتيش أن كاتلينا كانت في روما وحازت على قرار بابوي بتاريخ 7 شتنبر يقضي بإلغاء الحكم ضدها و عدم متابعتها بأية تهمة و إعادة ممتلكاتها المصادر إليها، وقد تمّ تطبيق هذه الأوامر على أكمل وجه"[1].

لكن بعد 6 سنوات، عادت و اعتقلت محكمة التفتيش بلوكرونيو Logrono كاتالينا (التي أصبحت تسمى "الرومانية" La romana لزيارتها روما)، و حكمت

(1) (AHN Inq lib 834. f°264 n° 15) الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني.

عليها مرّة أخرى بالموت حرقا، لكن هذه المرّة نُفّذ الحكم بحذافيره حيث أحرقوها سنة 1585م[1].

كتبه هشام بن محمد زليم المغربي.

(1) "Quand on brulait les morisques" للباحثة الفرنسية جان فيدال Jeanne Vidal. ص: 16.

المورسكي مكيل كوميرو Miguel Gomero

سنة 1598م، اختفت، بقرية برية[1] (Brea)، المورسكية أنخيلا كوميرو Angela Gomero ذات الأربعة و العشرين سنة.

بعد وفاة أبيها، تولى شقيقها الأكبر مكيل Miguel الذي يعمل تاجرا بالبلدة مسؤولية العائلة. فقرر قتل أخته بتأثير من أمه مارية دي أبيكار Maria de Obecar التي علمت أن ابنتها أنخيلا تربطها صلات بمحكمة التفتيش[2].

لقد تحوّلت أنخيلا إلى النصرانية قبل فترة قصيرة، الشيء الذي أقلق عائلتها التي حاولت إرجاعها إلى الصراط المستقيم[3].

كانت أنخيلا تشكو دائما لصديقاتها النصرانيات اضطهاد والدتها لها بسبب نصرانيتها و أنها تخشى أن تقتلها[4]. لذلك ذهبت إلى محكمة التفتيش وبلّغت عن كل من شكت في تخطيطه للإيقاع بها، كزوجها، والدتها، زوج أمها وخمسة مورسكيين آخرين من قرية برية. زوج أنخيلا، أليخندر دي أريكلي[5] Alexandre de Arricle خجل تماما من سلوك زوجته فقرر مغادرة المدينة: لقد "وصل به

(1) برية Brea بلدة تقع غرب سرقسطة.

(2) (AHN، Inq libro 968 f 447) الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني.

(3) هذه من الأدلة القاطعة على استمرار الأندلسيين في الحفاظ على الإسلام رغم تنصيرهم بالقوة، فهذه أنخيلا لمّا تنصّرت حقيقة أصبحت منبوذة من طرف الجميع، بل حتى والدتها عافتها و دفعت أخاها لقتلها و التخلّص من شرورها. و لا ننسى أننا نتحدث عن حادث وقع سنة 1598م أي بعد قرن من تنصيرهم.

(4) (AHN، Inq libro 968 f 447) الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني.

(5) لعل له قرابة مع المورسكي خوان دي أريكلي الذي أحرقته محكمة التفتيش.

الخجل إلى حد لا يريد العودة معه إلى هذا المكان من بريـة[1] (Brea). هكـذا قـام شقيقها مكيل بطعنها طعنات قاتلة.

لقد كانت هذه الحادثة منتظرة من طرف الطائفة المورسكية و خلّفت ارتياحا كبيرا لديها و عدم اكتراث بمصير من خان الأمة. خلال حديثه عن أنخيلا عبّر المورسكي كركوريو فاثالو Gregorio Vassallo عن الرأي الشعبي مشبها وفاتها بموت نعجة لا تستحق كل الضجة التي أُثيرت حولها في البلدة بعد الحادث[2].

أمّا شقيقها مكيل، الذي أنقذ أرواحا كانت ستزهقها محاكم التفتيش بوشايات[3] أنخيلا، فقد حكمت عليه محكمة التفتيش بسرقسطة بالموت حرقا، و تمّ تنفيذ هذا الحكم سنة 1599م[4].

كتبه هشام بن محمد زليم المغربي.

(1) (Inq libro 990 f 50 ،AHN) الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني.

(2) (Inq libro 968 f 436 ،AHN) الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني.

(3) قصة أنخيلا مقتطفة من بحث بعنوان"La femme morisque en Aragon" (المرأة المورسكية في أراغون) للباحثة الفرنسية جاكلين فورنيل كيران Jaqueline Fournel Guerin. و هو بحث قدمته هذه الباحثة لندوة دولية نُظّمت بمونبليه الفرنسية من 4 إلى 7 يوليو 1981، و الندوة بعنوان"Les morisques et leurs temps"..

(4) اسم مكيل كوميرو ورد في لائحة المورسكيين الذين حكمت عليهم محاكم التفتيش بالموت حرقا، هذه اللائحة جمعتها الباحثة الفرنسية جان فيدال في كتابها "Quand on brulaitles morisques".

مارية كليمنتي أورسكا - Maria Clemente Orosca

لعبت المرأة المسلمة بالأندلس دورا حاسما في حفاظ الأندلسيين على دينهم الإسلامي رغم ما انطوى عليه هذا الدور من مخاطر أدّت في أحيان كثيرة إلى الموت حرقا على يد رجال محاكم التفتيش الكاثوليك، الذين اجتهدوا في الفتك بالموركسيات، لعلّهم بذلك يجتثون جذور دين يأبى إلا البقاء في صدور قوم أُجبروا على التنصر بقوة الحديد و النار.

فهذه مارية كيمنتي أرملة لويس دي مدينا تجاوز سنها الخمسين سنة أُحرقت حيّة في 22 يوليو 1585 (أي بعد 92 سنة على سقوط آخر دولة للإسلام بالأندلس بيد النصارى الكاثوليك، و 85 سنة على فرض التنصير الإجباري على أهلها) على يد محكمة التفتيش ،بلوغروني.

تُهمتها أنها قامت بتربية ذريتها على الدين والثقافة الإسلامية، حيث علّمت سورا من القرآن العظيم لأطفال صغار ونبّهتهم لواجباتهم الدينية[1].

لم تنكر مارية رحمها الله هذه "التهم" أثناء التحقيق معها، واعترفت بمسؤوليتها في نشر التعاليم القرآنية واستجابة أفراد أسرتها لدعوتها. وذكر أحد الوشاة لمحكمة التفتيش أنه سمع مارية، لمّا دخل رمضان شهر الصيام، تذكر لبعض الأشخاص واجباتهم الدينية، فقام هؤلاء بالصيام بعد أن أقنعتهم بذلك[2][3].

كتبه هشام بن محمد زليم المغربي.

(1) الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني. °AHN. inq lib 834 f°263 r

(2) نفس المصدر.

(3) من كتاب "Quand on brulait les morisques" للباحثة الإسبانية جان فيدال Jeanne Vidal

قضية دييغو لوبيز رحمه اللـه...

تقع بلدة بيلاروبيا دي لوس أخوس Villarubia de los Ajos شمال إقليم سيوداد ريال Ciudad Real الواقع وسط إسبانيا و تحديدا شمال إقليم الأندلس و جنوب إقليم طليطلة.

بعد سقوط هذه المنطقة بيد نصارى قشتالة حافظ المسلمون بها على دينهم تحت الحكم النصراني و عُرفوا بالمدجنين. و بعد سقوط كامل الدولة الإسلامية سنة 1492م و إصدار قرارات التنصير الإجباري بحق كل المسلمين ابتداء من 1499م، اضطر سكان بلدة بيلاروبيا لإضمار الإسلام و إظهار النصرانية لعلّهم يفلتون من الجحيم الذي تتوعدهم به الكنيسة إذا لم يعتنقوا عقيدة التثليث. و استمروا على هذا الحال إلى سنة 1611م حيث صدر قرار طردهم من إسبانيا أسوة بباقي المسلمين، فقاوموا هذا القرار مقاومة نادرة- كما بين ذلك الباحث الانجليزي دادسون- حيث حُملوا بالقوة إلى فرنسا فعادوا إلى بيلاروبيا، فحملوا مرة أخرى إلى مرافئ قرطاجنة لترحيلهم إلى المغرب لكنهم فروا قبل أن يصلوا إلى السفن قاصدين بلدتهم ، فحاولت السلطات طردهم للمرة الثالثة سنة 1614م لكنها فشلت، فتركتهم بعد أن أعياها إصرارهم.

من بين مسلمي بيلاروبيا، رجل يدعى دييغو Diego Lopez كان من بين الآلاف الذين تشبثوا بالأرض الأندلسية رغم أنف قرارات الطرد التي اجتهدت السلطات الإسبانية المحتلة في إصدارها. سنة 1613م و بينما كان معتقلا في السجن الملكي، كشف دييغو أمام الجميع عن عقيدته الإسلامية فشكل هذا الإعلان صفعة قوية على خذ السلطات المدنية التي أحالت ملفه إلى محكمة التفتيش بطليطلة، فقد تحول من "مجرم عادي" إلى "خطر على أمن الدولة و وحدة المجتمع الكاثوليكي".

خلال محضر التحقيق معه قدّم عشرة أشخاص شهادات تتهمه بأداء عبادات إسلامية.

قد تبدو للوهلة الأولى هذه الشهادات طبيعية ولا شيء يستدعي الوقوف عندها. لكن الأمر ليس كذلك، فمعلوم عند أهل القانون أن الاعتراف سيد الأدلة وغالبا ما يكون الاعتراف بعد أن تحاصر الشهادات المُدينة المتهم فلا يجد مناصا من الاعتراف بعد أن تغلق منافذ التملص أمامه، أو - وهذه طريقة غير نظيفة البتة -يُنتزع الاعتراف عبر التعذيب و الضغط النفسي و الجسدي. لكن في حالة دييغو نرى شيئا آخر له أبعاد اجتماعية خلّفتها محاكم التفتيش في الحياة اليومية الإسبانية إلى يومنا هذا.

فدييغو سُجن في البداية لدى محاكم مدنية تعالج القضايا الجنائية أي أن جرمه لا علاقة له بالعقيدة، فلم يكن هناك أدنى شك من قبل النصارى في عقيدته النصرانية و لم يكن هناك أي شيء يستدعي إشهار إسلامه، لكن فجأة أعلن أنه مسلم، و هذا اعتراف يكفي أن يجعله حطبا لنار "مراسيم الإيمان" أو الأتودافي Autodafe، لهذا قامت السلطات المدنية بتسليمه مباشرة للمحاكم المختصة ب"جرائم العقيدة" ألا و هي محاكم التفتيش السيئة الذكر.

كان يكفي محكمة التفتيش بطليطلة أمام هذا الاعتراف "الطوعي" أن تقدمه مباشرة للموت حرقا و لم تكن في حاجة لاستدعاء الشهود خاصة و أنها أحرقت غيره بناءا على اعترافات انتزعت تحت التعذيب و بناءا على شهادات غير موثوقة، وهي أدلة لا يمكن القبول بها في أي حال من الأحوال، فكيف بمن جاء بقدميه يعترف أنه مسلم، لقد وفّر عليهم جهدا كبيرا كانوا سيبذلونه في التحقيق و التعذيب و استدعاء الشهود.

في حالة دييغو عززت محاكم التفتيش "الاعتراف" بعشرة شهادات -أو كما سنرى بعد قليل "وشايات"- !!! فهل كان هذا الاعتراف في حاجة لشهادات حتى يدينوا دييغو بتهمة الردة؟ و هل كانوا سيطلقون سراحه لو جاءت الشهادات عكس ما اعترف به؟ أم أنها مجرد إجراءات شكلية لا تأثر في مجرى الحكم؟ ثم، هل هؤلاء الشهود تمّ استدعاءهم و أرغموا على الشهادة ضده أم أنهم جاءوا بمحض إرادتهم ليدينوا شخصا رأوه يتعبد بالطريقة الإسلامية؟

لا ندعي حيازة الإجابة على هذه الأسئلة، لكن قد نحوز بعض عناصر الإجابة.

في مقاله القيم حول محكمة التفتيش الإسبانية أبرز عالم الاجتماع و المؤرخ الإسباني خوليو كارو بارخا Julio Caro Baroja أن محاكم التفتيش رسّخت في أوربا -و خاصة إسبانيا- تصرفات و عقليات سيئة استمرّت إلى اليوم:"لو عشت زمن محاكم التفتيش، لكنت ربما عدوا لها بشكل أو بآخر. أما الآن و قد ولّى العصر الذي اشتغلت فيه، عليّ أن أكون عدوا للعادات التي بقيت في دماء العديد من الأسبان حتى اليوم منتقلة من الميدان الديني إلى المجال السياسي و البيروقراطي. عادات كالوشاية، الإبلاغ السري، الانتهازية الرسمية و عيوب أخرى نعرفها بحكم تجربة طويلة"

"إن العيش في السنوات التي عرفت استشراء طبقة الوشاة العامين " los denunciantes públicos" -أو الذين أطلق عليهم بالقشتالية القديمة "النمامون"malsines و باليونانية Sicofantes- يسمح لنا بإعادة خلق أو العيش

تاريخيا في فترات أخرى و أجواء أخرى. كما يسمح لنا بمعاينة الآثار الرهيبة للكراهية بين جماعات عرقية"[1].

لم يكن في الحقيقة باستطاعة المفتشين الإحاطة بجميع جوانب الحياة الشخصية للقاطنين بالأراضي الخاضعة لسلطتهم، فلجئوا لتشجيع الناس على الوشاية ببعضهم البعض، فانتشرت هذه الظاهرة في المجتمع انتشار النار في الهشيم فأصبح الابن يشي بوالده، و الأم بابنها و المرأة بزوجها...ناهيك عمن يشي بعدوه و غريمه، و بما أن الكنيسة كانت قد أعلنت الحرب على المورسكيين و اليهود و البروتستانت -و على معتقداتهم و طقوسهم- فقد شكل هؤلاء وجبة دسمة لهواة الوشاية و الإبلاغ عن الجرائم "العقدية". هؤلاء الهواة تمّت تسميتهم بالنمامين malsines، و عرّف Covarrubias كوفاروبياث النمّام ب"من يُبلّغ العدالة سرّا عن بعض المخالفات بنية سيئة و لمصلحته الخاصة"[2] . باروخا بيّن أن أهل النميمة يلعبون دورا كبيرا في أوقات الفتن و المحن و الاستبداد حيث تختلط مفاهيم "الجريمة" و "العدالة" و تسير وفق إرادة الكنيسة، و تصير النميمة وسيلة للانتقام و القضاء على الخصوم[3] ، بل و تصير أيضا سلّما يرتقي عبره البعض للتقرب من السلطة سواء الكنسية أو المدنية.

فهؤلاء العشرة الذين شهدوا ضد دييغو لوبيز -على الأقل بعضهم- هم مثال حي للنميمة التي استشرت في المجتمع، هذا لو كانوا بالفعل رأوا دييغو يؤدي

(1) مقال لخوليو كارو باروخا Julio Caro Baroja بعنوان .soliloquio sobre la inquisicióny los moriscos

(2) مقال لخوليو كارو باروخا Julio Caro Baroja بعنوان .soliloquio sobre la inquisicióny los moriscos

(3) مقال لخوليو كارو باروخا Julio Caro Baroja بعنوان .soliloquio sobre la inquisicióny los moriscos

عبادات إسلامية. لكن ماذا لو لم يكونوا رأوا شيئا و استغلوا الوضع لتلميع صورتهم "كنمامين" أمام المفتشين و تحقيق مكاسب شخصية؟

ثم هناك نقطة أخرى مثيرة للاهتمام، لماذا لم يبلغ الشهود في الحين عن دييغو لمّا رأوه يتعبّد و انتظروا حتى اعترف؟ فإمّا استدعتهم الكنيسة (كأقاربه و أصدقائه و جيرانه) مثلا للتأكد من الماضي الإسلامي و كذلك لاختبارهم، و إما ذهبوا بمحض إرادتهم لإجلاء الشكوك عنهم.

هنا تظهرنظرية أخرى،لقد بيّن الباحث الانجليزي دادسون أن النصارى القدامى لبيلاروبيا كانت تربطهم علاقات طيبة بالمورسكيين[1]، ومن الممكن أنهم كانوا على علم بإسلام دييغو وأخفوا ذلك عن محاكم التفتيش،ولما انكشف الأمر لم يعد هناك فائدة من الإنكار فأخبروا المحكمة بما رأوا. لكن في هذه الحالة،هل اتخذت محكمة التفتيش إجراءات ضد هؤلاء الذين تستروا على جريمة ضد العقيدة الكاثوليكية ؟ على العموم، لم يذكر المحضر أي شيء عن ذلك.

و نعود لأخينا دييغو لوبيز رحمه الله الذي لم ينف ما كيل له من اتهامات في تلك الشهادات العشر بل أقرّها واستمر على عقيدته الإسلامية لسنة ونصف أخرى.

وحسب محضر الاتهام فقد كان دييغو"دائم العناد، واستمرّ في أداء ما شهد به الشهود ضده" وأكّد للمفتشين أنه "مسلم، ويجب عليه أن يكون كذلك وأن يعيش و يموت على هذه الملّة"[2].

(1) انظرموضوعي"باحث انجليزي يؤكد بالوثائق أن طرد المورسكيين فشل جزئيا"/.كتبه هشام زليم المغربي.

(2) من الأرشيف الوطني الإسباني AHN، Inq، leg 2106/15.

هذا الاعتصام الرائع بحبل الله من قبل دييغو جرح كبرياء المفتشين الذين أبوا إلا يردوه عن الإسلام، فاستدعوا مطارنتهم و قساوستهم فزاروا زنزانته و ألقوا عليه الخطب و المواعظ ، يرغبونه تارة و يرهبونه تارة أخرى، لكنهم أخفقوا وعادوا بخفي حنين. لم يفقد النصارى الأمل في ثني ابن الإسلام البار عن عقيدته الموحدة فجاء الكاردينال المفتش العام لمحاكم إسبانيا -بشحمه و لحمه- لزنزانة دييغو لعله يحقق ما عجز عنه الآخرون و يحوله إلى الكاثوليكية لكنه أخفق و انقلب خاسئا و هو حسير، فكرر الزيارة مرّة أخرى و تحدث إليه، ليعود الكاردينال هذه المرة بخفي حنين و متأبطا شر المهانة و الخذلان، فدييغو لم يبغ عن الإسلام حولا[1]. أمام هذا الصمود العجيب تخلى المحامي الذي عينته المحكمة للدفاع عن دييغو عن موكله و تمّ تسليم "المتهم" لتنفيذ حكم الحرق فيه[2]. و في يوم العاشر من ماي 1615م نظمت محكمة التفتيش بطليطلة "مرسوم إيمان" أوتودافي" أحرقت خلاله الشهيد -بإذن الله- البطل دييغو لوبيز، فرحمه الله و أسكنه فسيح جنانه[3].

أولئك أجدادي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا "فرنادنو" المجامع

(1) ذكرني إصرار النصارى على رد دييغو عن الإسلام بقصة أنسيلم ترميدا Anselm Turmeda، الذي أسلم و أصبح اسمه عبد الله الترجمان. عاش عبد الله على صهوة فرسه (لكثرة ترحاله) حيث ولد سنة 1355 م بميورقة، و درس بليردة Lérida و بولنيا Bolonia، وعيّن سنة 1379م قسيسا، وفي الربع الأخير من القرن 14م اعتنق الإسلام بتونس. نبذُ عبد الله للنصرانية شكل ضربة قاصمة للنصارى، فقد حاولت السلطات بميورقة، ورجال الكنيسة بصقلية وسادة أراغون، بل وحتى البابا بشحمه ولحمه ثنيه عن الإسلام ورده إلى النصرانية، و هو الشيء الذي لم يقر عبد الله أعينهم به. وتوفي رحمه الله سنة 1424م.

(2) نفس المصدر.

(3) قضية دييغو لوبيز ذكرتها الباحثة الفرنسية جان فيدال Jeanne Vidal في بحثها ""Quand on brulait les morisques". الصفحة 86-87.

الشيخ "خوان دي برغاش"

في إحدى ضواحي إشبيلية الفقيرة (من سنة 1586م) حيث استبدل رعاع القوم بأحفاد عليتهم بالأمس،فجمع فيها من كل ذي أصل عربي أو مسلم، من المدجنين الإشبيليين أو الموريسكيين المهجرين من غرناطة إبان ثورة البشرات ...حيث يسوم القساوسة أهاليها سوء العذاب، يستحيون حرمة بيوتهم و يستعبدون صبيانهم باسم الدين والصليب ونور العذراء... نزل الحرس الكاثوليكي الإشبيلي في أحد الأيام بكامل ثقله،يتقدمهم الرهبان حاملين الصلبان و النواقيس، وكلابهم السعراء تعوي في الأزقة عواء الموت القادم...

الأمر جلل عن سابقيه في إشبيلية، فالكنيسة أمام جماعات منظمة من المسلمين المتخفين ينتشر صيتها كل يوم في الضواحي... والمتهم، بائع إسفنج فقير الشيخ "خوان دي برغاش" موريسكي الأصول ذي 80 حولا من عمره الكريم...

اقتيد شيخنا الشهيد مكبلا بالأغلال إلى ساحة المحاكمة، حيث ألقى سحرة قشتالة ثعابين تهمهم الظالمة على الشيخ برغاش:"قيادة جماعة للمسلمين على أرض قشتالة، حيازة المصحف الكريم أو ما يسمونه "كتاب طائفة محمد"، إحياء مراسيم إسلامية في بيته وحيِّه في الخفاء، كالصلاة وصلاة الجماعة ومراسيم الزواج السري على النهج الإسلامي، اتخاذه من بيته مسجدا وحرقه لصور القديسين الكاثوليك... واللائحة تطول...

اقتيد الشيخ برغاش نحو ظلمات العذاب ليقر بأسماء كل المريدين لجماعاته، لكن الله شاء أن يقبض روحه الكريم في جلسة التعذيب الثانية لتدهور سنه و صحته...

دفن الحاج برغاش بعد وفاته بغير مراسيم، كما كانت عادتهم مع كل المتهمين النافقين من الظلم... غير أن الكنيسة لم يكفها الأمر، فاقتيدت زوجته و أذيقت من التنكيل أنواعا مع بعض الشهود ليقروا بالتهم الموجهة... حيث أفضى اعتراف أحدهم (تورد المصادر أن إسمه غارسيا مالدونادو) إلى الإرشاد عن عشرات تفقدت الكنيسة أثرهم لثلاث سنين (1589م)...

بعد تأكيد قرار المحكمة الدينية العليا بإشبيلية لمرسوم إدانة الشيخ برغاش، أعطي الأمر بنبش قبره وحمل رفاته وحرقه أمام الملأ لتنفيذ حكم الإعدام...

و كأن الحقد الدفين لم يخمده سلطان الموت أو توبيخ الأعراف الإنسانية المشتركة في احترام حرمة الميت... لتعطينا الأقدار خير مثال عن همجية الغرب في عصور أنوارهم الفكرية، في نفس الحقب التي يتباهون فيها بعظماء فنانيهم، ومفكريهم و فلاسفتهم... أكاذيب تجتر بعضها، والحق واحد عند اللـه الواحد الذي يمهل ولا يهمل ولو بعد مئات السنين...

رحمك اللـه يا شيخ برغاش، ورحم اللـه كل شهيد ظلم قضى في سبيل قول أن "لا إله إلا اللـه، محمد رسول اللـه"...ولا غالب إلا اللـه...

- من كتاب: Le tribunal du Saint Office de Seville (1560 - 1700)

كتبه هشام بن محمد زليم المغربي.

قضية المورسكية خيرونيما لاثاليمونا.

ظنت محكمة التفتيش الأسبانية أن قوانينها الصارمة و متابعتها اللصيقة للموريسكيين و التنكيل بهم ستحيل المسلمين إلى نصارى و الموحدين إلى مثلثين، فدفعها هذا الظن إلى ارتكاب الحماقة تلو الحماقة و الجريمة تلو الجريمة، متوجة هذه السلسلة من الانتهاكات بإصدار ملك إسبانيا فليبي الثالث لقرار الطرد سنة 1609م بعد أن أعياها إصرار المورسكيين على التشبث بالإسلام و الحفاظ على أوجه عديدة من مناسكه، من بينها دفن الموتى المورسكيين وفق الطريقة المورسكية المخالفة لعادة النصارى في دفن موتاهم.

في سرقسطة، ضربت محكمة التفتيش هناك بيد من حديد كل المورسكيين الذين غسلوا و دفنوا موتاهم وفق الطريقة "المسلمة"، ضاربين بذلك عرض الحائط تعليمات الكنيسة الكاثوليكية و التقاليد النصرانية. من بين هؤلاء المورسكيين الذي دفعوا ثمن مخالفة أمر محكمة التفتيش في مسألة الدفن نجد المورسكية خيرونيما لا ثاليمونا Geronima La Zalemona.

سنة 1604م، توفي في بلدة توريياس Torrellas، المعروفة بتشبثها بالإسلام، ابن خيرونيما و غبرييل دياز. مباشرة بعد سماعهم الخبر، سارع أصدقاء العائلة من المورسكيين إلى الحضور والالتفاف حول جثمان الصغير وقاموا بطقوس أجدادهم المسلمين، حيث كفنوه على طريقة الموروس، لافين إياه في 3 أثواب و وضعوا الطيب وتحته ورق مورسكي. عند وصول المرأة النصرانية المكلفة بتكفين الموتى على الطريقة الكاثوليكية، قامت خيرونيما والدة الطفل المتوفى بمنعها من الاقتراب من ابنها و أكملت تكفين ابنها وفق الطريقة الإسلامية. في الليالي الموالية، استمر المورسكيون في الاجتماع للصلاة و الدعاء للطفل بالرحمة: "ليلتان بعد وفاة الطفل

عاد المورسكيون رفقة المتهمة والأب إلى الغرفة التي مات فيها الراحل حيث أقاموا الصلاة و تلوا سورا للمسلمين على روح المتوفى، واضعين أرجلهم فوق الجلد"[1].

كان حكم محققي محكمة التفتيش قاسيا للغاية في حق خيرونيما التي وقفت سدا منيعا أمام إقامة شعيرة كاثوليكية وأبت إلا أن ترسل ابنها إلى قبره حنيفا مسلما. هكذا اعتقلت خيرونيما ولما خافت أن تضعف أثناء التعذيب و تشي بعائلتها، وخاصة زوجها، قامت بقطع لسانها حتى تكون متأكدة من عدم الكلام و بالتالي الوشاية. هكذا تيقن القضاة أن خيرونيما مذنبة فقاموا بإحراقها يوم التاسع عشر من أكتوبر 1606م[2].

(1) الأرشيف التاريخي الوطنيAHN ، Inq lib 990، r 399 ºfº.

(2) كتاب الباحثة الفرنسية جان فيدال: « Quand on brulait les morisques ». ص : 79.كتبه هشام زليم المغربي.

قضية علي فرانثيثكو بيرث رحمه اللـه

ينحدر علي فرانثيثكو بيرث Ali Francisco Perez من بلـدة بياسـة Baeza الواقعـة شـمال شرق مدينة جيان و قرطبة.

بعد صدور قرار طرد المسلمين من إسبانيا سنة 1609م، غادر علي موطنه رفقة إخوتـه، زوجته و أبنائه، و استقر بالجزائر -العاصمة- حيث عاشـوا عـلى مهنـة الـصيد.احتكاكـه الـدائم بالبحر عرضه لخطر الغارات الإسبانية على السواحل الجزائرية، وفي إحـدى المـرات أسره البحّـار دومنغو إيستريليش Domingo Estelrich ونقله إلى جزيرة ميورقة. كان في نية دومنغو أن يطلـب فدية مالية من ذوي الأسير مقابل إطلاق سراحه، كما كان علي لا يشك في دفع أبنائـه وأحفـاده هذه الفدية حتى يعود إليهم سالما.

لكن الأمور لم تسر كما شاء علي: لقد دخلت محكمة التفتيش ببلنسية على الخط حيـث وصلتها معلومات عن محادثة أبدى فيها علي رغبته في البقاء على العقيدة الإسلامية. فـتمّ عـلى الفور تحويل الأسير المسلم إلى سـجن المحكمـة ببلنـسية وتحوّلـت قـضيته إلى "جريمـة في حـق العقيدة الكاثوليكية".

قـال المحققـون لعـلي :"مـن الممكـن أنـك تنحـدر مـن أرض قـشتالة، وبعـد أن رأيـت الخيروالشر -يقصدون بالخير قشتالة و النصرانية و بالشر الإسلام الذي عاشـه في الجزائـر- تريـد أن تكون مسلما؟".

و هنا لا بد من الوقوف على تناقض عجيب لا نجـده إلا عنـد القـشتاليين الكـاثوليكيين. فكما نعلم قامت الكنيسة ابتداء من سنة 1499م -على يد الطاغية ثيثنيروس- بتنصير المـسلمين قسرا وعُمِّدوا رغما عنهم، وقد اختلف رجال الكنيسة

في مدى صحة هذا التنصير المفروض، فقالت طائفة أنه لا يجب اعتبار من عُمّد بالقوة نصرانيا مادام غير مقتنع بالعقيدة النصرانية، لكن الأغلبية قالت أن الذين عُمّدوا نصرانيون لأنهم قبلوا التعميد وجاءوا بمحض إرادتهم للكنيسة ليعمّدوا،لأنه كان بإمكانهم عدم القبول بالتعميد ومواجهة عواقب هذا الرفض -التي لم تكن سوى الموت حرقا-، لهذا فالمورسكيون نصارى ويجب معاملتهم كذلك. واستمرّت الأوضاع بين صد و رد حتى سنة 1609 لمّا صدر قرار طرد المورسكيين باعتبارهم أعداء للعقيدة الكاثوليكية وللدولة الإسبانية، فطَردوا، وحدث جدل آخر حيث احتجت طائفة: كيف نرسل لأرض الإسلام نصارى تمّ تعميدهم قبل عشرات السنين؟

لكن الرأي الذي ساد أن هؤلاء لن يزيدوا النصرانية إلا تفرقة ووهنا. في هذه الظروف اعتقل علي فرانثيثكو الذي كانت الكنيسة قد طردته قبل سنوات، واليوم عاد إلى إسبانيا رغما عنه فأرادت معاملته كرجل نصراني تمّ تعميده وارتد عن النصرانية واعتنق الإسلام !!! و هذا لعمري هو العجب العُجاب، لكن الكاثوليكية عوّدتنا على مثل هذه التناقضات التي تحار العقول في فهمها.

المهّم أن علي رفض طيلة فترة التحقيق معه الارتداد عن الإسلام، فحُكِم عليه يوم 22 أبريل 1617م بالموت حرقا. لكن محكمة التفتيش العليا La Suprema تدخلت عدة مرات لتأجيل تنفيذ الحكم فاسحة المجال لأربع سنوات من المراودة و محاولات الإقناع، "إذا اعتنق عقيدتنا المقدسة فلا تصفوه". لكن علي كان قد باع نفسه لمولاه، فنِعم البيع هو، و نِعم الصفقة هي.

سنة 1621م قامت محكمة التفتيش ببلنسية بإحراق جدنا علي فرانثيثكو بيرث، فرحمه الله و أسكنه فسيح جنانه[1].

(1) قضية علي فرانثيثكو بيرث ذكرتها الباحثة الفرنسية جان فيدال Jeanne Vidal في كتابها "Quand on brûlait les morisques". ص 87.

الموركسي عبد اللـه علي كشيت Abdela Ali caxet

فر الموركسي البلنسي عبد اللـه علي كشيت Abdela Alicaxet من بلدة بلرغوات Bellreguart بغاندية Gandia (جنوب بلنسية) للاستقرار بالجزائر.

ومنذ وصوله لأرض الإسلام انخرط بكل تفان في الحرب ضد النصارى، حيث تمّ تجنيده كمقاتل على ظهر سفينة حربية عثمانية،وشارك عدة مرّات في إيقاف سفن نصرانية واعتقال من على ظهرها وإرسالهم للتجديف في السفن الشراعية ، كما حدث في غارة بحرية استمرّت 3 أشهر تقريبا انتهت بتوقيف سفينة نصرانية لم يتعرّفوا على جنسيات من عليها فأرسلوهم للتجديف. كما كان قائد وحدة بحرية عثمانية لاعتقال النصارى وشارك بحصار مدينة مالبيك Malbec وهران التي كانت محتلة آنذاك من طرف الأسبان .

وخلال إحدى خرجاته البحرية قام رفقة مسلمين آخرين بأسر حوالي 23 نصرانيا، باع حصته منهم كعبيد في أسواق الجزائر.[1]

شجاعته دفعته إلى حد الذهاب إلى شواطئ غاندية التي فرّ منها قبل سنوات وحمل حوالي 50 موركسيا بصورة سرّية، وقد دفع له هؤلاء الموركسيون حوالي 300 أوقية جزاء إنقاذه لهم من براثين محاكم التفتيش .

لكن مسيرة عبد اللـه في جهاد النصارى في البحر ستتوقف، فقد تمّ أسره في البحر ما بين أوليفا Oliva و كالبي Calpe، واقتيد سنة 1576 إلى سجون الملك قبل أن يتمّ تحويله إلى سجون محكمة تفتيش بلنسية الرهيبة.

و بعد التحقيق معه حُكم عليه بالموت حرقا.

(1) الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني.

لم تنته قصة البطل عبد اللـه علي "الريس" (arraiz) هكذا سمّته محكمة التفتيش بعد اعتقاله) رحمه اللـه هنا، فقد سطّر أثناء التحقيق معه بطولة تفوق تلك التي سطّرها في البحر المتوسط.

لقد راوده المحققون عن دينه وحاولوا تنصيره لينقذ آخرته بعد أن خسر دنياه (حسب زعمهم) بل وتوددوا إليه ورغبوه كي يعتنق النصرانية. لكن الجملة الوحيدة التي ظل يرددها أمام هذه المحاولات الخائبة:

" إذا عشت، فسأعيش مسلما، و إذا كنت سأموت، فسأموت مسلما".

وفي سنة 1576م أحرقت محكمة التفتيش ببلنسية عبد اللـه علي كشيت[1].

...رجلا عشتَ يا عبد اللـه و رجلا مُتُّ.

كتبه هشام زليم المغربي.

(1) الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني.

المصادر و المراجع

أولا المصادر :-

1. ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ط 1 ، تحقيق : ابراهيم الابياري ، دار الكتاب المصري اللبناني 1989 م .
2. ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق ، حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة1985م.
3. ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق : ابراهيم الابياري ، ط3 ، دار الكتاب المصري اللبناني 1989 م .
4. ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق سالم مصطفي البدري ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1998 م .
5. ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق لطفي عبدالبديع ، الهيئة المصرية للكتاب 1975 ، القسم الأول ، المجلد 1
6. ابن بشكوال : الصلة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط 1 ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1989 .
7. ابن بصال : كتاب الفلاحة ، نشر وترجمة وتعليق : خوسي بييكروسا ومحمد عزيمان ، معهد مولاي الحسن ، تطوان 1955 م .
8. البكري : المسالك والممالك، (الجزء الخاص بالأندلس وأوروبا)، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، (بيروت، دار الإرشاد، ط1، 1968م).
9. ابن حزم : فضائل الأندلس واهلها ، نشر وتقديم : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد 1968 م .
10. الحميدي: جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966 .

11. الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس،
12. ابن حيان:المقتبس،تحقيق محمود على مكي،دار الكتاب العربي 1973م .
13. الخشني: قضاة قرطبة،الدارالمصرية للتأليف والترجمة،القاهرة 1966 م ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال، ط 1 ، - ابن الخطيب
14. ابن خلدون: المقدمة ، تحقيق حامد احمد الطاهر ط1، دار الفجر ، القاهرة 2004
15. ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
16. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ج1
17. السلفي : اخبار وتراجم اندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي ، تحقيق : احسان عباس ، ط1 ، دار الثقافة 1963 م .
18. ابن السماك العاملي :الزهرات المنثورة في نكت الاخبار المأثورة
19. صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، تحقيق وتعليق : حسين مؤنس ،
20. ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب".
21. العذري : نصوص عن الأندلس ، تحقيق : عبد العزيز الأهواني ، مدريد 1965 م.
22. ابن عطية المحاربي : فهرس ابن عطية ، تحقيق محمد أبي الأجفان ،
23. ابن العوام : كتاب الفلاحة ، نشر وترجمة خوسيه أنتوينو بانكيري ،
24. عياض : ترتيب المدارك ، ج3 ،
25. الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس . مطبعة السعادة ، 1325 ه- .
26. ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس .ج2 عُنيّ بنشره ، السيد عزت العطار ، ط2 ، مكتبة الخانجي . القاهرة 1988 م .
27. القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا.
28. مجهول:أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها.

29. مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا .

30. مجهول : الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، تصحيح ع . س . علوش ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط 1936 .

31. المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب

32. المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ،

33. المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج1 ،

34. النباهي: تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا)

35. ياقوت الحموى : معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندى. دار الكتب العلمية - بيروت 1990م.

36. يحي بن عمر : أحكام السوق ، تحقيق محمود على مكي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الرابع ، 1956

ثانيا المراجع العربية والمعربة :

37. أحمد ابراهيم الشعراوي:دراسات في تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى ،

38. ابراهيم أحمد العدوي : المجتمع المغربي مقوماته الإسلامية والعربية ،

39. براهيم فرغلي : تاريخ وحضارة الأندلس ، ط1 العربي للنشر والتوزيع ،

40. احمد محمد إسماعيل : دراسات فى تاريخ الأندلس

41. ابراهيم علي طرخان : المسلمون في اوروبا في العصور الوسطى

42. إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين

43. إبراهيم بيضون : الدولة العربية في أسبانيا ، ط 3

44. احمد بدر : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها

45. احمد بدر : تاريخ الأندلس في عهد الخلافة ، دمشق 1974 م .

46. احمد الطاهري : الفلاحة والعمران القروى بالأندلس

47. حمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري

48. احمد فكري : قرطبة في العصر الإسلامي ، تاريخ وحضارة

49. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس

50. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)

51. أسامة طلعت عبد النعيم : العمارة الإسلامية فى الأندلس، القاهرة 2000م

52. السيد عبد العزيز سالم، بحوث إسلامية فى التاريخ والحضارة والآثار، - السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس

53. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس

54. اميريكو كاسترو: حضارة الإسلام في اسبانيا ، ترجمة: د. سليمان العطار

55. توفيق برو : التاريخ السياسي والحضاري العباسي الأندلسي

56. توفيق محمد علي : صفحات من تاريخ المدن الأندلسية ، دار الضياء ،

57. جودة هلال ،ومحمد محمود صبح : قرطبة في التاريخ الإسلامي

58. شاكر مصطفى : الأندلس في التاريخ منشورات وزارة الثقافة

59. شحادة الناطور وآخرون : الخلافة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري

60. الطاهر أحمد مكى : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ،ط2

61. بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية،ترجمة : نبيه أحمد فارس وآخرون

62. حسن ابراهيم حسن:تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

63. حسن أحمد حمود : قيام دولة المرابطين ، القاهرة 1975 م .

64. سن على حسن،الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس

65. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ط2 (1995 م) .

66. تاريخ المغرب والأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة

67. حسين مؤنس: قرطبة ، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى

68. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب – القاهرة ط2 (1995 م).

69. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، دار الرشاد القاهرة 2005 م .

70. حسين مؤنس ، رحلة الأندلس ، القاهرة 1963 م .

71. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار المستقبل ، القاهرة

72. حمدي عبد المنعم : ثورات البربر في الأندلس في عصر الامارة الاموية ،

73. حمدي عبد المنعم : التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس

74. جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ،

75. خالد بن محمد القاسمي : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس

76. خليل إبراهيم السامرائي وآخرون:تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ،

77. دوزي : ملوك الطوائف ، ترجمة كامل كيلاني

78. رضوان البارودى:دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس

79. الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م.

80. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي

81. عدون عباس : تاريخ العرب السياسي في الأندلس ، ط1

82. عدون عباس : دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ط1

83. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى (جزءان)

84. سلمى الخضراء : الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ط2

85. سهيل زكار : في التاريخ العباسي والأندلسي : السياسي والحضاري

86. شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ، ترجمة حسين مؤنس وآخرون

87. شكيب ارسلان : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية

88. شوقي ضيف:الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الإسبانية.
89. صادق جودة : تاريخ المغرب والأندلس.
90. صلاح خالص : إشبيلية في القرن الخامس الهجري
91. عبادة كحيلة : المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب
92. عبد الحليم عويس : ابن حزم الأندلسي ، ط2
93. عبد المحسن طه رمضان : الحروب الصليبية في الأندلس
94. عبدالحميد العبادي : المجمل في تاريخ الأندلس ، ط 2
95. عبد اللـه العروي : مجمل تاريخ المغرب ، ط1
96. عبد الرحمن محمد حميدة: إنجازات علماء الأندلس في ميدان الجغرافيا.
97. - عبد الواحد ذنون : دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي
98. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ، دار المدار
99. عز الدين عمر موسى ، دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى
100. مر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، بيروت، 1399هـ/1979م.
101. لطفي عبدالبديع ، الإسلام في أسبانيا ، ط 2
102. على الصلابي: دولة الموحدين
103. شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة
104. علي مظهر: محاكم التفتيش،
105. الصلابي: دولة الموحدين، ص211.
106. الطاهر أحمد مكى : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة
107. أشرف صالح:الأندلس "المجد الزائل"،
108. ليوبولدو تورتيس بلباس : تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج2.

فهرس المحتويات

الموضـــــــــوع	الصفحة

تم بحمد

الله

طبع في أمواج

الأندلس

من السقوط الى محاكم التفتيش

أحمد محمد عطيات



الأردن - عمان - ماركا الشمالية - دوار المطار
ص.ب ٣٣٠٩٥٩ - الرمز البريدي ١١١٣٤ عمان
تلفاكس : ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٨٨٨٣٦١
E-mail: amwajpub@yahoo.com

